الألف كتاب

(٨١)

إيسوب

تأليف

ا. د. وينتل

ترجمة

الدكتور مختار الوكيل

راجعة

الدكتور عبد الحميد يونس

ملتزمة الطبع والنشر

لجنة البيان العربي

١٩٥٦

التعليم – مدرسة المنزل الثانوية

مقدّمة

شغل العلماء أنفسهم من قديم بتحقيق مولد « إيسوب » وموطنه والكشف عن سيرته ، وما لقى فى حياته من أحداث ، وما تعرض له من محن ، وما نهض به من تبعة خاصة وعامة وقضوا فى ذلك القرون الطوال يبحثون وينقبون ، يضيفون ويسقطون ، حتى انتهوا آخر الأمر إلى هذه الحقائق اليسيرة ؛ فإيسوب حكيم يونانى اشتهر بخرافاته الأخلاقية والتعليمية ، ولايكاد يوجد مثقف فى العالم كله الآن دون أن يتأثر فى بواكير صباه هذه الخرافات مسندة وغير مسندة إلى مؤلفها القديم .

وهذه الحقائق هى أنه ولد منذ حوالى ستة وعشرين قرناً ، ويكاد يجمع الباحثون على أنه ولد عام ٦٢٠ قبل ميلاد المسيح وأنه عاش فترة من حياته عبداً يرسف فى أغلال الرق وتنقل بين مالكين فى مدينة ساموس . واشترى حريته بالحيلة البارعة والذكاء النادر والعلم الغزير ، ثم اضطرب مع الأحرار واحتمل تبعات الخدمة العامة ، فقد كانت الجمهوريات اليونانية القديمة تبيح للمعتقين من الحقوق ما تبيحه للأحرار . واستطاع بحكمته أن يشق له طريقاً فى حياة الأحرار وأن يرقى درجات

الشهرة والمجد وأن يتخلص تماماً من رواسب العبودية والرق وأن يكون رائداً من رواد الحرية فى الفكر والعمل . . ومن هذه الحقائق أنه تنقل بين الربوع والبلدان ليطلب العلم وليذيعه فى الناس فى وقت معاً ، وأنه وفد على مدينة « ساروس » عاصمة « ليديا » وكان عليها ملك يناصر العلم ويُقرّب أصحابه فنال عنده الحظوة وساهم فى مناظرات الحكماء وكان له الغلب فى أكثرها ، فازداد من الملك قربا حتى قال عنه : « لقد تعلم القريجيانى — أى إيسوب — خيراً من الجميع » وأصبحت هذه الكلمة منذ ذاك ، مثلا سائراً يضرب على الفصيح النابه فى حلبة المناظرة والجدل . ومن هذه الحقائق أيضاً أنه أقام فى ساروس وأن الملك ندبه فى سفارات سياسية شتى ، اطمئناناً إلى حكمته وحسن تصرفه ونافذ رأيه ، واستطاع بذلك أن يلم بمختلف الجمهوريات اليونانية ؛ واصطنع قصصه وخرافاته فى تهدئة الخواطر وإخماد الفتن فى بعض المدن اليونانية ، حتى انتهى به المطاف إلى دلفى ، فقد حمّله الملك كريزوس إليها ، قدراً عظيما من الذهب ليوزعه على أهلها ، فلما خالط الناس وعرف جشعهم ، رغب عن توزيع الذهب عليهم ، فتآمروا عليه وثاروا به واتهموه بالزندقة وقتلوه ، كما يقتل المجرمون ! . . ومن هذه الحقائق فوق هذا وذاك أن مدينة دلفى تعرضت بعيد مصرعه للكوارث والنكبات ، وثقل مقتله على الضمير الإنسانى

فربط بين هذه الأحداث وبين الخاتمة المحزنة لحكيم وسفير ورآها تكفيراً عن ظلم وتطهيراً من شر ! . .

ونحن نمر كراماً على روايات قليلة أخرى يقع عليها الخلاف بين الباحثين حول سيرة إيسوب كالخلاف على مسقط رأسه ، فقد أدعته مدن ثلاث : هى « ساروس » و « ساموس » و « ميزمبريا » ولكن حقيقة أضخم من كل هاتيك الحقائق التى أسلفت ، هى التى بعثت على عدم احتفاظ الذاكرة الإنسانية بتفاصيل حياة إيسوب ، وهذه الحقيقة هى الاحتفال بخرافاته احتفالا باعد بينها و بين صاحبها وجعلها مثلا سائرة تتلقاها أجيال عن أجيال و يتمثلها الأفراد فى مختلف الأماكن والأزمان ، وأعانت موضوعيتها وأهدافها التعليمية والأخلاقية على هذا الانسلاخ عن مؤلفها وما أكثر ما تروى فرادى بلا سند وإن قُدمت بين يديها إذا اجتمعت ، فى ترجمة مجملة كتبها الراهب القسطنطينى « مكسيموس بلانودس » فى أوائل القرن الرابع عشر . .

ومؤلف هذه السيرة التى بين أيدينا هو **A.D. Wintle** وقد أظهرها عام ١٩٤٣ وأراد بها أن يعيد تلك الخرافات الحكمية إلى صاحبها فأفاد من الحقائق اليسيرة السابقة أفادته من الخرافات نفسها واحتفظ بمقومات العصر والبيئة ولم يخرج على شىء منها ، ولكنه بعث الحياة فى أجوائها

وعنى بالتفاصيل فرسمها وبالملامح والقسمات فأوضحها وتتبع إيسوب منذ طفولته الأولى وتخير لحظة خاصة تدل بذاتها على أنها من معالم الطريق فى حياته وهى اللحظة التى غادر فيها بيته وموطنه ، صبياً مشوهاً معقود اللسان ليضرب فى زحمة الحياة بلا سند ولا عون حتى لقى مصرعه آخر الأمر فى مدينة دلفى . .

وارتفعت « ترجمة الحياة » فى يد المؤلف إلى فن أدبى خالص ، وإن لم يخرج على الحقائق البارزة ، نلمح ذلك منذ اللحظة الأولى ، وليس من شك فى أنه عكف على الدراسة الشاملة لحياة اليونان فى تلك الفترة إلى جانب الكشف عن غوامض سيرة إيسوب باستجلاء خرافاته ، لعل فيها ما يهديه إلى التعرف على مقومات شخصيته وفلسفته الخاصة فى الحياة ، وأغلب الظن أنه حاول أن يرتب هذه الخرافات أو بعضها ، ترتيباً زمنياً يعينه على معرفة مسلك هذه الشخصية فى حركتها وسيرتها وسلوكها . . وأغلب الظن أنه فهمها كما ينبغى أن تفهم ، لا على أنها قالب تربوى أو تعليمى ، ولا على أنها تلفيق واختراع ، ولكن على أنها ثمرة ملاحظة ونتيجة إحساس وخلاصة تجربة ، ولباب تأمل . . حتى إذا تم له ذلك عاش مع إيسوب أو عاش فيه ايسوب ، فارتفعت ترجمة الحياة من الحقائق والروايات المجردة والجزئية إلى كل متماسك منسجم . . . ولست أبالغ

إذا قلت ، إن تحقيق الحياة لفرد كإيسوب ظهر على وجه الأرض أعزل من كل سلاح ، يعد فى ذاته درساً للإنسانية على اختلاف أجيالها ، وإن كان فى الوقت نفسه مفخرة من مفاخر يونان القديمة . وتمثل هذه الحياة الإنسانية ما هو أعظم وأنبل وأقرب إلى النفس حتى من الرموز التى عرضها إيسوب فى خرافاته . وهى تضىء لنا القيم العليا التى أراد الحكيم أن يضمنها رموزه واصطلاحاته فى صور الوحش والطير ..! ولعل النزوع إلى الحرية . حرية الفرد ، وحرية الجماعة ، هو قوام هذه الحياة . الحرية التى لا تتجزأ ، والحرية التى تقوم على احتمال التبعة العظيمة والنهوض بالعمل الكبير . . أما نهايته التى جعلت من سيرته مأساة من أنبل المآسى ، فهى تشبه نهاية « سقراط » الذى دافع عن حرية العقل وإن اختلفت فى الموضوع ، ذلك لأن إيسوب راح ضحية الإيمان بالفضيلة التى رآها وحدها ، الجديرة بالمثوبة ، وكان موقف الضمير الإنسانى من الحكيمين واحداً ، فلم يعترف بصرعهما على هذه الصورة ، وعوضهما خلوداً فى أطواء نفسه وفى ذاكرته . .

وصدور هذه الترجمة المختارة جاء فى وقته ، وفى إبان الحاجة إليه ، وليس لى أن أثنى على الدكتور الوكيل الذى نهض بعبء نقلها إلى اللغة العربية ، فذلك متروك إلى القراء أنفسهم وحسبي أن أقرر أن الأصل والنقل يتكافآن لفظاً ودرجة ، وحسبي أن أقرر أيضاً ، أن اختياره لا يقل أهمية فى نظرى عن المضى فى الترجمة ؟

الدكتور عبد الحميد يونس

الفصل الأول

قال الرجل فى لهجة غاضبة : « يجب على الغلام أن يعمل ، فأى جدوى فى القراءة له أو فى قَصِّ القصص عليه ؟ إنه لا يفهم كلمة واحدة منها. أنك تضيعين وقتك معه عبثاً أيتها الأخت لاريسا » .

وهزت لاريسا رأسها متعبة ، كما لو كانت هذه الحركة اليسيرة مجهوداً يفوق ما تحتمله قواها . واستقرت نظرتها المحَدِّقة فى شغَفٍ لحظة على الغلام الصغير الذى جلس عند قدميها ، فوق أرض فِناء الدار المُترَبَةِ ، حيث راحت بعض الدجاجات العجفاء الهزيلة ، وحمامةٌ بيضاء عصبيةُ الحركات حمراء القَدَمين ، تتجول على غير هدى ، كما لو كانت فقدت الأمل فى العثور على أى شىء تأكله .

وأجابت المرأة فى حزم ، « نعم ، إنه يفهم ! »

وَانتقلت عيناها من الغلام إلى الرجل الذى وقف أمامها ، وقد بدت قدماه منتعلتين صندلاً ، وساقاه العاريتين ملتخطين بأوساخ الطريق ، وقد حمل على أحد كتفيه ، فى غير اكتراثٍ ، عباءَتَه التى اتخذها من جِلْدِ الخِرَاف .

وأضافت المرأةُ قائلة : « إنَّه يفهم فهماً تاماً » .

وهزّ الرجل كتفيه مستهزئاً فى قلق ونفاد صبر ، وَازداد تَجَهُّمُهُ وعبوسُه .

ثم اَستطرد فى اَنقباض شَرِسٍ ، يقول : « إنى واثق من عجزه عن الفهم . فالطفل معتوه ، وأنتِ تعلمين ذلك حق العلم ، كما كان دينيس فى حياته يدرك ذلك جيداً . ولكن مهلاً ! إنكنَّ تتشابَهْنَ جميعاً أيتها الأمهات ، ومع دلك ففى وسعك أن تدركى كيف ساءتْ حالةُ الطفل من كل ناحية . ولعله كان من الخير لو مات ساعة مولده . وما إضاعةُ الوقت فى محاولة تعليمه أى شىء إلاَّ محْضُ بلاهة . وهو غير صحيح الجسد والعقل ! وينبغى الإجهازُ عليه » .

ورفعت لاريسا يديها فى رعب وهلع .

واحتجت قائلة : « أَوَ تقول مثل هذا الكلام أَمامَ الطفل ؟ أفلا تخجل من نفسك ؟ سَتُعاقِبُك الآلهة يا ماردين ! إنَّ ما تقوله تجديفٌ سافِرٌ ! »

وضحك الرجل مستهزئاً ، وقال فى حمق موجهاً خطابه للغلام . « إنك لا تفهم شيئاً ، أيها الأبله المشوّه ! قل أَوَ تفهم ؟ » .

وما أن انتهى من عبارته حتى نخس الغلام القابع عند قدمى أمه. فانكفأ الغلام إلى الوراء مذعوراً، وقد رَفَعَ عينيه الرقيقتين شاخِصًا فى وجه أمه.

لقد كانت عيناه الشىء الوحيد الآدمى فيه. كانتا رماديتين، تتميزان بالصفاء والجمال، وكان فيهما ما يشبه الكَلْبَ المخلص، الذى يرقب فى لهفة نظرة استحسان أو عطف. ومع ذلك فقد كانت نظراتهما الحادة تنطوى على الذكاء. ولقد برزت هاتان العينان فى رأس، كاد يبدو لِعِظَمِ حَجْمِهِ مُشَوَّهاً ممسوخاً؛ ولقد تطور هذا الوهم واتخذ صورة مجسمة، بظهور طائفة متشابكة من كُتَلِ الشَّعْرِ السوداء، نامية على ارتفاع قليل فوق الجبهة، بل وكادت تنمو أسفل الحاجبين، اللذين ظهرا كَثِيفين متشابكين، حتى فى مطلع العمر، مثل حاجبى رجل كامل النمو.

ولقد بدا جسده مُغَضَّناً مشوّهاً تحت صِدَاره، الذى أعدته أمه على أنسب صورة محاولةً إخفاء تشوهه قدر طاقتها، ولو أنه كان من اليسير أن يرى أىُّ امرىءٍ أنه أحدب! ولدى إشارة ماردين ندَّت من الغلام صيحةٌ أكثر شَبَهاً بصيحة حَيوانٍ متوحش منها بصوت آدمى!

وقال ماردين فى لهجة الانتصار: «استمعى إليه، فهذا هو كل ما تستطيعين استخلاصه منه. إنه أخرس ...».

« إنه ليس أخرس » .

فقاطعته لاريسا مستهجنةً قوله : « إنه ليس أخرس » .

فأعاد ماردين ادّعاءه محتداً : « بل إنه أخرس . وإنّنى لأدعو الطفل أخرس إذا لم يستطع الكلام شأنُ غيره من الأطفال ، وإذا أحدث أصواتاً مخنوقة فى حَلْقِهِ شأنُ الحيوان المتوحش ، أصواتاً لا يستطيع أن يفهمها إنسان ! » .

ورفعت لاريسا وجهها ونظرت إلى أعلى مغضبةً وقالت : « فى وسعى أن أفهمه » .

فقال ماردين محتداً : « حسن . هذا فوق ما أستطيع . بل إنه فوق ما يستطيع سواى . ربما كان فى وسعه أن يثمر بعض الفائدة إذا استخدم فى الحقول كَفَزَّاعَةٍ تخيف الطير ، وتطردها عن المحاصيل ..! » ثم أضاف وهو مبهور الأنفاس قوله : « بل وَتُفْزِعُ البشر أنفسهم . »

وقالت لاريسا : « إنه ليس قوى البنيـة بحيث يستطيع العمل فى الحقول . فلتدعه وشأنه يا ماردين ، وَاذهب فى حال سبيلك إذا لم تستطع أن تجد شيئاً آخر تتحدث به ، أو إذا عجزت عن أن تكون أكثر عطفا وأشدّ حنوا . »

وأعاد ماردين عبارتها غاضبا : « أشـد عطفا ! أكثر حنوا ! تلك ألفاظ غريبة تصدر عنك يا أخت ! مَن ذا الذى يعمل على توفير أسباب

العيش لك ؟ ومن عساه يكون ذلك الذى يحضر لك المال لتوفير طعامك وطعامه ، ومن الذى يتصدى لعلاج مشاكلك منذ مات دينيس ؟ حدثينى ؟ حقا ، أكثر عطفا ! »

وبذلت لاريسا جهدها لكى تجلس . لقد كانت ساخطة . وأجابته وصوتها يرتعش غَضَباً : « ليس من حقك أن تقول هذا ! أنت تقيم أودى ، وتحضر لى المال لتوفير طعامى وتشرف على شئونى ! أنت ! ولكنه مالى ، ولكنها شئونى ، ولكن ذلك المال يأتى من ممتلكاتى . وأنت تحصل بملء حريتك على ما تُقَدِّرُه جزاءً لعملك . وإنَّك لَتنال جزاءك على نحوٍ أكثرَ مما كان ينبغى على أن أدفعه لسواك لو كلفته برعاية شئونى ، وأن الآلهة لتدرك ذلك حق الإدراك . وما كان يسعك أن تجرؤ على قول شىء كهذا عندما كان دينيس حيا ، بل وما كان يسعك أن تقول ذلك لو لم أكن امرأة مريضة ! »

وأَبْرَقَتْ عينا ماردين الماكرتان بضياءٍ غاضبٍ ، وظَلَّلَتْ ملامحه الغادرة الوضيعة تَقْطِيبَةٌ قبيحةٌ . ذلك أنه قد ذُكِّرَ على هذه الصورة بشقيقه الذى أضمر له فى سِرِّه الكراهية على الدوام ، فقد أغضبه أن أخاه استطاع أن يكتشف خفايا نفسه ويتلو السخائم السوداء فى قلبه !

وهَزَّ ماردين كتفيه ، وقد نفد صبره ، ثم قال :

« حسن ، مهما يكن من شيء ، وسواء حصلت على أجرى أم لم أحصل عليه ، فإنه لمن واجبي ، نعم إنه لمن واجبي أن أنهى إليك ما يدور بخلدى . أن الطفل عليل ، بل وأشد من ذلك سُوءاً . ويقيني أنه أحد تلك المخلوقات الرهيبة التى قيل إنّها تعيش فيما وراء نهر العالم السفلى الذى يطلق عليه اسم (ستيكس) ، وهذه المخلوقات نصفها بشر ونصفها من الجن ، فهو أحد هذه الكائنات الرهيبة التى تهوى على البشر فى نومهم فتمص دماء الحياة من عروقهم . وأنه لينبغى أن يُساق إلى رجال الدين لكى يَقْضُوا على حياته . نعم ، وقَسَماً بمعبد (ديانا) إنه لكذلك ، نِصْفُهُ جِنىٌّ . »

وامتلأت لاريسا رعباً ، ثم قالت مشمئزةً :

« لتعفو الآلهة عن نذالتك وتجديفك . أعطنى المال الذى أحضرته وأغرب عن وجهى يا ماردين يا أيها الرجل الشّرير . فأنك أنت الذى جعل الله نِصْفَهُ جِنِّيا . أعطنى نقودى ، أو بالأحرى ما تبقى لديك منها بعد الذى سرقتنا إيّاه ، ولتذهب فى حال سبيلك . »

وبدا الغضب واضحاً فى ملامح ماردين ، ثم قال محتـــدا : « هل سرقتك أنا ؟ »

ورفع هراوته كما لو كان يهم بضرب المرأة الضعيفة العزلاء وهى بين مضطجعة وجالسة على أريكتها فى الفناء .

ونهض الصبى ، فى خِفَّة كافية ، ووقف فيما بينهما ، وقد أتقدت عيناه شرراً وشدّد قبضته كما لو كان يريد أن يبدى قواه الناشئة ماثلة بين أمه وهـذا الرجل الذى هو عمه ! و بينما هو واقف هنالك بساقيه القصيرتين المعوجتين و بظهره المحدب ، بدا تَشَوُّهُه واضحاً فى أكمل صورة وظهرت أسنانُه فى وضع يصور التحدى والخوفَ معاً ، حتى لقد جعلَتْ لوجهه نظرةً متوحشةً غريبةً حملَتْ ماردين قَسْرَاً على التقهقر خطوةً إلى الخلف كما لو كان خائفاً . ولـكنه سرعان ما استرد جأشه ودفع الغلام بعنف إلى الوراء فسقط سقطة شديدة على الأرض ، ثم زجر قائلا :

« أو تتحدانى أيها القرد ؟ »

ولـكنه طامَنَ من صوته وكظم غيظه ولم يحاول أن يضرب المرأة . واستخرج فى غضَب حقيبة صغيرة من القماش وقذف بها فى امتهان على الأرض قريبا من المـكان الذى جلست فيه لاريسا . وأضاف فى لهجة المنتصر :

« هاك مالك ، فى وسعك بعـد الآن أن تستأجرى سواى لرعاية أملاكك مادام كل ما أظفر به منك على جهودى هو المتاعب والشتائم .

ولـكن هذا لن يستمر طويلا . فإنك امرأة فى طريقها إلى الموت ، وإنك لتعرفين ذلك جيـداً ، فإذا ما قَضَيْتِ نحبك فستصبح هذه الممتلـكات لى كما سأصبح ولياً لأمر هذا المخلوق المشوّه أفعل به ما أشاء . »

وفى ضحكة قاسية خرج يُفسحُ الخطى فى الطريق المترب . وتقـدّم الغلام إلى جانب أمه وأخـذ يحدّق فى وجهها فى حب وصرامة . وما رآه فيه أجرى دموعه من عينيه سائلةً على خدّيه . وضمّته لاريسا بشدّةٍ إليها برهةً طويلةً وخفّف كلٌّ منهما أشجان صاحبه . ولـكنهما أدركا معاً أن ماردين لم يقل إلا صدقا ، وأن أيام لاريسا أصبحت معدودات حقاً . وأن عمرها يسير إلى نهايته مسرعا .

وسرعان مانهضت لاريسا متعبةً ، ودخلت الدار لتعد عشاءهما . كان هناك بعض لبن الماعز وجُبنٌ ، وكَعكٌ وعَسَلٌ ، ولما كان المساء عذباً رقيق الهواء فقد وضعت هــذه الأشياء على منضدة حجرية فى وسط الفناء . وسرعان ما حمل الغلام آنية ليجلب فيها الماء من الجدول الذى يجرى عند سفح التل .

وبينما كان الغلام عائداً مرّ بشيخ ذى لحية بيضاء يستريح إلى جانب الطريق، وقد أوقفه شىءٌ ما وجعلهَ ينظرُ إلى وجه الشيخ فرأى فيه ماينبىء عن الارتباك المطلق ، الأمر الذى جعله يتوقف عن المسير ثم يتقدم نحو الشيخ

ماسًّا كَتِفَهُ بيده ، ففتح الشيخ عينيه دون أن يبصر شيئاً . ثم تمتم مُتْعَباً :

« حسن ، يابنى ماذا هناك ؟ .

فرفع الغلام آنية الماء إلى شفتىّ الشيخ فشرب منها بِشَغَفٍ . ورويداً بدا كأن عينيه قد زايلهما تحديقهما المحموم الباهت و بدا أنه مستطيعٌ أن يبصر بوضوحٍ وحدّقَ تحديقَ الخائفِ المفزوع .

ولاريب أن المنظر الذى بدا حِيالَه كان كافياً ليفزع أى مخلوق . ذلك أن أول نظرة يُلقْيها على الغلام شخص لم يألف منظره ، تكفى لملء أىّ إنسانٍ رعباً ودهشةً وخوفاً .

وتراجع الشيخ إلى الوراء بيد أن الغلام كان قد ألِفَ هذا الموقف من الأغراب ، ومن ثَمّ فقد أمسك دون ترددٍ بمعطف الشيخ الغريب وأشار إلى داره ، وأفهم الشيخ بإشاراته أنه ينبغى عليه أن يتبعه .

فهو مع هذا الغريب لا يحاول التفاهم بغير الإشارات .

وبدا على الغريب التردد ، ثم وقف . متوكِئاً بشِدّةٍ على عصاه وعلى كتف الغلام ثم سار سير المُتْعَبِ معه إلى الدار .

وأبصرت بهما لاريسا وهما يدخلان الفناء .

فقال لها الشيخ : « لقد كنت جالساً يا ابنتى متعباً على جانب الطريق عندما جاء هـذا ... ثم توقف عن الـكلام ونظر نظرة قلقة تنطوى على الشك إلى الغلام ، ثم استأنف حديثه قائلا : « عندما أقبل هـذا الغلام فأنعشنى بالماء فى آنيته فإذا وسعك أن تعطينى لقمة من الخبز أو ... »

فقالت لاريسا بلطف : هلم ادخل يا أبى ، تَفَضَّل . إنّ عندنا ما يكفى ثلاثة كما يكفى اثنين ، ومرحباً بك لتشاركنا مالدينا . اجلس على هـذه السجّادة فلسوف نُنعِشْك . »

وتداعى الشيخ جالساً على الأرض منهاراً متعباً . وسرعان ما أقبـل الغلام يفكُّ صندل الشيخ عن قدميه و يغسلهما بالماء يَصُبّه من الآنية . ثم تناول ثلاثتهم الطعام معاً على المائدة الصخرية فى الفناء .

وأنشأ الشيخ يقول :

« والآن فلتحلّ بركة الآلهة على هـذا المنزل ، وعليكما معاً ولتعيشا كلا كما حياة طويلة سعيدة . »

وابتسمت لاريسا ابتسامة حزينةً ، وغامت عينا الغلام بسحابة من الدموع . وقالت المرأة :

«وا أسفاه أيها الأب الطيب . إنى واثقة من أنك مُخْلِصٌ فى أمنيتك الـكريمة ، بيد أن ظلال الموت ترفرف بالفعل فوق !

« إنى أعرف ذلك يابنيتى ، ومع ذلك فلتعيشى ما كتب لك من الأيام سعيدة . فالموت ليس معناه الشقاء ، ولـكن الشقاء فى أن نعيش ونحزن ! والزمن فى حد ذاته لاشئ ، غير أن أفكارنا هى كل شئ ، وإنه لمن الأفضـل أن نموت مبتسمين على أن نعيش وقلوبنا مفعمة بالأفكار الشرِّيرة الـكابية ، أو نعيش ممتلئين حزناً وخوفاً من المستقبل .

وأومأت لاريسا موافقةً ، وانتشرت فى وجهها حمرةٌ باهتةٌ ، بينما حدّق الصبى بِشَغفٍ فى عَيْنىّ الشيخ .

وقال الشيخ : تقدم نحوى يا بُنىّ .

ووضع يديه على رأس الغلام المُغطَّى بشعره المجعّد وحدّق طويلا فى عينيه وواصل الشيخ حديثه قائلا :

« لعل ما تقولينه عن نفسك حقٌّ ، بيد أنىّ لا أرى ظلاّ للموت فوق هذا الغلام ! لم يَحنْ حينه بعدُ ، بل ولا يَحين حَينُهُ إلاّ بعد زمن طويل ، وإن كنا جميعاً مَوْتَى ، ويجب أن نعبر نهر الجحيم إنْ عاجلاً أو آجلا ؛ عند ما يقطع إله الموتى خيط حياتنا . »

ولما كنت عرّافاً ، فإننى فى رحلتى القادمة إلى إيفيسوس (١) سأرى

---

(١) كانت معبداً لديانا يعتبر إحدى عجائب العالم السبع .

مرة أخرى قبل موتى معبد أرتيمس[1] فلقد سافرت كثيراً وشاهدت كثيراً من الأشياء الغريبة والعجائب العظيمة . لقد شاهدت عجائب العالم الخمس . شاهدت معبد ديانا المقدس فى إيفيسوس واهرام خوفو فى مصر ، والحدائق المعلَّقة فى بابل على الفرات التى شيدتها الملكة سميراميس هناك ، وإنها لعجيبةٌ حقًّا . كذلك رأيت تمثال الإله زيوس المقدس ، وهو مَلِكُ آلهة الأولمب ، ويا لجماله ! لَيُخَيِّلُ للمرء أحد أمرين : إمّا أن زيوس نفسه قد هبط من الأولمب فرآه فدياس ، وإمّا — وهذا هو الأرجح — أن فدياس قد سُمِح له بأن يصعد الأولمب ليرى الإله رأى العين حتى تكون صياغة تمثاله جديرة به ! وكذلك رأيت تمثال أبوللو الهائل فى جزيرة رودس .

« وستضاف عجائب أخرى عظيمة إلى هذه العجائب حتى تصبح عجائب الدنيا سبعاً . ذلك أن ملكا لدولة هاليكارناس[2] لم يولد بعد سيدفن بعد موته فى مقبره رائعة الجمال ستصبح شهرة جمالها وروعتها حديث الناس عصراً إثْرَ عصرٍ . ومع ذلك فإن شهرة الملك نفسه ستتلاشى فى زاوية النسيان وسيصبح اسمه عَلَماً على المقبرة ولن يذكره أحد بوصفه عَلَماً على بَشَرٍ ! » .

---

(١) من الشخصيات المقدسة فى الميثولوجيا الاغريقية وهى تقابل ديانا عند الرومان .
(٢) هى الإسم القديم لآسيا الصغرى وولد بها المؤرخ هيرودوت .

وقالت لاريسا : « تلك حقاً عجيبة كبيرة » .

وكان الغلام قد تَخَلَّى عن حَيَائِه ، حتى لقد حاول أن ينطق ببعض الـكلمات سائلا الشيخ عن العجيبة السابعة .

واستأنف الشيخ حديثه قائلا : « وأمّا العجيبة السابعة فهى منارة من الضياء سَتُشَيَّدُ لإرشاد البحارة ليلاً عَبْرَ البحار . وستكون هـذه الأعجوبة أعظم من الأعاجيب الأخرى . فمنها ستنشأ منارات أخرى عبر العالم لإرشاد البحّارة وطمأنينتهم ، ولن تنطفىء أنوار هذه المنارات أبداً وإنما ستظل مشتعلةً متألقةً على الدوام . لقد رأيت كل هذه الأعاجيب وإنى أَعْلَمُ أنباءها ، كما أعلم أنباء أشياء أخرى كثيرة . ومن بين كل العجائب التى رأيتها وجدت قلب الإنسان أعجبها وأشدها غرابة ! » .

وواصلَ حديثه واضعاً يده النحيلة على رأس الطفل :

« وسيكون هذا الغلام عجيبة من تلك العجائب ، وستمتد شهرته عبر قرون لا تحصى ، وسيكون لاسمه على شفاه الناس معنًى خاصّ طالما جَرَتْ ألسنتهم بالـكلام . وسيصبح صديقاً ونديماً للملوك ، وسيكون موضع سِرِّهم وثقتهم ، وَسَيُرَدِّدُ الناسُ حِكَمَهَ حتى نهاية هذا العالم ! » .

وكانت عينا لاريسا تشرقان ومع ذلك فقد ندَّت من كَتِفَيْهَا حركة تنطوى على عدم التصديق ، كما تنطوىَ على الاستخفاف بما تسمع ، ثم شَرَعَتْ تتكلم قائلةً :

« ولكن المؤكد أيها الأب المقدس ... »

فابتسم الشيخ ثم قال :

« أو تحسبين أنه لكونه مَسْخاً مشوَّهاً ... »

فقاطعته لاريسا فى حدة ثم قالت فى بساطة كما لو كانت تحتج :

« إنّه ابنى » .

فهزّ الشيخ رأسه مؤمّناً ثم مضى فى حديثه مُلِحّاً وفى غير شفقةٍ يقول:
« أو تحسبين أنه لكونه مسْخاً مشوّهاً فإن الشهرة متعافه ولا تسعى إليه ! وَلكِنْ ما الجمال ؟ وما القبح ؟ لقد وصفت البومةُ للنسر صغارها فَنَعَتَتْهَا بالجمال ، حتى لا يقضى عليها ويفتك بها . بيد أن النسر لم يعترف بذلك الوصف ولم يَدَعْهَا حتى أَكَلَهَا ، ذلك أنه لم يكن فى وسعه أن يراها بِعَيْنَيّ أُمها ، وإنما رآها بعين الحقيقة . وهذا الغُلَامُ أَشْبَهُ بالبومة الصغيرة منه بِفَرْخِ النَّسْرِ ، وإن بدا لك جميلاً لأنه ولدك وأنت تُحِبِّينَه » .

وتوقف الشيخ عن الحديث هنيهةً ثم استأنفه قائلا :

« ولكن ، لِنَكُنْ قبل كل شىء صادقين ، ذلك أن الآلهة تحب الحَقّ والصِدْقَ » .

ثم اتجَهَ إلى الصبىّ وقال فى حَزْمٍ مُحدِّقاً فى عينيه :

« يا بُنَى إنك كريهُ الشَّكلِ مُشوَّهٌ ! » فَأمَّنَ الغلامُ على قوله بِهزَّةٍ من رأسه ؛ ذلك أنه لم يخامره شك فى أن ذلك هو الحق !

واستطرد الشيخ قائلا :

« نعم إنك قبيح الهيئة ، ممعن فى الدمامة . ولكنّ جمال الرجل ليس فى الوجه ولا فى القوامِ ، وإنّما فى القلب ! وأن الأفكار التى تجول فى رأسه والأعمال التى تأتيها يداه هى التى تُشرِّفهُ وتكرّمه أو تَشينهُ وتَعيبهُ ؛ وتجعله مقبولاً من الآلهة أو بغيضاً فى نظرهم . وأنت يا بنى ستأتى أعمالاً عظيمة ، وستصبح رجلاً مشهوراً ، وسيظل أسمك حيّا طالما كان للأسماء على شفاهِ الناس مَعْنىً ودلالة . إنى أعرف ذلك . ولا قِبَلَ لى بقول ما يُخالِفه . »

وأشرق وجه لاريسا غبطة وحُبُوراً ، ومع ذلك فقد بدا أن بعض الشكوك كانت لا تزال تساورها فقالت فى صرامة وجِدٍّ :

« عما قريبٍ سأموت يا أبى ، فإذا أنقضى عمرى فمن يرعاه ويتولى أمره ؟ فليس هناك من تبقى ليفهمه ويرعاه سواى . وأما عَمُّه ماردين ، شقيق زوجى ، فهو رجل شّريرٌ حقودٌ ممتلىء حسَداً وضغينة ، وهو يكرهه ويتمنى له الأذى ! »

وقال الشيخ دون اكتراث :

« ماذا يهم ، فلا ماردين هذا ولا أى شرير آخر سواه يستطيع أن يغيِّرَ مصيره . »

فقالت الأم : أفلا تبقى معنا يا أبتِ حتى يحين حَيْنِي فتأخذه معك إلى حيث تَـكْفُلُ له السلامة ؟ »

وفـكّر الشيخ هنيهة وهو صامت ثم هزّ رأسه فى بطء مستجيباً ، وقال :

« حسن يا أبنتى ، سأبقى حتى ولو عاقنى بقائى عن رؤية معبد ديانا المقدس مرّة أخرى ! ما اسم الغلام ؟ »

فقالت لاريسا : « أسمه إيسوپ . »

الفصل الثانى

وماتت لاريسا فى الليلة ذاتها .

ماتت فى سلام ، وعلى شفتيها ابتسامة سعيدة ، فقد أراحتها وأبهجتها كلمات العرّاف الشيخ ، ماتت فى وداعة وَرِقَّةٍ ، وبينما كان إيسوب يشخص إلى عينيها الجامدتين ووجهها النحيل الشاحب ، بدا وجهُهُ أكثر قبحاً وهو يعانى غصصَ حُزْنهِ .

وما كاد الفجر ينبلج ، حتى كان العرّاف يقف إلى جواره واضعاً يديه على كتفه وهو يقول فى عبارة موجزة :

« يجب علينا أن نرحل ، ذلك أن عمك ماردين سيأتى وشيكا ، وليس من الخير أن يجدك هنا ، فلتلق إذن نظرتك الأخيرة على وجه المرأة الوحيدة التى تحبك أو التى ترى أنك لَسْتَ قبيح الصورة . ثم لتصحبنى يا بنى . »

ثم ألقى إيسوب نظرة أخيرة على أمه الميتّة ، وفتح شفتيها الباردتين الشاحبتين ووضع تحت لسانها قطعة صغيرة من العُمْلةِ الذهبية كان قد اكتنزها بين متاعه منذ أمد طويل . ذلك أن كل ميت يجب أن يحمل

معه ما يدفع به أجر شارون النوتىّ الذى سينقل الموتى عبر نهر الموت ليلحقوا بأولئك الذين قضوا نحبهم من قبلُ ، وإلاّ فسينطلقون دون أمل على الشاطىء دون أن يستطيعوا عبور النهر !

وانطلق إيسوب مع الشيخ .

سارا طوال الصباح ، وكان إيسوب يَجِلُ قَدْرَ استطاعته ليلاحق الشيخ بساقيه المعوجتين القصيرتين ، حتى اشتدت حرارةُ الشمس فقصدا إلى حرش من الزيتون يفيئون إلى ظِلّه طلباً للراحة .

وتحدَّث الشيخ إلى إيسوب وأخبره بما شاهد من العجائب الكثيرة الغريبة ، وأحاطه علماً بكل ما يتصل بها ، وعلّمه كيف يُجِلُّها ويُقدِّرُها . وقال له فى ذلك :

« لا يهم ما نرى ، وإنما المُهِمُّ هو ما فى أنفسنا ، وكيف ننظر إلى الأشياء . ويحكى أنّ ملكاً عظيماً كان له بَغْلٌ يحمل على ظهره مَتَاعَهُ كلما قام برحلة فى أرجاء مملكته ، للنظر فى شئون رعيّته ؛ ومع ذلك فإنّ البغل لم يتعلم بعد هذه الرحلات شيئاً عن فنِّ الحكم أكثر مما كان يعرفه من قبل ، بيد أن الملك اصطحب ولده فى رحلاته تلك ، فأفاد منها كثيراً ، فلمّا مات والده ، استطاع أن يحكم حكماً رشيداً » .

ومضى الشيخ يقصُّ على إيسوب أموراً أخرى كثيرة ، كان منها قوله :

« ولتذكر مرة أخرى أن الشيء الذى له بدايةً لا بد وأن تكون له نهاية ، ولتذكر أكثر من ذلك ، أن الشيء الذى لا نرى منه سوى نهايته ، لا بد أن كانت له بداية أيضاً . ثم لتذكر فوق هذا وذاك ، أن هذا هو طريق الحق والفهم الصحيح ، وَلْتَثِقْ أنك بالِغٌ الحَقَّ إذا أنت فكرت فى البدايةِ وسعيت إليها راجعاً القهقرى ، فى الوقت الذى يعمد الأشرار إلى إخفاء الحق ، بإعلانهم النهايةَ وحدها » .

وأصغى إيسوب فى لهفةٍ واشتياق إلى الشيخ ، فقد كان واسع الحكمة « واستطرد العرّافُ الشيخ قائلا : » يا بنى إنك بَشِعُ الهيئة ، بَشِعٌ للغاية : وجهاً وجسداً . وإياك أن تتوهم غير ذلك ! ولتذكر حالتك هذه على الدوام ، حتى لا تمتلىء غروراً . وهذا هو سبيل الرفعة والشرفَ ، بينما ذلك هو طريق الحمق والهلاك . فإذا أنت ذكرت هذا دواماً ، فستهتدى إلى السلطان عن هذا السبيل ، نعم ، إذا أنت تذكرت قُبْحَكَ ودمامَتك ، جرّدت أعداءك وشانئيك من كل سلاحٍ يستطيعون شَهْرَه فى وجهك ، متى جَعَلْتَهم يضحكون ، ذلك أن الضحكَ خيرُ وسيلةٍ لتجريد عَدُوِّك من سِلاحه ، وأنت بالضحك — لا بالعبوس والتقطيب — قادِرٌ على فَتْحِ مغاليق القلوب وكَسْب الناس .

« ولتذكر كذلك أن الحرّية هى أعظم نِعْمَةٍ أسبغتها الآلهة علينا ، بعد نعمة الحياة ، ومع ذلك فإنّ الحياةَ نفسها تُصْبِح عديمة القيمة بدون الحرية . وليست الحرية أن يصنع المرء ما يشاء دون إكتراث بالآخرين ، أو أن يضطهد المرء سواه ، وإنما الحرية هى أن يخدم ، ويفعل الخير ويستمتع بالحياة » .

وهكذا واصلا رحلتهما عدَّة أيام ، يتوقفان أثناءها فى بعض الأماكن على جانب الطريق ، ويصيبان خلال ذلك حاجتهما من المأوى والطعام .

وكان إيسوب يصغى للشيخ ، وهو يتحدث عن أشياء كثيرة ، وَوَعَتْ ذاكِرَتُه كل ما رواه الشيخ . وفضلا عن ذلك ، فقد عرف — كما علمه العرّاف الشيخ — كيف يستنبط الحِكَمَ والعِظَاتِ من كل مايراه حوله ، بل ومن الطيور والحشرات ، وحتى من الأحجار التى تقوم عبر الطريق . ولقد رأى ، كما علَّمه الشيخ ، أن ليس هنا لك فارق كبير بين الطيور السابحات فى الهواء والوحوش الساعيات فى الأحراش ، ولا بين الرجال والنساء من أهل بلدته آمِوريوم من أعمال فريجيا(١) ، وبين سكان تلك البلاد العجيبة التى زارها الشيخ . وفى ذلك قال له الشيخ :

(١) فريجيا هو الإسم القديم لأواسط آسيا الصغرى .

« إنّ الناس جميعاً متشابهون فى شهواتهم وميولهم ومخاوفهم ، ولكن شهواتهم هى الأقوى ، وهى التى تسوقهم قُدُماً على الدوام » .

وكان إيسوب يصغى دون أن يتكلم، ذلك أنه لم يستطع سوى التمتمة بألفاظ غير واضحة ، والمخلوقة الوحيدة التى كانت تفهم عنه ألفاظه المتلعثمة دون سائر البشر ، قَضَتْ نحبها فى آمور يوم ، حيث غادرها ليتولى دفنها الأغراب !

ولكن حدث ذات يوم ، بعد استراحتهما ظهراً ، أن ظل الشيخ جالساً فترة أطول من الفترة المألوفة ، متكئاً بظهره إلى الشجرة التى كانا يحتميان فى ظلها من أشعة الشمس .

وكان وجه الشيخ شاحباً جداً .

وسرعان ما نظر نظرة المتعب المتهافت إلى إيسوب ، ثم قال :

« أى ولدى إيسوب ، عما قليل سأموت وتصبح وحيداً . ومن ثم فلتحمل متاعك ولتنصرف ، وعساك أن تذكرنى فى بعض الأحايين ، ولتتول الآلهة هدايتك » .

وهكذا حمل إيسوب متاعه وسار إلى أن هبط الليل .

ولم يلبث أن بلغ ، وهو مُتْعَبٌ وقد لوث الغبار ثيابه ، خيامَ بعض الرعاة الذين جلسوا يتناولون عشاءهم .

فلما أبصره الرعاة ، انفجر بعضهم ضاحكين، بينما تراجع البعض الآخر وجلين خائفين .

ومع ذلك فإنَّ الـكلاب التى كانت قد جَرَتْ تنبحه فى قسوةٍ وعُنفٍ لدى مقدمه ، توَقَّفَتْ عن نُباحها عندما وجدَتْ أن إيسوب لم يرهبها ، وإنما مدَّ إليها يده ، وَعَركَ آذانها بأصابعه ، فما كان منها إلاّ أن لَعَقَتْ يده وتبعته هادئة ساكنة !

وقال أحد الرعاة وكان قد ضحك من كل قلبه أكثر من سواه لأنه كان رجلا سميناً ضخماً مرحاً :

« حسن أيها الديك الصغير الظريف . من عساك تـكون ، وماذا تريد ؟ ومن أين أتيت ؟ »

ولقد تَغَلْغَلَتْ تحية هذا الرجل المرحة الشجاعة إلى قلب إيسوب ، فحاول أن يشرح له أنه هائم على وجهه وضلّ الطريق ، وأنه جائع متعب .

ولقد كانت تأتأته وفأفأته ، وتغيرات ملامحه العجيبة ، وهو يحاول الـكلام ، باعثةً على ضحكاتٍ أخرى جديدة .

بيد أن راعياً نحيلاً عابساً من بين الرعاة لم يلبث أن انبرى قائلاً :

« أطرده بعيداً يا بايدان . إنه مخلوق أثيم تقمصته روح شريرة ، حتى لقد سلبته الآلهة القدرة على الـكلام » .

وأدرك إيسوب أنه من المستحيل عليه أن يقول شيئاً آخر يواجه به هذه المعارضة ، ذلك أن قصته طويلة ومعقّدة ، بحيثُ لا يستطاع تفسيرها بمجرد الإشارات . ورأى أن تَصَرُّفاً ما من جانبه سيكون حتماً أكثر إقناعاً من أى كلام ، حتى لو كان فى ميسوره أن ينطق ذلك الكلام نطقاً فصيحاً . ومن ثم فقد ألقى متاعه وخطا إلى الأمام خطوات وملأ آنيةَ الماء النُّحَاسِيَّةَ الخالية من جرّة ماء أمام الراعى المرح السمين ، ثم توارى خَلْفَ ذلك الراعى الذى يدعى بايدان ، محاوِلاً أن يبدو فى صورة خادمٍ حَسَنِ التدريب ينتظر أوامر أخرى من مولاه .

ولقد انشرح الراعى المرح السمين واغتبط لهذا التصرف ، وأمسك إيسوب من صِدَاره ، وجرّه إلى الأرض بجانبه ، وأحاط كتفيه بذراعه حمايةً له .

وأقبل كلب بايدان وجلس إلى جانبه ملقياً رأسه فى حجر الغلام ، وقد كان أول كلب نبح إيسوب عند مقدمه . وقال بايدان فى عطف :

«والآن أيها المخلوق الصغير القبيح الصورة . مرحباً بك مهما كنت ، ومهما كانت الجهة التى جئت منها» .

وكسَرَ قطعة كبيرة من الخبز اقتطعها من رغيفٍ وأعطاها لإيسوب كما أعطاه قطعة من جبن الضأن . ثم قال له :

« تناول هذا وكلْ كذلك واشرب ! » .

وبحركةٍ سريعةٍ ألقى على الأرض فيما وراء كتفه الماء الذى كان إيسوب قد صَبَّه له فى آنية الشرب النحاسية وعاد فملأها لبناً .

وأضاف قوله ، شاخصاً ببصره نحو الراعى الشَرِس .

« هاك فلتتقدم لتأكل وتشرب أيها الديك الصغير . فإنى لم أعرف أن الطعام والشراب مما يمكن منعه فى وقت من أوقات النهار عن إنسان فى مثل سِنِّك أو لإنسان يبدو جائعاً ومتعباً كما تبدو ، وإنَّ كلبى لم يخطئ قَطُّ فى معرفة طِفْلٍ أو رجل على حقيقته .

وهكذا تناول إيسوب طعامه مع الرعاة وقدّم له بايدان فيما بعد قطعتين من الجِلْدِ جعلهما لنفسه فراشاً فى أحد الأركان ونام .

وفى الصباح التالى استيقظ إيسوب مُبَكِّراً قبل أن يتحرك أحد الرعاة وحاذَرَ أن يحدث صوتاً فيوقظهم ، ووضع حطباً على موقدِ النار ، وملأ الأوانى كلها ماءً عذباً من النبع .

فلما استيقظ الرعاة وَجَدُوا كلَّ هذا مُعَدًّا ، بينما وقف إيسوب يُراقب الراعى المرح الذى صادقه أملاً فى تقديم أيَّة خدمة يطلبها منه .

وقال بايدان : « قَسَماً بآلهة الأولمب قاطِبَةً إنّه لَغُلَامٌ مفيدٌ حقًّا ، ولعله ليس فى مثل وَسَامَةِ النَرْجِس ، ولكنه مفيدٌ وحقّ چو بيتر » .

وقال الراعى العبوس المتجهم الوجه : « ربما حَسبتَ نفسك الآن سيداً ، إذْ أصبح لك وصيفٌ يخدمك ، ومن ثم فأنت تتخيل أنك صرت شخصاً ذا بال » .

وهز بايدان كتفيه وأجابه هادئاً :

« الحق أن شيئاً من ذلك لم يجل بخاطرى . وإنى لأعرف أننى بايدان الراعى ، وفى هذا ما يكفينى ، ومهما يكن من شىء يا يوزات ، فَلِمَ تستدفئُ على النار التى أوقدها الغلام لنا جميعاً ، لا لى فحسب ، إذا كانت هذه هى آراؤك ؟ » .

وقد تمْتَمَ الرجالُ الآخرون مُصَادِقِين مُؤَمِّنين على هذا الكلام ، وأعطى كل منهم لإيسوب بعض الطعام .

غير أن يوزات غمغم ولم يمنحه سوى نظرةٍ ساخطةٍ بغيضةٍ ، من تلك النظرات التى يدَّخر منها الكثير فيما يلوح ، وأحسَّ إيسوب أنه خلَقَ لنفسه من ذلك الرجل عدواً دون ما ذنب اقترفه ، أو لعل ذلك الرجل كان له عدواً إطبيعياً ، وإنْ كان لم يقترف فى حقــه ما يدفعه لأن يكون كذلك .

ذلك أن هنالك من النفوس ما لا يستطاع كبحها عن التمتع برؤية

الأذى والإساءة الشخصية تلحق بكل جديد طارئ عليها ، وأن تلك الطبائع متأهبة دائماً لاقتناص الفرصة التى تتيح لها إلحاق الأذى .

وكان يوزات مفطوراً على مثل هذه الطبائع .

كان رجلاً مليئاً بالحقد والحَسَد ولم ينبض قلبه قط بما ينطوى على الخير والعطف .

وانطلق الرعاة بقطعانهم فى المرعى أثناء النهار ، تاركين إيسوب وراءهم فى الخيام ، وراح هو فى أثناء غيبتهم يعمل وينظِّف كل شئ وينسقه بالِغاً فى ذلك شأو أمه حينما كانت تُرَتِّبُ متاعه ، ولما دنت الشمس للغروب أعدّ وجبة العشاء للرجال كما كان يرى أمه لاريسا تعد العشاء فى دارهم بآموريوم .

فلما عاد الرعاة وقد أرخى الليل سدوله ، وجدوا كل شئ مُعدّاً لهم ، وابتهج بايدان الراعى الذى نَصّبَ نفسه حامياً لأيسوب .

وقال بايدان فى زهو مخاطباً الرجل الشرس :

« أفلم أقل لك ؟ أفلا يستحق الغلام مئونته ، إنَّهُ لمن دواعى السرور أن يجد الإنسان الدفء وأن يتناول طعامه لِتَوِّه دون ما حاجة إلى البحث عن شئ وحمله عندما يعود متعَباً بعد يومٍ شاقٍ مُضنٍ أنفقه فى مراقبة

قطيعه و رعايته ! إنه لأشبه بامرأةٍ صالحةٍ ، أجل ، بل هو أفضل ، ذلك أنه لن يُتعِبَ أحداً منا بحديثه التافه وشكاواه المستمرة المَمْجوجَةِ المنتَحبةِ . »

وصادفَ هذا الكلام من الرجال الآخرين ضَحِكاً يُنبئ عن موافقتهم ؛ بيد أن الراعي الشرس ، وهو من يدعى يوزات ، فقد ازداد وَحده تجهماً وعُبوساً .

وهكذا ظلّ إيسوب مع الرعاة أياماً كثيرة ، يأكل من طعامهم ، وينفعهم بقضاء الكثير من حاجاتهم . وسرعان ما بدأ هو وبايدان يفهم الواحد منهما صاحبه ، وكان إذا ما خلا ببايدان زايلته فأفأته المروّعة التى كادت تُشِلّهَ وتسلبه كلّ فصاحته وبيانه إذا ما التقى بأشخاص أجانب لأول مرة ، وصار فى وسعه أن يجعل كلامه مفهوماً كما كان ذلك شأنه أثناء حديثه مع أمهِّ فى تلك الأيام الخوالى التى بَدَت له اليوم سحيقةَ البُعد !

بيد أن يوزات لم يزدد إلاّ تجهماً وعبوساً ، وظلّ على حنقه بَقية المساء رافضاً أن يشترك مع سائر إخوانه فى الضحك من قصص بايدان الفذّة ، التى جعلت رفاقه ينتشون طَرَباً .

والحق أن بايدان كان مخلوقاً مرحاً ، وكانت لديه ذخيرة لاتنقطعُ من جياد القصص وكان إذا روى قصصه لا يقتصر فيها على سَرْدِ الأشياء التى

جالت فى خاطره ، و إنما كان يضمنها ما يجول برءوس غنمه وكلبه ، ويدير فيها محادثات وهمية بينها ، تتضمن إجاباتها على ما يعرض من أسئلة. وفضلاً عن ذلك فقد عرف الرعاة غنمهم وكلابهم معرفة جيدة ، كما عرفوا كثيراً من وحوش الغابات والجبال المحيطة بهم . أجل ، لقد عرفوا الذئاب والثعالب والنسور ، بل وعرفوا الأسود المختبئة فى أعماق الغابات . وأحسوا أن فى قصص بايدان المتخيلة ، جانباً كبيراً من الصدق. ذلك أنهم عرفوا ، عندما كان بايدان يخاطبهم ، أن هذه الوحوش ما كانت لتخوض فى غير هذه الأحاديث ، لو أن الآلهة وهبتها القدرة على الكلام!

وقد كانوا يدركون جميعاً أن هذه القصص كلها خرافية و إن ادعى بايدان أن الحيوانات إنما تتحدث بلغاتها الخاصة ، إلَّا أن تلك القصص كانت تُروَى عليهم فى روحٍ فَكِهَةٍ و بصيرةٍ نفَّاذة ، جعلتهم جميعاً يضحكون منها و يلتذون بسماعها .

وهكذا فقد ضحك الجميع مع بايدان اللهم إلاَّ يوزات الذى جلس منزوياً فى ركنه متجهماً .

وأرهف إيسوب أذنيه إلى تلك القصص وتشرَّبتها نفسه ، وأوحت إليه أفكاراً جديدة . وفضلاً عن ذلك ،أفلم يقل له العرَّاف الشيخ الحكيم أنه ليس هناك ثمة خلاف كبير بين الطيور والحشرات فى الهواء و بين الوحوش فى البرارى ، و بين الرجال والنساء فى كافة الأقطار ؟

ولا شك فى أن يوزات والعم ماردين يُذكّرانه بالذئاب . ففيهما حقارةُ الذئاب وقسوتها وجُبنها حتى لتقصر عدوانهـا على المخلوقات الضعيفةِ ، ولا تفعل ذلك إلا إذا كثر عَدَدُها ، أو إذا جعلت الخيانةَ وسيلتها إلى العدوان، وصعّدَ عينيه فبصر بعينى يوزات الشريرتين مركّزتين فيه . وكان بودِّه لو أثار الآخرين ضدهِ إذا استطاع إلى ذلك سبيلا أو إذا جرؤ على ذلك . ولـكنه ما كان مستطيعاً أبداً أن يهاجمه علانية حتى ولو فى حضرة بايدان الذى يحميه ويرعاه .

يا لبايدان الرائع ! ويالقوّته وشجاعته وانشراحه وسعادته ! وقارنه إيسوب — فيما بينه وبين نفسه — بالنسر ، الذى يحلق عالياً مرتفعاً فوق الخلافات التافهة للمخلوقات الصغرى . وياله من شخص حرٍّ كالهواء ! وفى هذا المساء تذكر إيسوب ما كان العرّاف الشيخ قد أخبره به من أن الحرية هى أعظم نِعَم الآلهة على البشر . وهذه الحرية ليست أن نفعل ما نرغب فيه دون احتفال بالآخرين ، أو أن الحرية فى أن نضطهد غيرنا شأن يوزات فى إساءة استخدام حريته لو جرؤ على ذلك ، وإنما الحرّية الحقّة هى أن نخدم وأن نفعل الخير وأن نستمتع بالحياة وبكل ما تشتمل عليه من منافع .

وبينما كان إيسوب يستريح داخل كوخه ذات يوم ، لائذاً بظله من

شمس الظهيرة ، إذا بهزّة شديدة توقظه فجأة . فلمّا فتح عينيه جلس على أريكته الجلدية ، ونظر حوله مُهْتَاجًا . لقد كان لا يزال متبقيًا على عودة الرجال عدّة ساعات ، ومع ذلك فقد كان يوزات حاضرًا ممسكًا بذراعه وهازًّا إياه فى عنفٍ ، وهو يقول له فى خشونة : « استيقظ أيها الكلب! »

ولكى يتأكد إيسوب من أنه هو المقصود بالخطاب وأنه هو المعنىُّ بذلك ، ضَرَبه على فَمه بظاهر يده ضربة متوحشة ثم استطرد قائلا :

« هلم استيقظ أيها الخامل المتسكع . »

ووقف إيسوب ثم لاحظ أن يوزات لم يكن وحده وإنما كان يصحبه رجل لم يره من قبل، كان يقف عند مدخل الباب محدّقا فيه بعينين قاسيتين باردتين .

ولما استيقظ تمامًا استطاع أن يصغى إلى همهمة أصوات كثيرة فى الخارج يصحبها صليل صوت غريب ، كما لو كان أحدهم يدقُّ قطعة من الحديد بأخرى ، أو كذلك الصوت الصادر من اهتزاز سرج جواد .

وتقدم الرجل ذو العينين القاسيتين ونظر إلى إيسوب متفحصًا . ثم استدار لمواجهة يوزات وهزّ رأسه ، ثم قال :

« إنَّه لا فائدة فيه لى ، ولست مُعْطِيًا دانقًا من أجله . حسبك أن تنظر إليه . قل لى بالله عليك أية فائدة لى أو لسواى منه ؟ » .

ودقّ يوزات قدمه قَلِقاً . وأجاب غاضباً :

« إنى لا أسألك أن تشتريه ، وإنما أنا واهبك إياه ! » . فضحك الرجل فى ازدراء ، وقال ساخراً :

« حقاً ياله من هدية ثمينة » .

فهز يوزات كتفيه وواصل حديثه قائلاً :

« مهما يكن من شىء فقد علمت أنك ستمرُّ من هنا اليوم ، وهذا ما دعانى إلى القدوم لأدبر وسيلة للخلاص منه . وستفعل ذلك من أجلى . اذهب به بعيداً ، فهذا كل ما أطلبه إليك » .

وصمت الرجل متأملاً يوزات ثم إيسوب ، وسأل فى حِدَّة :

« أَوَ هو مِلْكُكَ حتى يحقُّ لك اعطاؤه » .

ولم تندّ عن يوزات أيّة إشارة تنبىء عن قَلَقِه وإنما أجاب مُتَهَرِّباً :

« إنَّ لى فيه مثلما لأى إنسان آخر فيه . وهو لا يعرف من يكون سيِّدُه ، أَوَ تعرِفُ أنت أيّها الأبله ؟ » .

وكان إيسوب يود لو ضحّى بالدنيا كلها مقابل استطاعته تَبْيانَ أنه صديق بايدان الرائع ، وأنه لا صلة له البتَّة بيوزات .

بيد أن خوفه من سوء معاملة يوزات جَمَّدَ الكلمات فى شفتيه ، حتى أنه لم يحاول لموقفه شرحاً !

وظل الرجل فيما يبدو متشككا . ولكن يوزات قال فى نبرة تنطوى على التهديد :

« ولكنك ستأخذه وإلاَّ فسَأَشِى . . . » .

فهز الرجل كتفيه وأجاب مُتَعَجِّلاً :

« أوه ، لقد اتفقنا . تقدم أيها الغلام ، لنخرج معاً » .

ودفعه يوزات دفعة شديدة إلى الخارج فى ضياء الشمس الباهر ، فلما أَلِفَتْ عينا إيسوب ضياء الشمس الباهر الشديد بَصُرَ بصفٍّ طويل من الرجال وقد قُيِّدَتِ رقَابُهم بسلاسل حديدية متشابكة متصلة .

وسرعان ما فهم كل شىء !

لقد كانوا رقيقاً ، وكان الرجل القاسى النظراتِ تاجرَ رَقيقٍ !

وكان يوزات قد وهبه لذلك الرجل . فانكمش رعباً !

ولكن يوزات أمسك به فى غلظة من شعره الكثيف وساقه إلى السلاسل التى أحدثت صلصلة كتلك التى سمعها من قبل داخل الكوخ ، وأحكم إغلاق حَلْقَةٍ من حلقاتها حَوْلَ عنقه .

وقال موجِّهاً خطابَه للرجل فى نشوةٍ وانتصار :

« أنظر لقد أصبح الآن مِلْكَك . إرحل فى حال سبيلك وسأعود أنا إلى غَنَمِي . ولا تدعنى أراه مرة أخرى » .

و بإِشارة من تاجر الرقيق رفع العبيد أثقالهم الحديدية عن الأرض متعجلين — وكانوا قد انتهزوا فرصة توقفهم للتخفيف عن أنفسهم من عبئها و بدأوا سيرهم إلى الأمام عبر الطريق ، منطلقين بإيسوب معهم قُدُماً .

وافترق الرجلان بعد أن حيّا أحدهما صاحبه بِهَزَّةٍ من رأسه .

وهكذا أصبح إيسوب رقيقاً .

الفصل الثالث

وكان أول سيد استرق إيسوب رجلا يدعى أدالوس ، وهو مزارع ثرى يمتلك ضياعا على جانبي نهر ميندر . ولقد أرسله سيّده إلى الحقول لحرث الأرض ، ولعله فعل ذلك ، إمّا لِأنّه رآه أعجز من أن يصنع أى شيء أفضل ، و إمّا لأنه رغِبَ فى أن يُبْعِدَ عن ناظريه مثل ذلك المخلوق البغيض . والحقّ إن الصُّدْفَة كانت السبب فى أن يصبح أدالوس سيّد إيسوب .

ولقد وجّه أدالوس إلى ناظر زراعته السؤال التالى عندما وقع بصره على إيسوب لأول مرة : « ترى أى شيء أغراك يا زيناس بشراء هـذا المخلوق ؟ » .

ووقف زيناس ، ناظر الزراعة ، وَقْفَةً تنبيء عن الاحترام تِجاه سيِّده ، ثم ابتسم ابتسامة استحقار واستخفاف ، وقال :

لقد كان يا سيدى زهيد الثمن ، إذْ عرضه تاجر الرقيق علىّ مقابل خمسة دراهم ، وعندما ابتعت العبدين اللذين أمَرْتَنِي بشرائهما للاضطلاع بعبء العمل الجديد ، أعطانى التاجر إيسوب مقابل لا شيء .

ورفع أدالوس كتفيه مذهولاً ، ثم قال :

« ولكن ماذا عساك أن تصنع به يا زيناس ، يا أيها الرجل الطيب ؟ لقد قلت لك إنه أخرس ! »

فهزّ الناظر رأسه فى انكسار ، ثم قال محتجا :

« كلا يا سيدى إنه ليس أخرس ، وإن كان شديد الفأفأة ، ومهما يكن من شىء ، فلعله من الخير — كما سبق أن ذكرتم مراراً — أن يوجد فى الدار قليل من العبيد الخُرْس ، حتى لا يَصُمّ آذاننا رَغْيُهم ونِقاشُهم العنيف » .

ـ وابتسم أدالوس ابتسامةً بادر الناظر بالإجابة عليها ، وهو الحريص كل الحرص على مرضاة سيده ، الذى أجابه قائلا :

« نعم ، أحسب أنى قلت ذلك ، بيد أن هنا لك حدوداً ، والذى لاجدال فيه أن الخادم الذى يعمل داخل دار أحد النبلاء ، ينبغى أن يكون ذا مظهر مقبول . وهو على التحقيق ليس كذلك . أو عندك ريبٌ فى هذا ؟ » .

وضحك أدالوس كما ضَحِك الناظر .

وأجاب الناظر فى ذِلَّةٍ وخشوعٍ :

« لا شك أن مولاى يسرّه أن يكون مَرِحاً ، وهذا ما أستطيع تبينه وإدراكه ، غير أن هنا لك منافع أخرى يمكن أن يؤديها . ولقد قيل لى إنه راغب فى العمل ، وإنْ كان غَبِيّاً » .

فقال أدالوس : « فليرسل إذن للعمل فى الحقول » .

وهكذا تمّ الاتفاق على ذلك .

وأُرسل إيسوب إلى الحقول يحرث الأرض ، ويساعد فى جمع المحصول ، ويؤدى مائة وأكثر من المهَامِ الغريبة ، التى تقع على عاتق المستضعف الذى يصبح سُخْرَةً وسخريةً للجميع ! ذلك أنه كان بين العبيد أنفسهم رجال تقدَّمت بهم السنّ وقد مهَّد لهم طول عملهم السبيل ، ليس فقط لحمل مسئولياتٍ معينة ، وإنما جعل لهم كذلك فى أعينهم نوعاً من الأهمية والكرامة . وكان إيسوب ينظر لبعضهم بقدر من الاحترام كما ينظر ناظر الزراعة زيناس إلى سيده ومولاه أدالوس !

وكان إيسوب فى الدرك الأسفل من ذلك السُّلّم الاجتماعى ، ومن ثم كان خادِمَ الجميع ، وكان عُرْضَةً للسخرية والتهكم منهم كافة . وكان يحدث أن يصيح أحدهم قائلا : « حذارِ أن تقف أمام هذه الثيران ؛ إنّ وجهك خليق بإخافتِها ، ولن تصبح من بعدُ صالحةً لجرِّ المحراث أو دفع العربة ! » .

ويتبعه آخر صائحاً فى وجهه قائلاً :

« نعم وسيكون خوفها سبباً فى فساد طعم لحمها ، ومن ثم تصبح غير صالحة حتى للذبح ! »

ويتبعه ثالث قائلاً : « أَوَ كانت أمك قبيحة الشكل مثلك ؟ »

ولكن ما إنْ لفظ ذلك الشخص بهذه العبارة حتى اتقدت عينا الغلام شَرَراً وكانت النظرةُ الغريبةُ التى وجّهها إلى الرجل كفيلةً بمحو الابتسامة التى غطّت شفتيه ، فلم يستطع أن يضيف لفظاً واحداً !

ومهما يكن من شىءٍ ، فإن العبيد فى مجموعهم يعطفون عليه عطفاً ظاهراً ، وكانوا بصورة عامة مُتّحِدين ضدّ عدوّهم المشترك ، ضدّ سيّدهم ، ثم متحدين بعد ذلك ضد كل ذى سلطان عليهم من أتباعه على اختلافهم !

وكان إيسوب الصغير متأهباً على الدوام لأن يصنع شيئاً . وكان كل من يحتاج عَوْناً يجده على الدوام مُمثَّلاً فى شخص إيسوب . وقد حدث مرة عندما التوى كَعْبُ السقَّاء لارِكا ، أن أقبل عليه إيسوب يرعاه ، ويُمَرِّضُه ، فَيَلُفُّ ساقه بقماشٍ غُمِسَ فى الماء الساخن ، ويحمل عنه الماء من البئر فى قِرْبَتِهِ الثقيلة مما كان ينبغى على لاركا صنعه رغم عجزه ،

ذلك أن زيناس كان سيضطره إلى حمله اضطراراً ، دون أن يقبل منه معذرةً أو ادعاءً سخيفاً بأن كعبه قد التوى !

وحدث ذات يوم أن تغيب أدالوس فى رحلة إلى بيته الريفى ، وكان قد قرر زيارة مزارعه ليرى بنفسه كيف يسير العمل فيها .

ولم يكد يبدأ جولته حتى تقدم صوبه فلاَّح يدعى « ملاتيا » كان قد استأجر منه أرضاً ؛ وكان الفلاَّح يحمل سِلَّةً مُغَطَّاةً .

وانحنى انحناءة كبيرة أمام أدالوس ثم قال :

« مرحباً بك يا سيدى » .

ثم انكمش راكعًا على إحدى ركبتيه وتقدّم بِسِلَّته رافعًا عنها الغطاء ، مهديًا إياها إلى السيِّد الإقطاعىّ قائلاً :

« هذه يا سيدى بعض ثمار التين قَطَفْتُهَا لك من أفضل شجراتى . ولقد جمعتها بنفسى لك عندما علِمْتُ أنك عائدٌ اليوم » .

ونظر أدالوس فى السلة متفحصاً ثم قال :

« لا جدال فى أنه تينٌ جميل بل هو أجمل ما وقعت عليه عيناى ! »

وقال ملاتيا مفاخراً :

« أى نعم يا سيدى بل إنى لم أر ولم أذق قطُّ مثله . وإنه لك يا مولاى فأنت أجدر الناس بأكله ! » .

فقال أدالوس : « أشكرك » .

ونظر إلى حاشيته التى تحيط به وأشار إلى رئيس خدمه قائلاً :

« خذ هذا التين يا أجاثوبس ، وعُدْ إلى الدار ، وأعِدَّه هناك ، واعتن بوضعه جانبًا فى مكان رطب . فإذا ما انتهيت من جولتى التفتيشية ، وخَرَجْتُ من الحَمَّام ، فأحضره لى » .

وانحنى أجاثوبس رئيس الخدم انحناءة كبيرة ، وتناول السلَّة من يدىّ ملاتيا الفلاح وعاد بالتين إلى الدار .

وبينما هو داخلٌ إلى المنزل إذا به يلمح إيسوب خارجًا ، فسأله محتداً :

« ماذا تصنع هنا ؟ » .

فحاول إيسوب أن يشرح له ماذا كان يصنع ، مستعيناً تارة بالإشارات وأخرى بفأفأته وتأتأته ، محاولاً فى ذلك كُلِّه أن يُبَيِّنُ له أنه كان يجلبُ خَشَبًا مما يَحْتَاجُ إليه الطاهى لمواقده ، وأنه قد جلب بالفعل حِمْلَيْن ولا يزال عليه إحضار عدة أحمال أخرى .

وهز أجاثوبس رأسه مُؤَمِّنًا ، وانطلق إيسوب فى حال سبيله .

ولقد كان آجاثوبس الخادم رجلاً نَهِماً وشرهًا إلى أبعد حدٍّ .

فأخذ سِلَّة التين ورفع عنها القماش الذى كان يغطيها ، ونثر التين فوق المائدة . فبدا له باعِثًا على الإغراء الشديد . فأكل آجاثوبس واحدةً فإذا مذاقها ألَذ من مَرْآها ؛ فشفعها بأخرى . ثم قال يناقش نفسه ؛ إن سيِّده لم يَعُدَّ التين ، وإنَّه ليصعب عليه أن يعرف إذا كان التينُ قد نقص اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا . وسرعان ما لحق به الطاهى ، الذى هجر أفرانه ليلقى نظرةً فاحصةً على التين ، ثم تحسَّس ثمراتِه بيده فألفاها ناضجة فذاقها !

ولم يدركا فظاعة جَرِيرَتِهما ، إلاَّ حينما كانا قد أجهزا على آخر ثمرة من ثمار التين !

وكان الطاهى يمسح أصابعه فى مئزره .

وفجأةً تذكَّر آجاثوبس !

فقد أمره سيده أن يعدّ ثمراتِ التين ويحفظها له سالمةً ليقدمها إليه عندما يخرج من الحمَّام . وما كان سيدهما أدالوس بالرجل الذى ينسى ما يصدُر من أوامر أو ما يتغاضى عن أىِّ إهمال فى تطبيقها . وإنه لخليق بأن يغضب غضبًا شديداً إذا علم أن أجاثوبس والطاهى قد جرؤا على أكل التين الذى أُعِدَّ له .

وأخذ الطاهى يرتجف فرَقا عندما أَخبره آجاثو بس بالحقيقة ، وقال والدموع تكاد تملا عينيه :

« لقد أَعطيتنى ثمراتِ التين ، حقًّا لقد فعلتَ ! ولكنها غلطتك ! فلم أَعرف أَنها لمولانا » .

وهزَّ آجاثو بس كتفيْهِ فى غيرَ اكتراث . ثم أَجاب ضاحكاً : « ولكننا سنقول معَاً أن ذلك الغلام إيسوب هو الذى أكل التين ومن ثم ينزل به العقاب وننجو نحن ! وإنه لمن الغباء بحيث يعجز عن الإبانة والتفسير كما أن سيدنا لن يصبر على سماع دفاعه » .

ولقد استراح الطاهى لهذا المخرج وقال فى لهفة :

« أجل تلك فكرة طيبة . وهذا ما سنصنعه . سنقول إنه هو الذى أكل التين ، وهو من الغباء بحيث يعجز عن ردِّ التهمة » .

واستطرد أجاثو بس قائلا :

« وفضلاً عن ذلك فإن شهادتينا نحن الإثنين ستدمغانه بالجُرْمِ . ومهما يكن من أمر فلن تُتَاح له فرصة لتبرئة نفسه . فمتى عاد بالحمل التالى من أخشاب الوقود فأستبقه هنا فى المطبخ مُنْتَحِلاً بعض المعاذير حتى يعود سيدنا » .

وهكذا اتفقا !

وسرعان ما عاد أدالوس إلى البيت .

واستجم ، ثم أرسل فى طلب أجاثوبس وأمره بإحضار التين مع قنّينة من النبيذ .

فانحنى رئيس الخدم انحناءة كبيرة أمام مولاه ، ثم بدا وجهه صارماً وهو يتنهد تنهدةً عميقةً .

فأمره أدالوس فى حدّة قائلا :

« أحضر التين ! »

فهزّ أجاثوبس رأسه ، ثم أجاب بقوله :

« واأسفاه يا مولاى ليس للتين من أَثَرٍ » .

وكاد أدالوس أن يقفز من كرسيه وأعاد قوله :

« ليس للتين من أثر ! لا شك أن التين موجود . فماذا تعنى يا رجل؟ أحضر التين الذى أمرتك بحمله إلى المنزل وإعداده من أجلى . أحضره فوراً . ولا تَتَبالَهْ هكذا » .

بيد أن أجاثوبس استمر فى هزّ رأسه أسفاً . ثم قال :

« ولكن لم يبق هناك شىء من التين يا سيدى . لقد أُكِلَ عن آخره » .

فزأر أدالوس غاضباً : « أَكِلَ ! ولكنى أَمَرْتُك بأن تعنى بحفظه فى مكان أمين » .

فقال أجاثوبس : « وهذا ما صنعته يا مولاى . لقد حرصت على غسله بالماء الصافى البارد ووضعته على المائدة فوق أوراق التين التى كانت فى السلّة بعد أن غسلته بنفسى فى عناية كاملة ... »

فقال أدالوس وقد فقد صبره : « نعم ، نعم ، يا رجل ، وماذا بعد ؟ »

فهز أجاثوبس كتفيه فى يأس ثم قال يَشْرَحُ الموقف :

« لقد سطا عليه ذلك الغلام إيسوب وأكله كله عندما أدرت ظهرى » .

وظل أدالوس برهة عاجزاً عن الكلام لفرط غضبه ثم أمر خادمه فى حدّة قائلا :

« علىّ بزيناس فوراً . ثم ابحث عن ذلك المخلوق التعس ، وأحضره أمامى هنا » .

وانسحب أجاثوبس وسرعان ما أتى زيناس ناظر الزراعة ، وتقدم من سيده متسائلا :

« أَوَ طلبتنى يا سيدى ؟ »

فقال أدالوس غاضباً : « زيناس ، إن هذا الغلام ،هذا المخلوق ، هذا.. إيسوب هذا قد سرق تيني وأكله ! »

فنظر زيناس إلى سيده مندهشا ، ثم أعاد ما قاله مولاه لأنه كان يجهل كل ما يتصل بهذا الموضوع ، فقال مردداً :

« تينك يا مولاى ؟ »

وقال أدالوس وكأنه يختبره : « نعم تيني ! ولا تقف هكذا تردد كالمجنون عبارة تينك يا مولاى ! »

فقال زيناس : « ولكن أى تين ؟ »

فندَّت من أدالوس إشارة تنبىء عن قلقله وفقدان صبره ثم أخذ يشرح له الأمر قائلاً :

« لقد أعطانى ملاتيا الفلاح بعض ظهر اليوم شيئا من التين . فأمرت أجاثوبس أن يعود به ، على أن يقدمه لى إثر خروجى من الحمّام ؛ ولكنه ذكر لى الآن أن هذا المخلوق المخيف ، إيسوب هذا الذى أحضرته ، قد أكل التين كله عندما أدار له ظهره » .

فقال زيناس : « تلك مسألة خطيرة ... »

فقاطعه أدالوس منفعلاً مهتاجاً : « بالطبع إنها مسألة خطيرة أيها

الأبله الغبيّ . فإذا بدأ العبيد يسرقون فذلك أمر خطير يجب وقفه ! خصوصاً وأن ثمرات التين هذه كانت قد أُقتطفت من شجرة بعينها وكنت أتمنى تذوقها ... ها هو ذا ... ! »

وظهر أجاثوبس ممسكا إيسوب من ذراعه بين مرشدٍ له ودافع إيّاه وتبعهما الطاهى يمسح يده فى مئزره فى حركات عصبية . ووقف إثنان أو ثلاثة آخرون من الخدم وجلين مذعورين تجاه مدخل البيت ينتظرون فى لهفة ماذا عسى أن يحدث . ولقد أدركوا من صحيات سيّدهم الغاضب أن طائفاً من الهموم قد لاح فى الأفق .

وأصدر أدالوس أمره قائلا : « أحضروه هنا ! »

ودفع أجاثوبس إيسوب دفعة شديدة صوب سيده . ووقف إيسوب أمامه يرتجف فرَقاً .

وتقدم زيناس خطوة إلى الأمام ونظر إلى إيسوب فى حدّة ثم قال :

« ما هذا الذى أسمع ؟ أو سَرَقْتَ تين مولاك وأكلته ؟ »

فهزّ إيسوب رأسه ، وكان وجهه الممتقع بطبيعته يبدو أشد امتقاعاً نتيجة لخوفه .

وقال أدالوس : ياله من مخلوق يبعث على النفور . »

وأمسك زيناس إيسوب من كتفه، وهزّه هزّة شديدة وهو يسأله :

« أوَ أكلت تين مولاك ؟ »

وجاهد إيسوب محاولاً شرح موقفه . ولكنه كان شديد التأثر عظيم الخوف حتى لقد عجز عن الفأفأة والتأتأة . وكان كل ما وسعه هو أن يهز رأسه يائساً من ناحية إلى أخرى داحضاً التهمة .

وقال أجاثو بس وقد تقدم في جرأة إلى الأمام :

« نعم ، لقد أخذ التين . كنت قد غسلته ووضعته فوق المائدة ، ثم ذهبت لأحضر طبقا أضعه فيه ، فلما عدت وجدت إيسوب إلى جانب المائدة ولم أجد للتين أثراً . وكان يلوك شيئاً في فمه . »

ثم أضاف وهو ينظر إلى الطاهي قائلا :

« أوَ ليس هذا حقا ؟ »

فهزّ الطاهي رأسه بشدة مؤمّنا على قوله ثم قال وهو يطوى أطراف مئزره بعصبية ظاهرة وتكاد تتعثر الألفاظ في فمه لفرط اضطرابه :

« نعم ، نعم ، يا مولاى لقد رأيته أنا أيضا ، بل لقد رأيته في الواقع يضع آخر تينة في فمه ، وكانت لا تزال في يده واحدة أخرى . ولكنني ظننت أن هذا التين ربما كان قد أعطاه له أجاثو بس الخادم . ولم أكن أعرف أنه التين الخاص الذى قدّمه الفلاح ملاتيا إلى سيادتكم . أقسم أنني لم أكن أعرف » .

ورفع أدالوس كتفيه ثم قال يحسم الموقف :

« لقد أصبح الموقف الآن واضحاً . لقد سرق التين وهذه هى خلاصة الأمر . خذه إذن إلى الفِناء واَضرب به مائة جلدة » .

ولقد أفزع هذا الكلام زيناس نفسه فكرّر العبارة فى دهشة :

« مائة جلدة ؟ إنه ياسيدى صغير جداً وستقتله مائة جلدة » .

وقال أدالوس يحسم الأمر :

« لقد قلتُ مائة جلدة فإذا مات فسيكون عبرةً للآخرين » .

وسقط إيسوب عند قدمىّ مولاه وحاول أن يمسك بأطراف عباءته ، بيد أن زيناس ناظر الزراعة وأجاثوبس رئيس الخدم حالا بينه و بين ذلك ودفعاه إلى الوراء . ومع ذلك فقد استطاع إيسوب أن يلفظ جملة قالها مفأفئاً .

« أَوَلا يُسْمَحُ لى فقط بِخَمْسِ دقائق ؟ »

فتساءل أدالوس : « ماذا يقول ؟ »

فشرح زيناس ما قاله إيسوب ، وكان قد أَلِفَ همهماته الغريبة ، قال :

« إنه يَسْتَسْمِحُكَ يا مولاى فى خمس دقائق ! »

فأعاد أدالوس قوله : «خمس دقائق؟ لست أرى أن ذلك يفيده كثيراً ، ومع ذلك فلنمنحه خمس دقائق إذا رغب . »

وأطلق زيناس وأجاثوبس سراح إيسوب فوقف . وما كادَ يستعيد رباطة جأشه ويزايله الخوف ، ويتمكن من الوقوف فالمشى ، حتى أسرع متعجلا صوب المطبخ ، ثم سرعان ما عاد يحمل آنية كبيرة ممتلئة بالماء الدافئ .

ثم أخذ الآنية وهبط بها السلَّم إلى الفناء على مرأى من سيده ، وأشار إليه أن يراقب ماسوف يصنعه .

وراقبه أدالوس فى شئ من الدهشة .

ورفع إيسوب الآنية وأخذ يشرب من الماء الساخن ثم وضع الآنية فى حرص على الأرض ، ووقف على مرأى من الجميع ووضع أصابعه فى حَلقْه . ولقد تقايأ كثيراً كما كان منتظراً وكان ما تقايأه هو الماء الساخن الذى بدا شبيهاً بحالته عند ما شربه ، ذلك أنه لم يكن قد تناول فى يومه بعدُ شيئاً من الطعام . ولا شك أنه لم يكن فيما تقايأه شئ من التين ولو أنه فعل لكانت شهادة الشاهدين صادقة !

فقال أدالوس متعجباً : « لقد صدق الغلامُ وحق چوپترِ وهو لم يسرق تينى ! فمن عساه صنع ذلك ؟ » .

وندّت من إيسوب إشارات تدلّ على أنه أصبح مطلوباً من أجاثوبس ومن الطاهى أن يفعلا مثلما فعل .

فانطلق أجاثوبس : «وهل أكون أنا موضع تهمة ...؟ »

فقال أدالوس محتدّاً : وستشرب أنت من الماء الدافىء وسنرى فيما بعد إذا كنت موضع تهمة . »

ثم أضاف مشيراً إلى الطاهى : « وأنت أيضاً ، أنت الذى تتظاهر بأنك لم تعرف أن ملاتيا الفلاّح أعطانى شيئًا من التين . »

ودفع زيناس ناظر الزراعة هذين الرجلين إلى الفِناء ، وهمس أجاثوبس فى أذن الطاهى قائلا :

« لا تدخل أصابعك حتى حَلْقِك . وإنما تظاهر فقط بذلك ومن ثم فلن تتقايأ . »

ذلك شعوراً منه أنهما إذا بذلا جهداً فى هذا السبيل تجَنّبَا الفضيحة .

وصبّ زيناس لكل منهما قِسطاً كبيراً من الماء الدافىء كما أمره سيِّدُه ، واضطر الرجلان أن يشربا ما قدم لهما .

وتظاهر كل منهما بوضع أصابعه فى حلقه كما دبرّ أجاثوبس .

بيد أن إيسوب كان قد توقع من قبل ما سوف يُدَبِّران ومن ثم فقد

وضع فى الماء الدافىء حفنتين من الملح حتى يستحيل عليهما مقاومة القىء على أية حال نظراً لشدته . مفعول محلول الملح الساخن الذى يقلب معدة نعامة فى سهولة ويسر .

ومن ثم جاء الدليل الكامل على جريمتهما واضحاً جلياً على رءوس الإشهاد .

وبهذه الوسيلة برهن إيسوب على براءته وعلى جريرة المذنبين الحقيقيين اللذين عوقبا عقاباً مضاعفاً نتيجة لجشعهما ونهمهما ولنذالتهما وسوء خلقهما ، إذ حاولا أن يُلْقِيَا جريرتهما على رأس إيسوب .

وتوسل إيسوب إلى أدالوس أن يعفو عنهما .

ولكن أدالوس لم يتحرك وقال :

« لقد حسبا أن إيسوب لن يستطيع عن نفسه دفاعا ولقد تورطا باتهامه فى جريرة أخرى هى محاولة استغفالى وأنا رجل عادل . ومن ثم فسينزل بهما ثلاثة أمثال العقاب الأول . »

وهذا ما حدث لهما !

ودُهِشَ الجميعُ دهشةً بالغةً .وتعجبوا تعجباً عظيماً من إيسوب ، ذلك أنّ أحدا لم يكن يصدق أن مثل هذا المخلوق المشوه البادى الغباء يستطيع أن يستعين بمثل ذلك البرهان .

غير أن إيسوب كان منصرف الذهن إلى العرّاف الشيخ القديم الذى كان يقول له :

« فى وسعك أن تصل إلى الحقيقة إذاً فكرت فى البداية محاولاً العودة إليها فى حين أن الأشرار يحاولون إخفاء الحقيقة بإظهارهم الخاتمة وحدها !

* * *

الفصل الرابع

وفى ذات يوم توجه إيسوب إلى بقعة بعيدة غير مطروقة من مزارع أدالوس للعمل بها .

ولم يكن فى تلك البقعة أثر لمنزل أو حتى لكوخ من أكواخ العبيد ونظراً لبعد تلك البقعة عن المكان الذى اعتاد أن ينام و يطعم فيه ، حمل معه طعامه لوجبتى " غدائه وعشائه ، كما حمل آنية ممتلئة بالماء الصافى .

وعلّق معطفه والحقيبة التى تحوى طعامه إلى فرع شجرة ، كما علق آنية الماء لكى يُبرِّدها الهواء ، وأنطلق يعمل .

و بينما كان منهمكا فى عمله ، إذا به يرى رجلين كهلين ، قادمين صو به . فتوقف عن العمل وأخذ يراقبهما ، وراح يفكّر من عساهما يكونان ، ولم قدما فى هذا الطريق الموحش الذى لايؤدى إلى جهة معينة .

ولم يكونا من أهل الريف أو من العمال فقد كانت ملابسهما فاخرة ، وقد ذكّراه بصديقه العرّاف الشيخ ، وأن لم يكونا فى مثل سِنِّهِ ، وعلى الرغم من أن لحيتيهما لم تكونا فى مثل بياض لحيته أو فى مثل طولها .

وسار الرجلان مُتَمَهِّلَيْنِ كما لو كانا مُتْعَبَيْنِ أو يعانيان ألماً

فى أقدامهما ، وكان كل منهما يتوكأ على عصاه . وفجأة وقع بصرهما على إيسوب فتوجّها إليه ، وسعى إيسوب صوبهما يجرُّ قدميه .

فلما صار على مسافة تسمح بصوتهما أن يبلغ أُذُنَيْه ناداه أقرب الرجلين إليه قائلا ، فى صوت متعب :

« أين الطريق المؤدى إلى مدينة ميلاس ؟ »

وخطى إيسوب نحوهما وانحنى فى أدب .

ثم أخذ يشرح لهما قدر طاقته أنهما ضلاَّ الطريق إذا كانت بغيتهما حقًّا مدينة ميلاس . وبدا كأنّ الشيخين قد فهِمَا فأفأته وتعلثمه ، وإشاراتِه وحركاتِ ملامحه ، ولم يبدُ عليهما أنهما أضطربا لمرآه ، وإنما تحدثا إليه فى أدبٍ كما لو كان مثلهما ، قال أحدهما :

« أننا كاهنان بمعبد إفسوس من أرتيمس ، وقد ضللنا الطريق مساء أمس ، ونمنا متفيئين الأشجار فى هذا المكان الموحش ، ونحن نتوسل إليك باسم الإله جوبيتر الكريم المضياف أن ترشدنا إلى طريقنا الصحيح . »

وقد تأكد إيسوب الآن أن الرجلين العجوزين قد أُنْهِكَتْ قواهما بحيث لن يستطيعا متابعة رحلتهما فورا فسار بهما نحو الشجرة التى علّق

فوق أغصانها مِعطَفَه وحقيبته ، وطلب إليهما أن يجلسا فى ظلها ، و بادر فأخرج من الحقيبة الطعام الذى كان قد أحضره معه ، وقسّمه بين الشيخين وقدّم لهما ماءً بارداً من آنيته فأنعشهما .

فلما أستراحا وأستردا قواهما وأصبحا قادرين على متابعة رحلتهما ، سار معهما عبر الطريق الذى جاءا منه ، ومن هناك صحبهما عَبْرَ طُرُقٍ أخرى وممرّاتٍ لا شك أن الذى يجهلها يتيه فيها ، إلى أن بلغ بهما الطريق الذى يبغيان .

وهكذا ذهبا ، وما كان إيسوب ليدعهما حتى عند ذلك الموضع ، و إنما ظل ملازماً لهما إلى أن بلغا طريقا واسعاً ، أستطاعا من مرتفعه أن يَرَيا مدينة ميلاس فى الوادى أسفله ، وكانت دورها ومعابدها البيضاء تتألق فى أشعة الشمس الدافئة عصر ذلك اليوم .

وتأهب إيسوب لوداعهما وهو يشير نحو الطريق الذى أصبح أمامهما الآن واضحا .

وشكره الشيخان و باركاه ، ثم رفعا أيديهما إلى السماء متضرعين للآله چو پيتر أن يكافئه على ما قدّم لهما من عون كبير ، بل وعلى انقاذ حياتهما وعلى كرمه وطيبته . والحق أنه كان خليقا بأن تكلأه رعايةُ الإآله چوبيتر المضياف . وشكراه مرة أخرى ثم أستأنفا رحلتهما ، بينما عاد ايسوب من حيث أتى .

وما انْ تقدّم فى السير حتى بدأ يشعر بالتعب . فقد كان الحرّ شديدا عصر ذلك اليوم ، كما كان هو جائعاً ، لأنه لم يتناول شيئا من الطعام طيلة يومه، إذْ قدَّم كلما كان قد أدخّره من طعام لهذين الكاهنين العجوزين. ومن ثم فقد أضطجع ايسوب مستظلا بفىْءِ بعض الأشجار ولم يلبث أن نام ملء عينيه وشاهد فى منامه رؤيا وحلم بآلهة بالحظ ، تلك الآلهة المتقلبة التى لا تعرف حتى الى أين تتجه ، بل ولا تعرف اين توجد ، لأنَّ عَيْنَيْهَا مَعْصُوبَتَان ؛ فهى تتوقف اثناء تجوالها على عجلتها عند المكان الذى نام فيه ايسوب .

ومع ذلك وعلى الرغم من العصابة التى غطَّت بها عينيها ، فقد استطاعت أن تعرف مكانه . وانحنت فوقه و وضعت أصابعها فى فمه ، وحلَّت عقدة لسانه حتى يستطيع أن يتكلم مثل سائر الناس فى انطلاق ودون عائق وبهذه الوسيلة أهدته إلهةُ الحظ ذلك الفن الذى أصبح مُبدعَه وصار عَلماً عليه ، و إن كان لم يتحقق من ذلك إلاّ بعد حين .

ذلك أن إيسوب أصبح أباً وأستاذاً لرواة القَصَص .

ثم امتطت إلهةُ الحظ عَجلَتها وانطلقت مستأنفةً رحلاتها التى لا هدف لها .

واستيقظ إيسوب متلهفاً وهو يتوقع أن يرى إلهَةَ الحظ ، ولكنها كانت قد اختفت .

وأخذ يتساءل دون تفكير منه ، وفى صوت مرتفع : « أين ذهبت ؟ » . فاكتشف لدهشته وهو يفعل ذلك أنه استطاع الكلام .

فقال يخاطب نفسه بصوت مرتفع ، وهو عظيم الاندهاش : « ما هذا ؟ لقد أصبح لسانى طليقاً وصار صوتى حُرّاً ! إني أستطيع أن أنطق كلمة مِعْوَل ولفظة مِحْرَاث ، وغيرهما من الألفاظ التى أريد. إنى أتكلم ! إنى أستطيع الكلام . »

وانطلق يجرى طول طريق عودته مخاطباً نفسه بصوت عال دون انقطاع خشية أن ينسى صُنْعَ ذلك إذا لزم الصمت لحظة واحدة .

فلما عاد إلى البيت قال كل الرقيق، بل وقال زيناس نفسه عند ما انتهى إليه ذلك النبأ ، إن الذى حدث معجزة عظيمة حقاً .

وسهر إيسوب طول الليل دون نوم ، وظلّ يتكلّم دون انقطاع لمن قدموا يصغون إليه ، حتى إذا ما ملُّوا الاستماع لكلامه ، أو شعروا بوطأة التعب من عناء الأعمال التى قاموا بها فى يومهم فذهبوا يلتمسون شيئاً من

الراحة ، ظلّ هو جالساً وحده يتحدث دون انقطاع لنفسه إلى أن أشرق فجر اليوم الجديد وأخذ النوّام يستيقظون ؛ ذلك أنه لم يجرؤ أن يضطجع خشية أن ينسى كيف يتكلم ثانيةً إذا هو نام .

بيد أن شيئاً من ذلك لم يحدث واستطاع إيسوب أن يتكلم كغيره من الناس ، ولم تمض أيام قلائل حتى زايله الخوف من نسيان الكلام ، ووجد أنه يستطيع الكلام بمقدرةٍ وافتنانٍ ؛ بل لقد كان يتكلم خيراً من كثير من الناس ؛ ليس فقط بعبارته التي كان يسردها ؛ وإنما كذلك فى الطريقة التى كانوا يصغون إليه متلهفين ، وكانوا بإصغائهم إليه ينسون دمامَته ، ذلك أنهم كانوا ينجذبون إلى صوته وينظرون فقط إلى عينيه . وكما كان رفاقه يحتقرونه من قبل لقبحه وتشويهه ، فقد راحوا يطلبونه الآن لكى يُسرِّىَ عنهم بقصصه ويُعينهم بحكمته .

وكان ثمةَ عبد مهمته فى الدار العناية بالمصابيح وكنس غرف الدار وتزيينها . وحدث أن كان مزاج زيناس الناظر منحرفاً ذات يوم ، فادعى أن مصباحه لم ينظف كما ينبغى ، وطلب إلى ذلك العبد أن يكفّ عن تنظيف مصباحه ، قائلا إنه سيفعل ذلك بنفسه على الدوام . غير أن زيناس ما كان ليصغى إلى صوت العقل ، فأصدر أمره ، فى أثناء غيبة سيده أدالوس ، بضرب ذلك العبد ضرباً موجعاً حتى لقد كان مشرفاً على الموت

لو لم يعن به إيسوب ويرعه ، مضمداً قروحه وجالباً له طعامه وشرابه ،
الأمر الذى لم يجرؤ على القيام به احد الرقيق الآخرين .

وأنذر إيسوب زيناس بأنه سيفشى أمره لسيدهما لدى عودته ، وأنه سيحيطه خبراً بهذا الجرم وما ينطوى عليه من ظلم وحيف وقال :

« إنك قد كففته عن العناية بمصباحك كما يعنى بالمصابيح الأخرى ، ولو أنك لم تفعل حتى ذلك والتهب مصباحك نتيجة لخطأ اقترفه ، فليس من حقك أن تعاقبه بهذه الغلطة دون الرجوع إلى مولانا أدالوس . »

وداخل زيناس الخوف لأن أدالوس رجل عادل وإن كان قاسياً ؛ وسيغضب من زيناس لإساءته استخدام سلطته .

فلما حان موعد رجوع أدالوس ، انتظره زيناس لدى الباب ليكون أول متحدث إليه ، متقدماً فى ذلك إيسوب أو سواه . فلما وصل أدالوس أسرع زيناس لاستقباله والترحيب به ، واستطاع أن يمهد الطريق لمنع لقاء سيده بإيسوب حتى يضمن تأييده لما سوف يسمعه عنه فيما بعد . فادّعى زيناس أنه يرغب فى أن يعرض على مولاه تقريراً عن أعماله وانه يود أن يسرد عليه الأنباء . واستطرد زيناس قائلا :

« ولقد حدثت لإيسوب معجزةٌ عظيمةٌ يا سيدى » .

فهزّ أدالوس كتفيه استهانة . وأجاب بقوله :

« ذلك المخلوق الكريه ؛ ماذا فعل الآن ؟ » .

فأجاب زيناس : « ليس الأمر متعلقاً بما صنع يا مولاى ، ولكنه شىء حدث له . فقد استعاد قدرته على الكلام منذ الأسبوع الماضى ، وهو يستطيع الآن أن يتكلم كسائر الناس » .

ودهش أدالوس وقال غير مصدّقٍ :

« تقول أنه يتكلم كسائر الناس ؟ » .

فهزّ زيناس رأسه مؤمّناً ثم قال :

« نعم يا مولاى . بل وأشدّ طلاقةً من معظمهم . وهو يقول إن إلـهة الحظّ هى التى حلّت عقدة لسانه وردت عليه نعمة الكلام » .

فقال أدالوس : « ذلك ممكن ، لأن إلـهة الحظ عمياء ، كما نعرف جميعاً ، وهى تهب نِعَمَها خبط عشواء ، للأخيار والأشرار سواء » .

فهزّ زيناس رأسه فى صرامة . ثم قال :

« إذا كان ذلك صحيحاً فإنّ له طريقة غريبةً فى إظهار شُكرِه وامتنانه للآلهة ، إذْ يبدو أنه لا يستخدم قدرته المُسْتَرَدَّة على الكلام إلاّ فى التجديف على الآلهة وسبّ معابدهم » .

فقطّب أدالوس جبينه ثم قال محتداً :

« أَوَ تراه يُجَدِّفُ ؟ » .

فأمَّن زيناس بهزّة أسيفة من رأسه ثم قال :

« نعم يا مولاى . إنه يفعل ذلك بل و يفعل ما هو أسوأ منه . ولا أكاد أجرؤ أن أحيط سيادتكم خبراً بذلك » .

واستطرد أدالوس متسائلاً : « وماذا بعد ؟ » .

فأصلح زيناس حنجرته كما لو كان يبذل جهداً ليكون صريحاً للغاية مهما تكن النتيجة ؛ ثم قال :

والأدهى من ذلك يا مولاى أنه يطلق لسانه فى حق سيادتكم و يقول كلاماً فاحِشاً عنكم لغيره من العبيد . حتى لقد أصبحوا مشاكسين متبجحين » .

ولقد تأثر أدالوس تأثراً عظيما لذلك ، إذ كان شديد الصلفِ . فسأله فى غضبٍ .

« أَوَ يفعل هو ذلك ؟ » .

فقال زيناس : « نعم يا مولاى و باستمرارٍ » .

وتظاهر أدالوس بالتفكير ، ثم قال آخر الأمر :

« لقد أصبح يضايقنا إيسوب هذا » .

فقال زيناس : « الحق ما قال مولاى أنه أضحى عاملاً كبيراً للمضايقة . وليست هذه أول مرة يثير فيها المتاعب ! وربما ذكرتم سيادتكم حادث سرقة التين الذى كان متهماً فيه » .

ولكن أدالوس احتج قائلاً : « ولكنه برهن على براءته » .

فأشار زيناس إشارة استغفار ثم قال :

« نعم أحسب أنه فعل . ولكِنْ مهما يكن من أمر فقد كان متورطاً فى تلك المسألة ثم إنه كان فى الدار فى ذلك الوقت متحدّياً أوامركم » .

فقال أدالوس : « هذا حق » .

فاستطرد زيناس قائلاً : « أحسب أن سيادتكم تحسنون صنعاً إذا تخلصتم منه » .

فقلّب أدالوس الأمر فى ذهنه دقائق قليلة وهو صامت ثم أجاب :

« إنك مصيب يا زيناس . تَخَلّصْ منه . إنى معطيك إياه لتفعل به ما تشاء . إنه مِلْكُكَ . ولا تدعنى أراه أو حتى أسمعك تتكلم عنه » .

ولما توجّه زيناس إلى الحقول بعد قليل أقبل تاجرٌ كان يتجول فى تلك المنطقة وكان يعرف زيناس جيداً وسبق له التعامل مع الإقطاعى عن طريقه ، وحدث أن أقبل ذلك التاجر يرجوه — إذا استطاع —

أن يبيعه دابةً من دواب الحمل ، ولتكن حماراً أو بغلاً . فقد كان ذلك الرجل يحمل بضائعه متجولاً فى الإقليم متَّجراً فيها مع أهل تلك البلاد .

فهزّ زيناس رأسه أسفاً وأجابه قائلاً :

« هذا ما لا أستطيع صنعه . ذلك أننى لا أستطيع بيع الحيوانات قبل استشارة مولاى ، وهو يستريح بعد أن عاد لتوه من جولته . فليس لى أن أقلق راحته . ولكننى أستطيع إذا شئت أن أبيعك أحد العبيد » .

« فأمَّنَ التاجر على ما عُرِضَ عليه بهزّة من رأسه . ثم قال :

« هذا حسن جداً . فقد يناسبنى ذلك » .

« وهكذا استدعى زيناس أحد الرجال الذين كانوا يعملون على مقربة وطلب اليه أن يبحث عن إيسوب ويحضره اليه .

ولكن ما أن رأى التاجر إيسوب حتى نظر إلى زيناس وخاطبه غاضباً بقوله :

« أوَ تريد أن تسخر منى فتعرض علىَّ بيع مثل هذا المخلوق . أو تحسب أنى أجهل معنى هذه النكتة من نكاتك لأننى لا أنتسب لعُمَّال سيّدك ؟ »

وظهر على الرجل الامتعاض الشديد . ولكن زيناس هزّ رأسه واحتج بقوله :

« ليست هذه بسخرية . لقد طلبتَ منى حيواناً لحمل الأثقال ، وهذا ما لا أستطيع بيعه لك ؟ ولكننى أعرض عليك عبداً . وهذا العبدُ يُشبه الحيوان ، وفى وسعه أن يحمل الأثقال إذا كان هذا ما تقصده . ولو أننى عرضت عليك حماراً أو بغلاً ، أو كُنْتَ قبل شِرَائِه تتفحص وَجْهَهُ أو تَسْتَعْرِضَ سيقانه ؟ »

فأَمَّن التاجر على كلامه بهزّة قصيرةٍ من رأسه ثم أجاب :

« الحقُّ أن ساقيه هُمَا ما أنظر اليه . وهما ساقان شائهتان سواء أكانتا لِبَغْلٍ أَم لِبَشَرٍ . ولن آخذه مهما كان الثمن » .

وسار التاجر لحال سبيله وهو يتمتم ويضحك بين فترة وأخرى ، ذلك أنه لم يكن متأكداً إذا ما كان زيناس حاول بعَرْضِه هذا أن يسخر منه ، أو إذا كان حقاً جاداً فى بيع ذلك العبد أو بالأحرى فى أن يرجو بيعه ؛ ذلك أنه ليس فى وسع أحد أن يشك فى أنه يرغب رغبة شديدة فى التخلص منه .

ولكن إيسوب نادى التاجر وقال له :

« لا تخف أن تبتاعنى . بل تشجّع واشترينى . ولا تأسف من

أجل ذلك . فربما صرت عظيم الفائدة لك . وإذا كان فى دارك أطفال مشاكسون ، يصرخون ولا يطيعون ، فإنّ مجرد نظرهم إلىَّ سيعيد إليهم الهدوء . وفى وسعك أن تجعل منى وسيلة لإرهابهم كما يخيف أُنَاسٌ آخرون أطفالهم بِوَحْشٍ إذا كانوا غير مطيعين » .

فضحك التاجر ملء قلبه ثم سأله قائلاً :

« وماذا تستطيع أن تصنع ؟ »

فاجاب إيسوب : « أَستطيع أَن أَصنع ما يصل اليه جهدى » :

وسُرَّ التاجر بسماع هذه الإجابة ، ثم اتفق بعد قليل مع زيناس على شراء إيسوب بثلاثة دراهم . ثم اصطحبه وهو يضحك قائلاً :

« الحقُّ أَننى لم أَبتع شيئاً عظيم القيمة ، ولكننى لم أَدفع فى سبيله مبلغاً كبيراً » .

وهكذا ظهر أَن استرداد إيسوب لقدرته على الكلام ، كان سبباً فى استبداله لسادته وفى سفره وتجواله فى العالم » .

الفصل الخامس

وكان هذا التاجر الذى اشترى إيسوب يتجر فى العبيد فضلاً عن اتجاره فى البضائع على أختلاف أنواعها . فلما حان موسم البيع فى الربيع ، جمع التاجر كلّ عبيده ، وتوجه بهم إلى مدينة إفسوس لكى يعرضهم للبيع فى السوق الكبيرة بتلك المدينة .

واتخذت أهبة عظيمة خاصة بالرحلة نفسها ، بإعداد الرقيق ، كيما يظهروا فى أحسن صورة مستطاعة ، ويبدوا صحيحى الأبدان أقوياء ، فيدفع الناس فيهم أثماناً طيبة فى المزاد ، وبذلك يظفر التاجر بأكبر فائدة.

وكانت الرحلة تُقْطَعَ عادةً فى ثلاثة أو أربعة أيام ، وكان ينبغى أن تنجز على مراحل مريحة ، ثم تُزَاد مسافات كل مرحلة تدريجيا حتى يألف الرقيق السير ، ومن ثم يصلون إلى السوق فى حالة صحية طيبة . ولما حان آخر المطاف الموعد المحدّد للرحلة ، جُمع العبيد فى الفِناء كما جمعت كل الأشياء والأدوات الخاصة بالرحلة نفسها ، كى يتولى العبيد حملها ، كل منهم حسب مقدرته الجسمانية .

وقال إيسوب :

« أرجو أن ينظر إلىّ بعين العطف عندما توزع الأثقال . فما أنا

إلاّ رجل ضئيل الجسم . وقد وصلتُ إلى هنا أخيرا . »

وندّت من وجهه حركة مضحكة بمجرد تفكيره فى رَفْعِهِ حِملاً يتجاوز قواه الجسمانية ، حتى لقد انطلق سائر العبيد ضحكين .

وقال العبيد الآخرون وقد خَلُصَت نواياهم : « إنْ شئتَ سِرتَ دون أن تحمل شيئا على الإطلاق . ومهما يكن من أمر فإنّ الحمل التافه الذى يستطيع نصف رجل ضئيل مثلك أن يحمله ، لن يحدث فارقا كبيرا إذا وزع علينا جميعا ! فى وسعك أن تحمل نفسك وحدها فحسب . »

فهزّ إيسوب رأسه ، ثم أجاب قائلا : « إيّاكم أن تقولوا اننى أنا ايسوب لم أقم بنصيبى الحق من العمل أو أننى كنت عبئا ، ولو يسيرا ، على رفاقى . »

فقال عَبْدٌ آخر : « حسن جدا فلك أن تختار إذا شئت حملك . »

ومن ثم اختار ايسوب أن يحمل سلة الخبز ، الذى أعد لطعامهم أثناء الرحلة . وضحك سائر العبيد فقد كان ذلك أثقل الأحمال طُرّا ؛ وحسبوا جميعاً أنه اختار ذلك الحمل عن جهالة وغباء .

ولكن أصبحت السلّة التى يحملها إيسوب أخفّ بعد استراحة الظهيرة نظراً لكمية الخبز التى وُزِّعَت مع الغداء . ثم صارت فى اليوم التالى أكثر خِفةً . وهكذا دواليك ، فلما زاد تاجر الرقيق المسافات التى

تقطع كل يوم مشياً ازداد حمل إيسوب خِفَّةً ، فلما كان اليوم الأخير ، وهو اليوم الذى كان ينبغى عليهم فيه قطع أطول مسافة فى الرحلة بطولها ، كانت سلّة إيسوب قد أصبحت خاوية ، فى حين أن الأشياء التى كان يحملها العبيدُ الآخرون ، ظلّت كما هى ، بل بَدَتْ كما لو ازدادت ثقلا بمضى الرحلة . ومن ثم أُعْجَب العبيد الآخرون إعجابا عظيماً بحكمة ايسوب وبحسن تبصره ، ليس فقط فى هذه المسألة وانما فى مسائل أخرى كثيرة .

أما فيما يتصل بالتاجر فقد باع كل عبيده فى ايفيسوس ، باعهم جميعا ، فيما خلا عبد فاقهٍ فى النَّحْو ومُغَنٍّ ، ثم ايسوب بطبيعة الحال .

ولما كان ايسوب دمياً ضئيل الحجم ، فإن أحدا لم ينظر اليه نظرة اعتبار جادّة .

وبينما كان التاجر يحاول تدبر ما عساه أن يفعل بهؤلاء العبيد الثلاثة الذين تبقّوا لديه ، اذا بصديق له يعمل رئيساً للبخارة يعرض عليه أن تُبْحِرَ به هو وعبيده الثلاثة الى مدينة ساموس القائمة بالجزيرة التى تَحْمِلُ اسمها ، وهى على بعد لا يتجاوز الثلاث ساعات عبر البحر إذا كانت الريح مسعفة

وكانت هذه أول مرة يرى فيها ايسوب البحر وقد أبدى عجبه الشديد من ذلك . وعلى الرغم من أن أمه لاريسا كانت قد قرأت له عن البحر ، إلاّ أنه لم يستطع أن يتخيله على الصورة التى رآه عليه فى تلك الرحلة ،

فما كان يعرف امتداده الى أن يجاوز مدى البصر ، او يدرك الوانه المتغيرة واضطرابه وصَخَبَه على الدوام . ولقد سأل احد البحارة ، وهو يرقب الأمواج تتكسر على صخور الشاطىء مرسلةً زَبَداً ابيض يلمع فى ضياء الشمس ، :

« أو يبدو البحر على الدوام مضطربا هكذا ؟ »

فَبَصَقَ البحّار الى جانبه باحتقار . وكرّر عبارته وهو اشد ما يكون طربا : « شديد الاضطراب ! ماذا تقول ، انّ البحر هادىءٌ جدا على هذه الصورة ، ولا تكاد الريح تكفى لملأ شراعنا . قد يحدث فى بعض الأوقات ان يصير البحر هائجاً ، فترتطم مثل هذه الأمواج بالسفن فتحطمها إرباً بقوة الماء وحدها ، حتى ولو وثقنا نحن البحارة جوانب السفن بالحبال تدعيماً لها وتعزيزاً . »

واخذ البحار يروى لإيسوب كثيراً من الأمور العجيبة عن البحر ، حكى له عن الدرافيل التى تتبع السفن والتى تنقذ البحّارة المشرفين على الغرق ، وتعيدهم الى الشاطىء سالمين . وروى له كيف ان الإله بوسيدون هو الذى يثير الأمواج ، اذْ يتنفس فى قاع البحر ويُحرِّكُ افراس البحر البيضاء التى يحتفظ بها هناك فى الأعماق ثم يبعث بها من وقت لآخر لتجُرَّ عَرَبَتَه فوق الأديم اللجىّ مما يستطاع مشاهدته فى بعض الأحايين من مسافة بعيدة عندما يُسَبِّبُ عَدْوها السريع ثورة الأمواج والعواصف الهائلة

وروى له فوق ذلك كثيراً من الأمور الأخرى التي بدا بعضها عجيبا ومثيراً في نظر إيسوب .

فلما أنتهوا إلى ساموس ، حاضرة جزر أيونيان ، قاد التاجر عبيده الثلاثة إلى ساحة السوق يعرضهم للبيع . وقد ألبَسَ النحويّ والمُغَنّي أفخر ثيابهما وأنظفها حتى يبدوان في أحسن حال ، ومن ثم يجذبان عدداً أكبر من المشترين ، فيحصل على قسط أوفر من المال ، وكان ما فعله جرياً على مألوف عادةِ كل تجار الدنيا في أن يظهروا ما لديهم من الرقيق في أحسن حالة وأفخر زينة . وأما فيما يتصل بإيسوب الذي لا يستطيع أيّ قَدْرٍ من الثياب أن يُجَمِّلَ مظهره ، فقد أحضر التاجر « زكيبةً » ، وقطع فَتْحَةً من أسفلها وأثنتين من جانبيها ، ووضعها فوق رأس إيسوب كَسُتْرةٍ تسمح بذراعيه أن يظهرا من فتحتيّ الجانبين . وَرَبَطَ قطعةً من الحبل حول وسطه حزاماً ، حتى يجعل فتحة « الزكيبة » تحوط ساقيه كما لو كانت أطراف الصِدَارِ .

وبدا إيسوب في ذلك الزى مضحك المنظر باعثاً على النفور ، وجعله التاجر يقف بين الإثنين الآخرين لعلهما يبدوان بالمقارنة أغلى قيمة .

بيد أن إيسوب استرعى اهتماما أعظم وأثار ضحكات كثيرة بين حشد المشاهدين المتسكعين ، وكان الكثيرون يأتون للتفرج عليه كما لو كان وحشا

أو شيئا غريبا ، ومع ذلك فإن أحدا لم يتقدم لشرائه .

ثم أتى إلى ساحة السوق أحد فلاسفة ساموس واسمه اكسانثوس الذى اعتزم شراء عبد . وكان يرتدى ملابس فاخرة ويتبعه كوكبة من تلاميذه ، ذلك أنه كان غنياً كما كان واسع النفوذ فى المدينة .

وتقدم من المكان الذى كان العبيد معروضين فيه للبيع ، وراح يسألهم عما يتقنون ويختبر مقدرتهم .

وراح يسأل النحوىّ والمغنىّ :

« ماذا تستطيعان صنعه ؟ »

فأجابا : « كل شىء ! »

ذلك أن التاجر قد لقّنهما أن يجيبا بما فيه خيرهما إذا ما سألهما أحد الطامحين فى الشراء .

وأنفجر إيسوب ضاحكا لدى سماعه هذه الإجابة ، وكانت قسمات وجهه الرهيبة تتحرك على نحو جعل الناس يزدادون منه دهشة وتعجباً ، ولقد تخوّف بعضهم فانسحبوا منزعجين ؛ وتدافعَ الآخرون إلى الأمام مندهشين ، وهم لا يكادون يصدقون أن ما رأوه عن بعد يمكن أن يكون حقا إذا شاهدوه عن قرب .

وتقدّم تاجر الرقيق فى خفَّة ووجّه الخطاب إلى اكسانثوس قائلا :

« إن هذا العبد يا مولاى هو أفضل واحد من نوعه ، عثرت عليه طوال اشتغالى بهذه التجارة .

إنّه نَحْوِىٌّ . وهو يستطيع أن يتكلم خمس لغات كما يقرؤها و يكتبها جميعا . وهو ينظم الشعر و يكتب القطع الأدبية وسيعنى بكل مراسلاتك ، وسيصوغ كل ما تبعث به من رسائل إلى أصدقائك فى لُغَتِه الجميلة حتى أنهم سيعجبون بعلمك الغزيز . »

وهنا ضحك أحد التلاميذ ثم قال فى تشامُخٍ وافتخار : « أو تعرف أيها الرجل أنك تخاطب إكسانثوس الفيلسوف العظيم الذى لا يحتاج إلى عون كهذا ؟ »

وسأل إكسانثوس : وكم تطلب ثمناً له ؟ »

قال التاجر : « ثلاثة آلاف درهم . »

فكرر أكسانثوس عبارته غير مُصَدِّقٍ : « ثلاثة آلاف درهم ! لعلك تمزح ! »

فهز التاجر رأسه ثم أجاب قائلا : « كلا يا مولاى . لقد قلت ثلاثة آلاف درهم ، وهو ثمن بخس . وأين يسعك أن تجد نحوياً بسعر أقل ؟

إذا استطعت أن أرْحَلَ به إلى أثينا ، إذن لأمكننى أن أبيعه بخمسة آلاف أو حتى بأكثر . »

فقال أكسانثوس : « إذن أرحل به إلى أثينا . »

فاستطرد التاجر قائلا : سأقول لك ماذا أنا فاعله إذا أنت اشتريته أو اشتريت زميله فسأعطيك عبداً آخر صغيراً دون مقابل فوق ما تشترى .

وهكذا يبدو أن مصير إيسوب التعس هو أن يمنح على الدوام على سبيل الهدية أو يعطى جائزة دون ثمن . وسأل إكسانثوس :

« وماذا عن الآخر ؟ »

فأجاب التاجر : « إنه مُغَنٍ يا مولاى . »

فاستفسر الفيلسوف : وما ثمنه ؟ . »

فأجاب التاجر سريعاً : ألفا درهم . »

فضحك أكسانثوس ثم قال :

يبدو لى أيها التاجر أنك تبيع سلعاً غالية الثمن . ربما استطعت أن أعطيك ألفى درهم ثمناً لهما معاً ولكنى لا أدفع درهماً آخر . »

فرفع التاجر يديه صوب السماء محتجاً ثم قال :

« سيدى يمزح . لا أقبل درهماً أقل مما قلت ثمناً لهذين العبدين . وإلاّ كنتُ الخاسر . »

فضحك إكسانثوس وأجاب بقوله :

« نعم أعرف ذلك ، إنكم يا تجار الرقيق مشفقون بالبشر حقاً ، وتجوبون هذه الدنيا لفعل الخير ، بل وتدسّون المال فى جيوب زبائنكم . هيه ، أو هذه كلمتك الأخيرة ؟ .

فهزّ التاجرُ رأسه مؤمِّناً .

فقال الفيلسوف فى هدوء : « حسن إذن أيها التاجر فلن تكون هناك تجارة اليوم . »

ومهما يكن من أمر فقد شعر الفيلسوف أنه غير راغب فى العودة إلى داره دون أن يشترى عبداً ، وكان قد قدم إلى السوق من أجل هذه المهمة.

وألحّ عليه تلاميذه أن يبتاع هذا القزم الصغير المضحك الذى ضحك ملءْ قلبه عند ما قال زميله أنهما يحسنان كل شىء . وكان إيسوب فى مظهره المضحك وهو مربوط داخل زكيبته جديراً حقاً بأن يشترى !

وإنه لمن المستطاع استخدامه فزّاعاً للطيور إذا لزم الأمر ، أو على أقل تقدير ربما ساعده مظهره اللافت للأنظار أن يكون مهرجاً أو مضحكا يبعث على البهجة والسرور .

وسأل إكثانثوس : ومن يكون هو ؟ »

ولم يكن التاجر متأكداً تماماً من عساه يكون ، فشرع يقول :

« إنه عبد فريچى يا مولاى ... »

ثم سأل أكسانثوس وهو ينظر إلى إيسوب :

« أوكلهم مثلك فى فريچيا ؟ »

فهز إيسوب رأسه ثم أجاب فى رزانة :

« كلا فإن بعضهم أفضل منى . »

فندّت من الجمع المحتشد حول المكان موجة عظيمة من الضحك ، فى الوقت الذى كان إكسانثوس يساوم فيه التاجرَ .

وقال الفيلسوف : « وماذا تستطيع صنعه ؟ »

فرفع إيسوب كتفيه ، ثم قال :

«مادام رفيقاى يستطيعان صنع كل شئ فهما لايدعان لى كثيراً أستطيع صنعه ، أو ليس الأمر هكذا ؟ ومن ثم أرى من الأفضل أن اعترف فوراً بأنى عديم الفائدة إطلاقاً ، وأنى لا أستطيع أن أصنع شيئا البتة ؛ ومن ثم فلن تنتظر منى كثيراً ولن يخيب رجاؤك فىّ . بل لعلك قد تعجب وترضى إذا وجدت يوما أنى أستطيع صنع شىء ما .

وندّت من حشد المتسكعين صيحةٌ أخرى من الضحك وكانوا أشد تحفزاً وسروراً بمرأى هذا العرض المجانىّ .

وعاد الفيلسوف يسأل : « وهل تريد أن تتخذنى لك سيداً ؟ »

فتأمل إيسوب الفيلسوف صامتاً مدى دقيقة ، ناظراً إليه من رأسه حتى إخمص قدمه مقلداً الفيلسوف أثناء فحصه العبيد .

ثم تكلم آخر الأمر وأجابَهُ إجابة مُسْهَبَةً ، قال :

« الحق أننى لا أعرف . ولكن إذا كان الحُكْمُ وِفْقاً للمظاهر ، فإنى أستطيع القول ، استناداً إلى صورتك وإلى ملابسك ، أننى جدير بأن أقول ، إنَّ ارتياحى إليك سيكون أكثر من ارتياحك إلىّ » .

وهنا كان صياح الضحك قد بلغ أشدّه بحيث أصبح لا يقاوَم . بل إنّ إكسانثوس وتلاميذه قد شاركوا فيه أنفسهم .

وقال أحد التلاميذ : « يجب أن تبتاعه أيها الأستاذ . فهو من أَجْلِ هذا وحده جدير بأن يقتنى » .

فقال إكسانثوس : « أرانى مُوَافِقٌ » .

ثم نظر إلى تاجر الرقيق وسأله كم يطلب من المال ثمناً لايسوب

ولم يكن التاجر قد فكر حقاً فى إمكان احتياج أى إنسان إلى ايسوب فحاول أن يوفر على نفسه بعض الوقت حتى يستطيع أن يكوّن فكرة عن الثمن الذى ينشده فبدأ يقول :

« إنّ هذا العبد الفريجى . . . . »

فصاح إيسوب مقاطعاً : « حذار يا مولاى ! إياك أن يرفع الثمن كثيراً حتى تجد نفسك مضطراً لقبول المُغَنِّى ، أو حتى النحوىّ كهدية مجانية » .

فضحك الجميع فيما خلا التاجر والنحوى والمغنى .

وأخيراً ، وبعد كثير من المساومة ، وافَقَ التاجر على أن يبيع إيسوب للفيلسوف بستين درهماً .

وكان إيسوب يتابع المساومة باهتمام ، رافعاً يديه فى دهشة عندما سمع الثمن . وما كان منه إلا أن كرّره متحمساً : « ستون درهما ! لكم زِدْتُ فى القيمة ، فقد دفع ثلاثة دراهم فقط ثمناً لى ! هلُمَّ نرحل إلى أثينا فوراً يا مولاى فهناك سنقتنى ثروة ! »

ولقد ضحك حتى تاجر الرقيق من هذه العبارة وبدأ يتساءل ما إذا كان قد بخس قدر إيسوب .

وقال إيسوب : « اعطه يا مولاى عدّة دراهم أخرى . وسنبعثُ إليه بالزكيبة ولسوف يملؤُها مرة أخرى بلا شىء ! »

وهكذا رحل إكسانثوس عن ساحة السوق يتبعه إيسوب .

وقد وقف ضباط المكوس ليجمعوا ضريبة قدرها واحد من عشرين

من الثمن المدفوع نظير شراء العبيد ، ولما رأوا أن اكسانثوس لم يبتع سوى ذلك المخلوق المشوّه الضئيل الحجم العديم القيمة ، أبوا أن يقبلوا أى مبلغ من المال ضريبةً على العبد المجتبى ، أو حتى كثمن لشهادة الشراء .

وصحب إكسانثوس إيسوب فى المدينة وهو لا زال مرتدياً زكيبته وقد رُبِطَ الحبلُ إلى وسطه كالحزام . فأثار انتباهاً كبيراً ، ذلك أن إكسانثوس رجل معروف فى مدينة ساموس بوصفه أحد كبار وجهائها وباعتباره فيلسوفاً ذائع الصيت .

وذاع فيما حول السوق أن اكسانثوس الفيلسوف قد اشترى عبداً جديداً غريباً لا يشبه عبداً آخر ممن وقعت عليهم عيونهم من قبل .

وكلما فكرَّ تاجر الرقيق فى هذه الصفقة ، كلما تساءل عما إذا كان قد اقترف خطأً بالنسبة لإيسوب فلعلَّه يساوى أكثر من الستين درهماً التى تقاضاها من إكسانثوس ثمناً له .

وأما عن الثلاثة دراهم التى دفعها ثمناً لشرائه من زيناس فلم تكن مثار شكٍّ على الإطلاق .

الفصل السادس

وكان لإكسانثوس زوجةٌ جميلةٌ شابةٌ ، ذات ميول رقيقة عسيرة . ولم يكن من اليسير إرضاؤها ، بل ولم تبدُ على الدوام راضيةً كل الرضى : لم ترض عن ظروفها بصفة عامة ، ولم ترض عمن كانت تلتقى بهم من الناس بصفة خاصة . وكانت مطبوعة على حب الانتقاد ، وكان نقدها فى العادة جارحا وقاسياً ، وبخاصةٍ إذا تناول أصدقاء إكسانثوس ، فإذا غاب أصدقاؤه صوَّبَتْ إليه سهام نقدها ! وهذه هى طبيعة بعض النساء . ولم تكن طبيعتها ومزاجها من الطراز المعتدل الهادىء الذى يعين إكسانثوس فى تأملاته الفلسفية على اختلاف صورها . والحق إنها كانت على الدوام ساخطة غير راضية ، تفتش عن العيوب وتتسقط المثالب ، ولم يستطع إكسانثوس — إلا فى هنيهاتٍ نادرة — أن يظفر برضاها ، عمَّا يقوله أو يفعله .

ومن ثم ، فما كان له أن يفكر فى تقديم إيسوب ، العبد المجتبى حديثاً إليها ، اللهم الاَّ اذا رغب فى اثارة غضبها وسخطها . ولما كان من المألوف واليسير استثارتها دون بذل أى مجهود من جانبه ، فقد شعر أنه من

غير الضرورى ، أن يستثيرها عامداً فى نوبة غضب وسخطٍ تضاف الى نوباتها المألوفة .

وراح يفكر برهة وجيزة فى امكان التخلص من ايسوب قبل أن تسمع بنبأه ، وألا يروى شيئا عن حادثة شرائه ، بيد أن عبارات الأحدب الصغير قد رفّهت عنه وسرّته ، حتى لقد استقر رأيه على استبقائه ، بغضّ النظر عما عسى أن تقوله زوجته فى هذا الصدد .

وهكذا اتفق مع أحد تلاميذه على أن يستبقى ايسوب معه برهة ثم يصحبه من بعد الى المنزل ، على أن يتولى الفيلسوف فى تلك الأثناء تمهيد الأمر كله كما لو كان دعابة .

فلما وصل الى الدار أعلن أنه كان فى سوق الرقيق ، وأنه قد ابتاع عبدا فريجياً ، جميلا مليح الصورة بحيث لم يجرؤ على احضاره الى الدار خشية أن تفتتن به نسوة الدار قاطبة ويشغفن به حباً ، اثر النظرة الأولى ، بل ربما كان ذلك العبد الجديد سبباً فى اثارة غيرته . فما من امرأة ، بل وما من زوجة ، تفكّر فى أن تُلقِى اليه بالاً ، متى لاح ايسوب ، ذلك العبد الوسيم !

وهزّت زوجة اكسانثوس كتفيها ، كما لو كانت أسمى من أن تصاب بمثل ذلك الجنون ، وأن بدت فى عينيها وَمْضَةُ اهتمام ، بيد أن النسوة

اللواتى يخدمنها أقبلن يتزاحمن متشوفات ، دون أن تبدو عليهن رغبة فى سماع شىء آخر عن ايسوب .

وقالت زوجته : « أتقول إنه فريجى ؟ »

فأجاب إكسانثوس : « نعم . »

فقالت إحدى النسوة : « إنهم قوم رائعو الجمال . لقد كان فريجياً ذلك الفتى المليح الذى خدم كبير القضاة منذ عامين ، ثم أُطلِقَ ليعيشَ حُرّاً من بعدُ فى إيفيسوس . وأنتم لا شك تذكرون أنه تزوج من تلك الفتاة التى كانت تخدم معه فى ذلك العهد ، وقد وهبهما القاضى حريتهما ، فانطلقا معاً .

فقالت امرأة أخرى : «أذكر ذلك . »

وتساءلت إحدى النسوة : وبأى الأعمال ستعهدن إليه ؟ .

فعادت الأولى تقول : أرى أنه ينبغى أن يعيننى فى عملى . ومهما يكن من أمر فإن لدى ... »

فقاطعتها امرأة أخرى فى حدّة : « ليس فى العمل المنوط بك مايحتاج إلى معونة . وإذا أقبل شاب جميلٌ لمساعدتك ، فلن تتمكنى حتى من النهوض بواجباتك الراهنة ، وسيكون علينا نحن حينذاك أن نتولى أداء عملك فضلا عن واجباتنا . أما أنا فليس معى عبد يُعيننى ، وأعتقد أن ...»

وهنا قالت زوجة إكسانثوس فى برودٍ : « لعلكن ستسمحن لى أن أقرر ماذا عساه أن يعمل ومن سيُعين ، ومهما يكن من أمر ، فأنا سيدة هذه الدار ، وأن نَسِيَت بعضكُن ذلك ، وأحسب أنه لا بد لى من كلمة فى هذا الأمر ! . »

ومن ثم حَمىَ وطيس الخلاف واشتد بين النسوة ، وكاد الأمر يصل إلى العراك ، لولا أن إكسانثوس أظهر إيسوب فجأة بينهن وهو لا يزال مؤتزراً بزكيبته ، وأعلن فى النسوة أن هذا هو إيسوب ، العبد الفريجى الجديد .

وتوقف الخلاف كما لو كان بسحر ساحرٍ

وعَصبَتْ إحدى النسوة عينيها بيديها . وولّتْ امرأة أخرى هاربة . وصاحت ثالثة خوفاً وفزَعاً ، بيد أن ما فعلته سيدة الدار كان أشد من ذلك كله وأنكى .

قالت إن زوجها قد جلب ذلك المخلوق الكريه بغيَة طردها هى من بيتها ، وأنه لَإمعَانٌ فى إهانتها أن يبدو مُسَرْبَلاً فى زكيبة . هذا وأن إكسانثوس ليبدو منذ طويل ضيق الصدر بها ، وهو لا شك يفكر فى الخلاص منها وقد دبّر هذه المكيدة تحقيقاً لهدفه .

وتلَتْ ذلك ألفاظٌ حاميةٌ من الطرفين ، حتى لقد تورّطَتْ زوجةُ الفيلسوف فى نوبة غضبٍ رهيبة ، وأعلنت عزمها على العودة إلى أهلها ، وطلبَتْ إلى زوجها أن يعيد إليها صداقها ، وقالت إنه يوازى نصف ما فى الدار من متاع ، وألمعت إلى عزمها على الطلاق .

ولقد كان الطلاق فى ذلك الحين أمرا هيناً فى ساموس . وكان كل ما يتطلبه الأمر أن يمثل طرَفَا النزاع أمام القضاء و يعلنان ما اعتزما عليه ، ثم يدفعان رسم استخدام الخاتم الذهبى الذى لا بد من أن تُبْصَمَ به كافة الوثائق العامة ، ثم يتلاشى الزواج و يزول .

وراح إكسانثوس يتوسل إليها و يرجوها ولـكن على غير طائل ، وانسحبت المرأة الشابَّة إلى جناحها الخـــاص معتكفةً وقد بلغ بها الغضب مداه .

وكان إكسانثوس مولعاً ولعاً شديدا بزوجته الشابة ، ومن ثم فقد تعاظم حزنهُ وغمُّه .

ولـكن إيسوب الذى كان ، على النقيض من سيده ، غير مغرم بها ، فأستطاع أن يستعرض الأمر بعيداً عن المؤثرات العاطفية . ولقد سأل فعلم أن زوجة الفيلسوف ابنة أحد كبار الضباط فى مدينة ساموس ، ولم يكن أبوها واسع الثراء على الرغم من ارتفاع منزلته ، وكان لا يزال يرعى فى داره

ابنتين أخريين غير متزوجتين . وقيل له أن هذا التهديد بالطلاق كان دائما على أطراف شفتىّ الزوجة ، وأنها تلقى به دائماً لدى أتفه مظاهر التحرش والاستفزاز . واكتشف كذلك كثيراً من المسائل الأخرى .

ووعد سيده إكسانثوس بإصلاح ذات بينهما ، وأغراه بأن ينصرف عن الدار سائر اليوم ، ثم انطلق يبحث عن والدىّ السيدة .

وعلى الرغم من أنه احتاط فأزال زكيبته ، وارتدى ملابس أنسب ، فإن هيئته قد أثارت التعجب الكثير فى رأسى الوالدين المتوسطى العمر ، اللذين تقدم اليهما بوصفه محامى إكسانثوس .

ومع ذلك فقد سُمِحَ له بالدخول ، وتقدم يخطو فى جرأةٍ

واقتنع الوالدان ، من طريقة كلامه ومن الألفاظ التى كان يختارها فى حديثه ، أنه من رجال القانون فما كان لغير رجل القانون أن يستخدم مثل تلك الألفاظ ، بل وما كان لغيره أن يفهمها ، إذا كان لها فى الواقع معنى حقيقى . وطلب إليه الوالدان فى كثير من الحالات أن يفسر لهما مدلول أقواله . ولقد قال لهما :

«لقد أوفدنى الفيلسوف إكسانثوس لكى أبحث معكما مشكلةً عائلية متناهية الدقّةَ . فإني الرجل الذى أتولى رعاية مصالحه ، وبالأحرى محاميه، وإنى مفوض كل التفويض للتصرف نيابةً عنه . »

فقالت الأم مُشفقة : « وما هى تلك المشكلة ؟ »

فهزّ إيسوب رأسه فى صرامة . ثم قال :

« يؤسفنى أن أجـد نفسى مضطراً لإخباركما أن ابنتكما زوجة إكسانثوس ، قد جُنَّت ، ومن ثم فهو مُعيدها إليكما مع صـداقها ، الذى خُوِّلْتُ حق سداده الآن لـكما هنا . »

وما إنْ قال هذا حتى ضرب بيده حقيبةً جِلْدِية كبيرة كان حملها معه ، كانت لا تحوى فى الحقيقة سوى قطع من الفَخَّار والزجاج المكسور الذى صَلّ صليلا دلّ على امتلاء الحقيبة بالنقود .

واستطرد إيسوب قائلا :

« وسيستمع القضاة إلى الطلاق فى أسرع وقت ممكن . ذلك أن الجنون فى الأسرة هو — كما تعرفون جيداً — سبب أ كيد من أسباب الطلاق وهذا ما يقضى به التشريع الإغريقى ، الذى تستمد منه جزيرة ساموس قوانينها . »

واشتد ذهول الوالدين لدى سماعهما هذا الكلام . واحتج الوالد فى غلظة :

« ليس فى أسرتنا أى اثر للجنون . إنْ هذا إلا افتئات وتحرش مجرد من الصدق والحق .

وقال إيسـوب متخابثاً ، مصطنعاً أنه يشارك الوالدين مشاعرهما في محنتهما :

« ليس هذا وا آسفاه سوى الحقيقة المجردة الـكاملة . ولو لم أر ذلك بعينيّ ، لما أقدمت على مثل هذا التصرف ، إدرا كاً مني للعار الذى لا شك سيحيق بهذه الأسرة النبيلة . غير أننا نحن رجال القانون ، كثيراً ما نُنْدَبُ لإنجاز مهام غير سائغة أو مقبولة ، بل أن سبيلنا ليبدو فى بعض الأحايين منحدراً ومليئاً بالصخور والأشواك . ولـكننى رأيت ذلك الجنون رأى العين ، وما من سبيل إلى الشك فى ذلك . إنّ ابنتكما تعانى من انهيار عصبى ، وهى أشد ما تـكون عنفاً وحبًّا للعراك . هذا وإكسانثوس موطد العزم على إرسالها إليكما فوراً ، ولقد أقبلت لأردَّ إليكما صداقها . فإذا أحضرتما شهوداً عدولاً استطعت ردَّ الصداق إليكما أمامهم ، ثم أذهبُ لتدبير إجراءات الطلاق » .

غير أن الوالدين لم يبديا تحفزاً لاستدعاء شهود أثناء استرداد الصداق فى مثل هذه الظروف ، ولا شك أن إثارة الحديث عن وجود حالة جنون فى الأسرة مسألة خطيرة فى الوقت الذى لا تزال هناك فتاتان أُخريان دون زواج . ثم إنّ شهادةً يصدرها رجل قانون يدمغ فيها سيّدة بالجنون أخطر من أن تـكون مجرد أمر جدىّ . إنه كارثة !

وكادت الأم أن تبكى ، بينما بدا الأب وقد زلزلته الفاجعة ، غير أن إيسوب لم يستطع أن يتبين حقيقةً إذا كان حزن الوالد الشديد من جراء تفكيره فى ابنتيه غير المتزوجين اللتين لا تزالان قعيدتىّ البيت ، أو أن ما أثار همومه هو فكرة عودة الإبنة الثالثة الى الدار بعد أن حسبها قد استقرت آمنة فى مكان آخر .

وقالت الأم : « ولكن حدّثنى على أية صورة يبدو هذا الجنون ؟ »

فهزَّ إيسوب كتفيه ، ثم انطلق مفسّراً : « إنه جنون غريبٌ للغاية . هى تحسب أن كل الناس عبيد . بل هى تحسب أننى عبد » .

فرددَ الوالدان عبارته غير مصدقين : « عبد ! »

فهز إيسوب كتفيه كما لو كان يريد القول بأن مثل هذا الأمر من التفاهة بحيث لن تكون له أية آثار خطيرة ، طالما هو من تفكير امرأةٍ غبية متوترة الأعصاب ، ثم قال :

« نعم عبد . ولكن هذا لا شىء وإنما أخطاؤها الأخرى هى الخطيرة فعلا . مثالُ ذلك أنها تقول إننى أرتدى زكيبة ، وأننى أتجول فى الدار على هذا النحو بل وأسير فى المدينة بذلك الزى » .

فكرّر الوالد عبارته مذهولاً : « فى زكيبة ! لم أسمع قط بشىء

مثل هذا . من ذلك الذى سمع أن إنساناً ارتدى زكيبة ! أَوَ قلتَ زكيبة ؟ أليس كذلك ؟ »

« فهزّ إيسوب رأسه بشدة مُؤَمِّناً على قوله ثم أجاب : « نعم ، فى زكيبة ، أو فى وسعكما تصديق ذلك ؟ »

فهزّ الوالدان رأسيهما استنكاراً فقد بدا لهما ذلك الأمر بعد التحقيق .

واستطرد إيسوب قائلا : « إنه أمر يبدو أبعد من أن يُصَدَّق أو يُفْهَم . وليس فى المستطاع إثْنَاءَها عن رأيها هذا مهما بُذِلَ فى سبيل ذلك من الحجج والبراهين . ولقد توسّلنا اليهما جميعاً أن تنظر جيداً الى ثيابى — وهى الثياب التى تستطيعان أن تريا الآن جيداً أنها لا تمتُّ الى الزكيبة بِصِلَةٍ — بل ورجوناها أن تتحسّس قماشها للتأكد ، ولكنها استعصت على كل إغراء . ثم بدأت ترى الآخرين لابسين الزكائب ، وصارت شديدة العنف . بل إنى أتوقعها تقول لكما إنها تراكما لابسين زكيبتين بدوركما » .

ولقد ظهرَتْ بوضوحٍ على وجه الوالد الشيخ النبيل ، أماراتِ الرعب لمجرد التفكير فى أن ابنته تتخيله وقد هبط ذلك الهبوط الذريع عن منزلته ؛ وكان رجلاً كبير الحجم ذا كتفين قويين وكان لا يزال يبدو بالنسبة لِسِنِّهِ شابَ المظهر قوياً ، فتنحنح ونظر الى زوجته نظرةً ذات مغزى ، وقال فى نبرةٍ استشف منها إيسوب شيئاً من الحزم :

« أحسب أنه اذا استطعنا التحدث اليها منفردين ، كان فى وسعنا أن نعيدها الى رشدها . اطلب الى زوج ابنتى إكسانثوس أن يبقى عليها يوماً أو يومين ، فلعل الجنون ... أن يزول » .

فرفع إيسوب كتفيه علامةَ على الشكِّ . وقد بدا بوضوح أنه قليل الأمل فى أن تتحقق مثل تلك المعجزة . ثم أجاب :

« سأفعل ما أستطيع وان كنت قليل الرجاء فى التمكن من إقناعه ، إنه شديد الارتياع لمجرد تفكيره فى جنونها ، ومع ذلك سأبذل معه أقصى ما يطيقه جهدى ، وأمّا عن ابنتكما فَسَتُرْسَلُ إليكما اليوم ، وهكذا سَتُتَاح لكما دون ريب فرصةٌ لمحاولة إعادتها الى رشدها . ومهما يكن من أمر فإنى أفترض أنكما تعرفانها خيراً من سائر الناس . حَدِّثَانى . أَوَ حدث لها قطُّ من قبل أن أُصيبت بمثل هذه النوبات الغريبة » .

فعجَّل الأبوان قائلين : « كلا أبداً » .

فقال إيسوب : « حقاً إنّ هذا لمن حسن الطالع ، فلعل هذا الجنون أن يزول بالمعالجة ما دام هو من الحالات الجديدة الطارئة عليها » .

ثم استطرد قائلا : « ومع ذلك ، فسأرى ماذا يمكن صنعه ، بل إنى سأنتظر حتى الغد قبل التوجه الى القضاة لإعداد عريضة دعوى الطلاق ، وإن كنت أخشى أن إكسانثوس سيغضبه تأخرى . ومع ذلك فإنى

منتظر حتى الغد إذا كان فى ذلك ما يعينكما ، وفى وسعى أن أعتمد على تصرفكما الحازم السريع بما يكفل مصلحة الجميع . وليكن أملنا فى أن تعيد الآلهة إليها رشدها إحساناً منها لكما ، وإن كنت أنا من ناحيتى أشكُّ فى ذلك كثيراً . فالرأى عندى أن المرض قد اشتد عليها كثيراً » .

وقال الوالد : « نعم ، ليكن أملنا فى الآلهة أن تكفل لها الشفاء » .

وكان فى عينيه بريق لم تفت إيسوب ملاحظته ، وبدا كأن هذا البريق يشير إلى أن الوالد سَيُساعِد الآلهة بأقصى ما يسعه جهده فى سبيل أن تسترد ابنته رشدها وتطرد عنها تلك الخيالات الغريبة الخطرة .

وقال إيسوب : « غير أنها إذا أصرّت على آرائها فيجب أن تفهم أن إكسانثوس سيعمل على التخلص منها فوراً » .

فهزَّ الأب رأسه موافقاً ثم أجاب بقوله : « نعم ، أفهم ذلك ، غير أننا سنرى فى نفس الوقت ماذا يمكن صنعه » .

فتنحنح إيسوب ثم قال : « إنهم يقولون أن (عَلْقَة) حاميةً ربما كانت العلاج . »

فقالت الأم وقد لاح لها بعض الأمل : « نعم ، لقد سمعت هذا القول . »

ذلك أنه فى تلك الأيام كانت بعض الأمراض تعالج بطرق بدائية ، وكان الجنون يعالج بطريقة شديدة وسريعة ، فكان المريض يضرب عادة

كمقدمة لعلاج أشدّ وأقسى . وكانت الوسيلة تنجح فى بعض الحالات التى يكون الجنون فيها خفيفاً .

واستطرد إيسوب قائلا : « مهما يكن من أمر فإنى لست خبيراً بهذه الأمور ، وإن كنت قد شاهدت ذات مرة حالة أحدث الضرب فيها شفاء كاملا . فالإبنة . . أوه ولكنى نسيت إنّه سرّ المهنة ، والأفضل أن نُدير الحديث فى أمور أخرى ؛ ولعله من الخير كذلك ألاّ يعرف أحد بزيارتى هذه . فإذا كان الجنون لا يزال مستحوذاً عليها ، فسأعود هنا فى الغداة كما لو كنت أسعى إلى داركم لأول مرة !

وشكر والد زوجة إكسانثوس إيسوب لتدخله بما فيه مصلحتهما وبادلاه بعض التمنيات ، ثم غادرهما إيسوب عائداً إلى المدينة ، ليغرى عميله إكسانثوس بالإبقاء على زوجته يوماً أو يومين قبل أن يطلقها .

وبعد رحيل إيسوب راح الوالدان يناقشان مسألة جنون ابنتهما التى لا ريب ستسبب لهما حزناً شديداً ، كما ستكون لها عواقب خطيرة تؤثر فى حياة أختيها .

وقال الوالد جاداً : « يجب علينا أن نخفى هذا الأمر ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . »

فأجابت الأم قائلة : « حقاً هذا ما يجب أن نفعله ، فإنه خليق أن يلحق بنا خزياً شديداً كما يؤثر فى ابنتينا اللتين لم تتزوجا بعد . فما من رجل يرغب فى الزواج منهما إذا ذاع أن أختهما الكبرى مجنونة . وأن الجنون منتشر فى الأسرة . »

فقال الرجل متسائلا : وما عسانا أن نصنع ؟ .

غير أن الأم كانت قد عقدت عزمها على أمر وقالت :

« إذا كان حقاً أن ابنتنا تعانى مرض الجنون ، وأنها تظن أنها رأت ذلك الرجل متسمر بلا حركة ، وهو أمر يُنبىءُ أكيداً عن إصابتها بأشد ألوان الجنون فواجبنا يقتضينا أن نضربها ضربا شديداً لنشفيها من دائها . تلك هى الطريقة الوحيدة . ولقد طالما سمعتهم يقولون أن الجنون فى مراحله الأولى ميسور الشفاء إذا استخدمت هذه الطريقة . »

فقال الوالد : « نعم ، ولقد سمعت نفس الشىء . ويبدو أن المحامى قد سمع مثله كذلك . إنهم حكماء جداً رجال القانون هؤلاء ! »

فهزّت الأم رأسها مؤمّنة على قوله .

فقال الزوج : « نعم يجب علينا أن نقسو عليها إشفاقاً بها . ويجب أن نقسو عليها إشفاقاً بأنفسنا كذلك . تلك هى الطريقة الوحيدة . وفضلا

عن ذلك فهو واجبنا بوصفنا والديها . إنّه واجبنا تجاهها وتجاه ابنتينا غير المتزوجتين .

ووصلت زوجة إكسانثوس بعد برهة وجيزة من انصراف إيسوب وكانت بادية الهياج ظاهرة الإنفعال . وانطلقت من فورها تبحث عن والديها .

ورحّب بها هذان في حيطةٍ .

فأعلنتهما في عبارة مقتضبة : « لقد تركت إكسانثوس . »

وبدا قولها هذا متسقاً تمام الاتساق مع كلام إيسوب . فقد قال لهما أن إكسانثوس مرسلٌ إياها إليهما فوراً .

فسألها والدها في قسوة : « ولم ؟ »

فهزت رأسها في غضب ثم أجابت : «تصورا يا والديّ العزيزين أنه فقد كل احترام لشخصي حتى لقد عاد إلى البيت مصطحباً عبداً مرتدياً زكيبة ! .. »

وما كاد الوالد يسمع هذه الكلمة حتى قفز .

إذن فقد كان صحيحاً ما ذكره محامي إكسانثوس من أن ابنتهما تعاني من الجنون ، وذلك بأن تتخيل أنها ترى الناس لابسين زكائب !

فضمّ قبضة يده متحفزاً

وقاطعتها أمها فى حدّة قائلة : « أو قلتِ فى زكيبة ؟ »

فكررت الفتاة عبارتها قائلة : « نعم كان يرتدى زكيبة ... »

ولكنها لم تزد على ذلك حرفا .

ذلك أنها بمجرد تكرارها هذه العبارة هجم عليها والداها وقد اقتنعا اقتناعاً تاماً بأنها لا شك تُعانى نوعاً من الجنون ، وتقدّما يحاولان شفاءها بالطريقة التى قررا استخدامها . فأمسكا بها وألقياها على أريكة حيث أبقياها هناك على الرغم من مقاومتها ومناضلتها وبدءا يضربانها ضرباً مُبَرِّحاً حتى انبهرت أنفاسهما ، وكانت الفتاة ترفص بقدميها وتقاوم دون جدوى ، وهى تصرخ خوفاً وألماً .

وسألتها الأم فى حزم : « أَوَ قلتِ زكيبة ؟ »

فأجابت وهى تنتحب : « نعم ، لقد كان مرتدياً زكيبة و . . . . »

ولكنها لم تزد على ذلك حرفاً فلقد استأنف الوالدان من جديدٍ ضرباً أشد إيجاعاً حتى لقد بُحَّ صوت الفتاة من كثرة الصراخ .

وتوقف الوالدان مرة أخرى عن الضرب لانقطاع أنفاسهما . وسألها الوالد فى صوت متهدد وهو يستعدّ لاستئناف علاجه إذا كان الجواب غير مُرْضٍ :

« أو كان فى زكيبة ؟ »

وكانت الفتاة فى حالة يصعب فيها الكلام نتيجة لصراخها ، ولما لم تجب ، مظهرةً بذلك أنها لم تشف شفاءً كاملا من مرضها أمسك بها الوالدان وشرعا يستأنفان علاجها .

وقال الأب لزوجته : « انصرفى فاحضرى عصاً » .

فصاحت الفتاة وقد تعاظم خوفها : « كلا ! كلا ! كلا ! أرجوك ألا تحضرى عصاً ! »

فقالت الأم وهى تواصل ضربها : « لم يكن فى زكيبة ، أو كان ؟ »

فصرخت الفتاة ، وقد عدلت الآن عن رأيها تماماً أو شُفِيَتْ من دائها ، ثم قالت :

« كلا ، كلا ، كلا ! لم يكن فى زكيبة أبداً . أقسم بالآلهة جميعاً أنه لم يرتد زكيبة ، بل ولم أشهد أحداً فى زكيبة قط » .

فسألها الوالد : « أواثقة أنت ؟ »

فصرخت الفتاة قائلة : « نعم ، نعم ، إنى واثقة ! »

فقالت الأم : « هذا أحسن ! »

ورفع الوالدان أيديهما عن ابنتيهما ، التى بقيت حيث غادراها ، تبكى بكاء مرّا ، حتى لقد بح صوتها ، وأصبحت أعجز من أن تتحرك

وقال الوالد فى حزم ، وهو واقف تجاهها على أتم أهبـة لاستئناف العلاج إذا لمح أقل بادرة تنبىء بأن العلاج لم يكن مجدياً :

« أواثقة أنت تماماً من أنك لم تشاهدى أحداً يرتدى زكيبة ؟ »

فأجابت وقد شُفِيَت من لوثتها تمـام الشفاء : « نعم ، إنى متأكدة تماماً من أننى لم أشاهد أحداً مرتدياً زكيبةً ، وأقسم على صدق . ولست أَستطيع أن أتخيل مثل هذا الأمر » .

فاستطرد الوالد قائلا :

« وإذا حدث أن رأيت إنساناً متسربلا بزكيبة ، فلن تقولى شيئاً عن ذلك ، أليس كذلك ؟ »

فأجابت وهى تنشج وتنتحب : « أبداً ، لن أقول شيئاً لأحـد يا والدى ، أعدك بذلك !

والآن ، وقد اقتنع الوالدان بأنهما استطاعا إبراء ابنتهما من جنونها ، فقد أطلقا سراحها . ومضت تصرخ وتبـكى بكاء مراً ، من شدة الألم والخجل ، وكانت وهى لا تزال خائفة كل الخوف ، تشعر أنها أجبن من أن تجرؤ على الغضب أو حتى على الاحتجاج .

وقالت الأم : « حسن إذن . ستصعدين إلى الطابق العلوى حيث

تستحمين بالمـاء البارد ، فإذا ما صرت قادرة على الخروج من الدار ، فستذهبين من فورك إلى بيتك ، إلى زوجك إكسانثوس ، و إياك أن ترى بعد اليوم أناساً يسيرون فى زكائب ! »

فلما عاد إكسانثوس ذلك المساء إلى داره ، وجد زوجته فى انتظاره وقد تحولت إلى مخلوق لطيف طريف . ولم تشر الزوجـة إلى عزمها على العودة إلى والديها ولم تبد أى احتجاج على وجود إيسوب ، أو على ملابسه وهيئته .

ولعلها بدأت ، بمضى الوقت و بحـكم العادة ، تألف دمامة إيسوب ، حتى لقد صارت أقلّ خوفاً من منظره .

وتأثر وصيفاتها بتصرفها ، واحتفظن بأفكارهن لهن خاصة لا يبحن بها لأحد .

وأما عن الوالدين ، فقد اقتنعا أن علاجهما العاجل النشيط قد طرد من صدر ابنتهما تلك الروح الشريرة ، روح الجنون ، التى كانت — لولا تدخلهما الخاطف — حَرِيةً بأن تفسد حياة ابنتهما ، وتفسد معها حياة والديها ، وحياة أختيها الأُخْرَيَيْنِ ، وهـكذا فقد أجتثت جذور الجنون من أسرتهم وأزيلت مرة واحدة و إلى الأبد ، و بذلك نَجَّاهم القدر من عارٍ رهيب .

ولعله من الخير كذلك أن أحداً لم يفكر فى سؤال زوجة إكسانثوس نفسها عما إذا كان فى أسرتها أثر من آثار الجنون ، ذلك أنها كانت فى كل مرة تجلس فيها متأملة ، تجد نفسها مقتنعة بأن الأسرة لم تخل من لوثة وجنون !

* * *

الفصل السابع

وصحب إكسانثوس ذات يوم إيسوب فى زيارة بائع خُضَرٍ فى حقله ، وكان اشتهر بجودة خضرواته ، وذلك لكى يختار بنفسه مواد السلاطة .

وعلى الرغم من علو كعب إكسانثوس فى الفلسفة ، فقد كان يسمح لأفكار وميول حيوانية بالتداخل فى فلسفته على النحو الذى سنراه فيما بعد . وكان الطعام والشراب فى طليعة تلك الأفكار الخاصة .

وقد استقبل بائع الخضر إكسانثوس باحترام و إجلال يناسبان وقدره وشهرته كفيلسوف ، وطاف به فى حديقة الخضر ، ينتخب له من هنا ومن هناك أجود الخَسِّ ، وأصلح الخضر الأخرى التى تدخل فى صنع السلاطة .

ولم يلبث الرجل أن قال : « عندى سؤال أود توجيهه إليك يامولاى إكسانثوس ، وهو سؤال يتصل بالفلسفة كما يتصل بتجارتى هذه » .

فقال إكسانثوس : « حسن جداً ، ما الخَطْبُ » ؟

فتمهل بائع الخضر ، ثم أشار بيده نحو حديقته التى تنمو فيها كل صنوف الخضر ، فى صفوف منتظمة ، ثم قال :

« الملاحَظُ يا سيدى أن الشجيراتِ والنباتاتِ والخضَرُ التى أزرعها وأعْنَى بها ، وأسقيها وأرْعاها فى اهتمام ، لا تكاد تبقى مزدهرةً إذا أهملتُ العناية بها لحظة واحدة ، فى حين أن النباتات التى تنمو نموا تلقائياً دون أن أزرعها ، ومعظمها من الحشائش التى تخرجها الأرض من تلقاء نفسها ، دون زرع أو عناية، تنمو وحدها وتترعرع كثيراً ، ونجد أنفسنا على الدوام مدفوعين إلى إعدامها . ولو أننى أهملت حديقتى عاماً ، أو حتى شهورا قلائل ، إذن لأختفت منهـــا كلُّ نباتاتى ، ولَغُصَّتْ بما لا يُغْنِي من الأعشاب » .

ولم يستطع إكسانثوس أن يفكر فى تعليل مقبول ، ومن ثم قال إن ذلك من تصاريف القَدَر ، كما هى عادة الكثير من الناس حينما لا يهتدون إلى التفسير الصحيح لأمر من الأمور ، أو عندما يكون ذلك ملائما لأغراضهم .

وابتسم إيسوب ابتسامة لم يلحظها أحد ، ثم انفرد بسيده ، ونصحه بأن يخبر التاجر بأن مثل هذا السؤال غير جدير بفلسفته العظيمة ، ومن ثم فهو يحيله على خادمه إيسوب ، الذى يستخدمه للإجابة على مثل هذه الأسئلة البسيطة القليلة الأهمية .

وبعد أن تجول إكسانثوس فى بقعة أخرى من الحديقة ، وجّه زارع

الخضر إلى إيسوب نفس السؤال ، فأجابه إيسوب موضحاً :

« يمكن تشبيه الأرض بامرأة لها أطفال من زوج أول ، ثم تزوجت من رجل آخر له أولاد ، فهى لا شك ستجعل عنايتها ومحبتها مقصورتين على أطفالها ، وذلك على حساب أطفال زوجها ، حتى لتأخذ من طعام هؤلاء ولوازمهم الضرورية ، لتزيد نصيب أولادها منها . وذلك هو الموقف فيما يتصل بالأرض ، التى تنتج على الرغم منها وبكل صعوبة ومشقة تلك المزروعات التى نَدُسُّ بذورها فى باطنها ، فى حين تدخر كل حُبِّها وحنانها وخيرها ورفدها إلى ما تنتجه هى فقط . فهى للأولى زوجة الأب الشريرة القاسية الفؤاد ، وهى للثانية ، الأم المحبة الرقيقة الحنون » .

ولقد سُرَّ تاجرُ الخضر كثيراً بشرح إيسوب وبيانه ، وعرض عليه أن يأخذ ما يشاء من حديقته ، كما أبى أن يأخذ من إكسانثوس ثمن ما اختار من للسلاطة .

ونشب بعد زمن خلافٌ شديدٌ بين الفيلسوف وزوجته ، أحدث قيامه اضطراباً جديداً فى حياة الأسرة . فلقد كانت زوجةُ الفيلسوف ، ككثيرٍ من النسوة اللواتى لا يعملن كثيراً ، ولديهن العدد الكثير من الخدم الذين يقومون بأعباء الخدمة ، تنفق وقت فراغها فى إيذاء من حولها.

وذات يوم دعى إكسانثوس إلى وليمة كبيرة ، فوضع بعض الحلوى

التى قُدِّمَت إليه جانباً ، ثم نادى إيسوب ، وكان قد صحبه ليقوم على خدمته وليشد أزره بالردّ السريع إذا حدث أن ارتجّ عليه فى مناقشة ولم يسعفه الخاطر بالإجابة المناسبة ..

وقال إكسانثوس لإيسوب :

« أحمل هذه الحلوى يا إيسوب إلى الدار ، وأعطها لأعزّ مخلوق علىّ هدية منى » ..

فجمع إيسوب الحلوى وحملها إلى الدار ، ثم أعطاها لكلبة صغيرة ، كان إكسانثوس مولعاً بها ، وكانت تدخل السرور على نفسه بمظاهر محبتها وأمانتها .

فلما عاد إكسانثوس إلى الدار ، بادَرَ بسؤال زوجته عما إذا كانت قد تَلَقَّتْ هديته ، وسرت بها . كما أفصح لها أن ذلك الحفل الباذخ لم ينسه التفكير فيما يدخل السرور والبهجة على نفسها .

ولم تستطع زوجته أن تفهم ما يعنى ، ومن ثم فقد أرسل فى طلب إيسوب ليشرح الأمر ..

وكان إكسانثوس ينتظر غلطة يقترفها إيسوب حتى ينزل به العقاب فقال غاضباً :

« أولم أطلب إليك العودة إلى المنزل حاملا بعض الحلوى لأعز مخلوق علىّ ؟ »

فأجاب إيسوب بقوله : « نعم ، هذا حق . ولقد نفّذت أمرك بإخلاص » .

فقالت زوجته : « هذا غير صحيح ، فإنى لم أتلق من إيسوب شيئاً : لا حلوى ولا رسالة ! »

فقال إيسوب : « هذا حق ؛ فلقد أمرتنى أن أعطى الحلوى لأعز مخلوق عليك ، فاستخلصت من قولك هذا أنك تعنى الكلبة الصغيرة التى أنت مولع بها ، والتى تدخل السرور على نفسك بمحبتها و اخلاصها » .

وذكر إيسوب أن زوجة إكسانثوس ليست بأعز مخلوق عليه ، ذلك أنها تعمد إلى الغضب والسخط لأقل كلمة تسمعها ولا ترضى عنها ، وتعود إلى بيت والديها ، أو تتهدده على الدوام بالطلاق ، فى حين أن الكلبة الصغيرة تتحمل كل إساءة ثم لا تلبث أن تعود لتلعق يد سيدها بعد أن تضربها تلك اليد ، ولا تحمل أبداً فى نفسها حقداً أو ضغينةً .

ولم يستطع الفيلسوف أن يجد رداً على هذا الكلام .

بيد أن زوجته أُنتابتها نوبة من السخط والغضب ، حتى لقد تركته

مرة ثانية . ولكنها إذْ تذكرت كيف استقبلها والداها ، قررت التوجه لبيت عمة لها ، تقيم غير بعيدٍ خارج مدينة ساموس .

وأُصطحبت إحدى خادماتها ، وأخذت ما قد تحتاج إليه من متاعها ، ثم قصدت إلى عمتها تلك .

و بقيت هناك ، صَمَّاء لا تصغى إلى محاولات إكسانثوس وأصدقائه ، الذين صنعوا كل ما فى وسعهم لإغرائها على العودة . ولكنها أبت أن تفعل ذلك ، أو أن تصغى لآرائهم ، وظلت حزينة النفس فى معتكفها النائى .

وفكّر إيسوب فى حيلة يعيدها بها إلى زوجها :

فقد انطلق فى المدينة يَغْشى كل المتاجر والحوانيت ، يقلب البضائع ويفحصها ، و يصدر أوامره بشراء الأطعمة الخاصة هنا وهناك ، كما لو كان يهم بإقامة حفل عظيم . وأمر بشراء صيد وسمك ودواجن وخير أنواع اللحوم ، معلناً أنه يبتاع ذلك كله لحفل زواج ، ولم يبد ارتياحه بشىء مما رأى ، باخِساً من قدر الأصناف التى قدمها له التجار ، قائلاً إنها غير جديرة بالمناسبة التى يهتم بها .

ولما علم التجار أنه وكيل للسيد إكسانثوس الذائع الصيت ، فقد وعدوا أن يقدموا أفضل ما يستطيعون وبذلوا أقصى جهد ميسور ليعرضوا عليه أبدع النماذج للأصناف التى يطلبها .

وقال إيسوب يشرح لهم الأمر : « الحق أن هذا الحفل الذى أبذل جهدى فى سبيل حشد ألوان طعامه ليس حفلاً عادياً و إنما سيكون ذا طابع متميز يخلد فى ذاكرة سيــــدى إكسانثوس ، كما يخلد فى ذاكرة ضيوفه الآخرين . »

وتباحث التجار فيما بينهم فتناصحوا على أن يبذل كل منهم طاقته لإرضاء إيسوب و إرضاء إكسانثوس نتيجة لذلك .

وقد فعل إيسوب الكثير و بدا عظيم الانشغال والنشاط حتى أن أنباء نشاطه ما لبثت أن أصبحت حديث المدينة ، وراح جميع المواطنين يتعجبون فى دهشة منها .

وفى ذات يوم أرسلت زوجة إكسانثوس خادمها ليعرف من إيسوب دواعى ذلك النشاط و إلى أية غاية تهدف هذه الاستعدادات .

وشرح إيسوب للخادم كيف أن إكسانثوس قد يئس من عودة زوجته إليه كما يئس من إعادتها إلى رشدها ، الأمر الذى جعله يقرر طلاقها والزواج من امرأة أخرى . وما هذه الإعدادات كلها إلاّ احتفالا بذلك الزواج الجديد .

وما كادت الزوجة تسمع هذه الأنباء حتى عادت إلى بيت إكسانثوس وأبت أن تبرحه ولعل الذى دفعها إلى ذلك دوافع من الغيرة أو التقلب

وهكذا فإن الحفل الذى تأهب له إيسوب واستعد على هذا النحو العظيم من الاهتمام والحرص ، لم يَضِعْ عَبَثاً ولم يذهب هباء ، وإنما أُقيم رمزاً لصلح إكسانثوس وزوجته .

ومن ثم فقد عاد الصفاء الود إلى إكسانثوس وزوجه بفضل إيسوب . بيد أن الزوجة ظلَّت على الدوام تتحامل على ذلك الخادم « الفريجى » .

وعلى الرغم من أن إكسانثوس كان يُدْعَى فيلسوفاً ، وكانت له بالفعل مدرسة علَّم تلاميذها كلَّ ما كان يَعْلَم ، إلاَّ أنه فى حقيقة الأمر كان رجلا شديد الغَبَاء ، ولعل مِيزَتَه الفريدة كانت تتركز فى ذلك القدر الكبير من المال الذى كان يقتنيه ، وفى مزارعه الشاسعة ، وملابسه الفاخرة .

ولقد شبّه إيسوب فيما بينه وبين نفسه بالفهد فى القصة التى كان الفهد والقرد يكسبان فيها رزقهما من ظهورهما فى المعرض . فقد كان لكل منهما قفصه ؛ وبذل الفهد جهده لكى يجذب إليه الزبائن ، وذلك بأن يظهر للناس جِلْدَه المنقَّط فى كل موضع فى جسمه ، والملوّن تلويناً لعله أشد جمالا من لون أى حيوان آخر ، ولكن ما إن فرغ الناس من رؤية جلده هذا ، حتى عجزوا عن رؤية أى شىء آخر فيه يبعث على التسلية فانصرفوا عنه ولم يعودوا إليه .

غير أن القرد الذى لم يكن فى جلده الكثير مما يبعث على الإغراء بالنظر ، فإنه قد وهب ألوانا شتى من فنون الذكاء ، وإن بدا جلده خِلْواً من الألوان المغرية الجذابة . ولقد عرف مائة حيلة وأتقنها وكان فى استطاعته أن يكثر من حركات ملامحه ، كما كان فى وسعه أن يقلِّد الناس ، ويأتى بالحيل المضحكة ، حتى إذا ما رآه الناس مرة لم يكتفوا بذلك وإنما عادوا لرؤيته من جديد مرة تلو أخرى حتى يسلّيهم بحيل جديدة وأفكار ظريفة . وهكذا فإنّ موهبة إكسانثوس الوحيدة لم تكن فى رأى إيسوب تتجلى حقا إلا فى ثيابه .

وفى ذات يوم بعث إكسانثوس فى طلب إيسوب فلما أقبل أخبره أنه قد عقد العزم على إقامة حفل كبير يشهده جميع أصدقائه . وكان إيسوب قد أحرز بذكائه وفطنته مكانة طيبةً فى دار إكسانثوس حتى أصبح رئيس العبيد . ومن ثم طلب اليه إكسانيوس أن يعد العدة فى الغداة لحفل كبير . فسأله إيسوب :

« وما عساى أن أجلب من أنواع الطعام ؟ »

فرفع اكسانثوس كتفيه قلقاً ، ثم قال :

« لست أرغب فى أن تضايقنى بمثل هذه التفاصيل . توجّه إلى السوق واشتر أجود ما تجده هناك ، ثم أعَدَّه لوليمتنا . وحذارِ أن تبتاع غير

أجود الأصناف ، وإلاّ فسأكتشفها ، ثم أدلّكَ عليها ! »

وصرفه بإشارة من يده تنبىء عن التشامخ والكبر . وفكر إيسوب ثم قال مخاطبا نفسه .

« سأعلمك كيف تبين ما تريد بوضوح فلا تعتمد دائما على الآخرين فى كل شئونك ، وبخاصةٍ إذا كانوا من العبيد المستضعفين ، حتى إذا ما سار كل شىء على ما يرام ، ظفرتَ أنت بالتكريم والتقدير ، أمّا إذا وقع شىء من الخطأ فإنك تستطيع أن تلقى اللوم على العبد وأن تنزل به العقاب . »

وانطلق إيسوب إلى السوق ولم يبتع إلاّ صنفا واحدا : هو الألسنة : لسان الضأن ، ولسان الثور ، ولسان الخنزير ، بل ولسان العصفور . جمع منها أكبر قدر مستطاع حتى لم يبق فى السوق شىء منها . وأمر بحملها إلى الدار حيث أرسلت إلى المطابخ .

فلما اجتمع الأضياف فى وليمة اليوم التالى — كان إيسوب قد أمر باعداد هذه الألسنة بأنواع مختلفة من « الصلصة » ، طبقا لكل نوع معروف ، ثم بدىء بتقديم الطعام . وبدأ الضيوف بالثناء على وليمة إكسانثوس وابتسم إكسانثوس فرحا وأخبرهم أنه قد اختار بنفسه أصناف الطعام ، وذلك بغيةَ إرضائهم وتكريما لهم . ولكن ما إنْ تلا الطبقُ

طبقاً ، حتى كان نوع من اللسان يتلو نوعا آخر منه ، ولم يكن ثمة شيء آخر سوى الألسن ، بين « مُسَبَّكة » وباردة مُتَبَلَّة ، ومشوية ، ومحمّرة ومسلوقة ، ومُقَطَّعة شرائح ، وألسنة أخرى ما كان أحد ليصدق بإمكان إعدادها بمثل تلك الطرق غير المألوفة ومزجها بمثل هذه « الصلصات » العجيبة ، وكلها فاتحة للشهية ، ولكنها ليست مع ذلك إلا أَلْسِنَة ، وأَلْسِنَة على الدوام ، ولا شيء غير الألسنة حتى لقد بدأ الضيوف يزهدون فيها وأنتهى بهم الأمر إلى رفض تناول المزيد منها بعد أن شبعوا من تلك الألسنة التي لا تنتهي !

وبالرغم من أنهم كانوا يستطيعون المضي في الأكل وإن جاوزوا حدود شهيتهم إذا بذلوا جهداً في سبيل ذلك — كما كانت العادة في تلك الأيام ، وكما لا يزال الأمر حتى يومنا هذا مألوفا في كثير من الأقطار ولدى أقوام معينين ، إلاّ أن تتابع ذلك الطبق الواحد المُمِلّ جعلهم يزهدون في بذل جهد آخر لا تدعو إليه رغبة .

وكان إكسانثوس غاضباً ونظر إلى أيسوب قائلا :

« أو لم أقل لك بالأمس أن تبتاع أفضل ما في السوق لهذه الوليمة تكريماً لضيوفي ؟ »

فرفع إيسوب كتفيه مندهشاً وأجاب :

« حسنٌ ، وماذا هنـــاك أفضل من اللسان ؟ فباللسان نستطيع أن نعلن آراءنا وأن نتبادل الأفـكار ، و باللسان تنظم حبّات عِقد الحياة المتمدينة ، أنه مفتاح العلوم كلها ، ومفتاح المعرفة كلها ، والحـكمة جميعها ، إنه الوسيلة لبيان الحقيقة والصواب . و باللسان أنجز الناس روائع الأعمال . و به شُيِّدَتْ المدن ، وأديرت دفّةُ الحـكم فيها ، وتعلّم سكاّنها طرائق الحـكمة ، وسبل الحـكومة المنظمّة . فإذا ما عُقِدَتْ المجالس كان اللسان فيها عنصر إغراء بِعمَلِ الخير ، كما أن الحـكماء من الرجال ممن يرأسون الهيئات والمجالس يعتمدون على ألسنتهم فى تصرفاتهم وفى نشر آرائهم . وأخيرا ففى وسع لسان المرء أن ينوب عنه فى أداء واجبه الأول ألا وهو شـكر الآلهة والثناء عليهم . فأى شىء إذن يمكن أن يكون خيراً من اللسان ؟ » .

ولم يستطع إكسانثوس أن يفكر فى رد على هذا ، كما أسقط فى أيدى ضيوفه جميعا فلم يحيروا جوابا .

وقال إكسانثوس ، وقد حسب أنه مستطيع الإيقاع به :

« حسن جداً ، إذن ففى وسعك غدا أن تبتاع أسوأ ما فى السوق . فسيأتى الضيوف أنفسهم ، لأننى أود أن أقدم لهم شيئاً آخر . »

وهكذا عنـــد ما اجتمع الضيوف فى اليوم التالى قدمت لهم نفس

الأصناف التى قدمت لهم فى اليوم السابق ، وقد قال إيسوب فى بيان سبب ذلك :

« حسن ، وأى شىء أسوأ من اللسان ؟ ففى ثنايا اللسان نستطيع أن نخفى آراءنا وأن يوارى أحدُنا أفكاره عن صاحبه . وبه نستطيع أن نُنَافِق وأن نوقع بإخواننا فى الخطأ ونُورِثهم المتاعب . وباستخدام اللسان على هذا النحو تنحل خيوط الحياة المتمدينة ، ويسود بين الناس الحقد والبغضاء . واللسان أُسُّ الكفاح ، ومثيرُ المناقشات والمعارك ، وأصل الخلافات وسبب الحروب . وهو ، وإن كان وسيلةً لإظهار الحقّ ، فهو كذلك وسيلةٌ للكذب ، ولما هو أسوأ وأفدح من الكذب : ألا وهو التشهير . وإذا كان باللسان تبنى المدن وتُسَاس ، ففيه كذلك دمارها ، وعن طريقه يثور أهلها ويحدثون القلاقل ، مدفوعين فى ذلك بعبارات كاذبة يلقيها عليهم رجال أشرار . وفى المجالس تغرى الألسنة بالمفاسد ، وإن الخونة وطلاّب المنافع الشخصية يستطيعون بألسنتهم أن يدفعوا بالمجالس إلى الشرور أو يشلّوا نشاطها . وأخيرا فإن اللسان يستخدم فى التجديف على الآلهة وفى الاساءة إلى أسمائها المقدّسة . فماذا عسى أن يكون أشد سوءاً وأذى من اللسان ؟ »

وأكدّ أحد الأضياف لإكسانثوس أنه لاريب سعيد للغاية لكونه

سيد إيسوب وما لِـكه ، وأن مثل هــــذا الخادم هو حقاً مما لا يستطيع الاستغناء عنه . ثم قال : « إنى لا أعرف شيئا أو أحدا يمكن أن يمارس الصبر كما يفعل الفيلسوف . وأما عن شخصى ، وأنا لست فيلسوفا فإنى أعرف كيف أواجه مثل هــذا الخادم ، وذلك بأن أعجل بضربه حتى يموت . »

فقال إيسوب : « لو لم يكن سيدى فيلسوفاً عظيما لما وسعنى أَن أعامله على هذه الصورة . ذلك أنه يستطيع تقدير كثير من الأشياء التى قد لا يفهمها الآخرون . »

فابتسم إكسانثوس مرتاح النفس . وقال الضيف غاضباً :

« أو تدّعى أننى لا أستطيع فهم الأشياء كما يعل سواى ؟ » .

فأجاب إيسوب قائلا : « الحق أنى لا أقول ذلك . لـكن سيدى إكسانثوس ليس مجرد شخص عادى . وهو يستطيع أن يفهم جيـداً الأشياء التى ليس عاراً أن تفوت فطنة الآخرين » .

وهكذا وثِقَ إيسوب من أنه لن يواجه غضب إكسانثوس كما كان ذلك محتملا .

واستطرد الضيفُ مُلِّحا :

« مهما يكن من أمر فإننى أعرف ماذا سأصنعه . فلو أن الأمر يتعلق بى لعرفت كيف أتصرف » .

فقال إيسوب : « لـكل امرىء أن يتصرف أو يتـكلم على النحو الذى يتفق ومصالحه . فإذا ما تحقق هذا صلح حال الدنيا » .

فقال الضيف : « حسن جدا . إذن فأرنى رجلا لا يهتم بما لا يعنيه من الأمور » .

فقال إكسانثوس : « نعم ، سأحضره لك هنا حتى نراه جميعا » .

وتوجه إيسوب فى اليوم التالى إلى ساحة السوق ، وما إن نظر حوله حتى رأى ريفيا يحدق فى شىء تحديقاً بارداً خلواً من أى عاطفة ، كما لو كان تمثالا حجريا . فتبع ذلك الرجل مراقباً حركاته بعض الوقت . وشعر إيسوب أنه يستطيع أن يحقق غرضه فصحبه إلى البيت .

ثم أمر إكسانثوس زوجه ونساءها أن يتقدمن حاملات حوضاً ممتلئاً ماءاً ومناشف وروائح ، وأمر بتسخين الماء و بغسل يدى ضيفه الريفى الجديد وغسل رجليه كذلك . ولم يقل الريفى شيئا ، وإن كان قد علم علم اليقين أنه لا يستحق مثل هذا التـكريم يضفيه عليه هاتيك النسوة .

ولعله خاطب نفسه قائلا : « ربما جرت العادة هنا بصنع ذلك ، وعلى أية حال فليس ذلك مما يَـكْرِثُـنِى » .

وأُجْلِسَ فى مقعد الشرف على رأس المائدة ، فجلس دون أن يحتج ودون أن يبدى أى اهتمام .

ولم يفعل إيسوب طوال تناول الطعام شيئا سوى لوم الطباخ من أجل الطعام الذى طهاه . فلم يكن بين ألوانه لون طيب . بل لقد أثارت جميع الألوان سخطه . فإذا كان لون من الطعام حلواً قال إنه كثير الملح ، وقال عن الطعام المالح إنه كثير الحلاوة !

غير أن الرجل الذى لم يرهق نفسه بالتصدى لأمور لا تخصه ، واصل تنال طعامه بشهيةٍ طيبةٍ ، ولم يُحِرْ حرفاً .

فلما جاء وقت تناول الحلوى وضع الخدم على المائدة فطيرة أعدتها زوجة الفيلسوف نفسها :

فقال إكسانثوس : « والآن تلك هى أسوأ ألوان الحلوى التى ذقتها طوال حياتى ، ويجب أن تُحْرَق صانعةُ هذه الفطيرة حيَّةً هى وفطيرتها ، لأنها لن تستطيع مهما عاشت ، أن تُوَفَّق إلى طهى شىء يستحق الأكل . فأحضروا حَطَباً وانصبوا من فوركم فى الفِناء محرقةً » .

وهنا قال الفلاح وفمه لا يزال ممتلئا بالطعام :

« انتظروا ! سأذهب أنا لإحضار امرأتى ، فلا شك أن النار ستكفى لحرق كلتيهما » .

وكانت هذه الملاحظة الأخيرة كافية لأن تثنى الفيلسوف عن محاولة حمل الرجل على الاهتمام بمسألة لا تتصل بشخصه ، معترفا بذلك أنه لن يستطيع التغلب على إيسوب .

* * *

الفصل الثامن

ولم يقف الأمر بإيسوب عند حد الضحك وإرسال النكتة وإطلاق العبارات الحكيمة والمسلية مع سيده الفيلسوف ، ذلك أن شهرته كانت قد أخذت تتسع وتمتد ، وكثر أولئك الذين عرفوه ، وأكثر منهم أولئك الذين عرفوا أقواله ونوادره ، وأخذوا يتناقلونها ويتبادلون روايتها واحدا بعد آخر . ولم يكونوا قلةً أولئك الذين راحوا يرددون أقواله ويرددون نوادره ، مدعين أنها من اختراعهم هم ، ولكنهم ما كانوا ليخدعوا أحداً بمثل ذلك الادعاء !

وبعث إكسانثوس بإيسوب ذات يوم إلى جهة ما فى مهمة سرية للغاية — وقد أمره ألا يبوح لأحدٍ باسم الجهة التى يقصدها ، لا ولا يتظاهر مطلقا بأنه راحلٌ إلى أية جهة . وقابَلَ إيسوب فى طريقه رئيس قضاة المدينة ، وهو متجه إلى ساحة سوق المدينة تتبعه حاشيتهُ وأعوانه ، حيث يقضى بين الناس فى كافة شئونهم القضائية ، وحيث يحسم الخلافات ويصغى للقضايا والادعاءات . ولقد كانت جلسة رائعة ، ولم يكن موكب كبير القضاء وحاشيته ليقل عنها روعة وجلالاً .

وعلى الرغم من انشغال بال كبير القضاه فى القضايا الضخمة التى كانت تنتظره فى جلسة ذلك اليوم ، فلم تفتـــه مطلقا رؤية إيسوب سائرا عبر الطريق ، وما أن شاهده حتى استوقفه قائلا : « حسن ، إلى أين أنت منطلق يا إيسوب ؟ »

وسواء أكان ايسوب غائب الذهن ، أو كان ممتثلا لأمر سيده بعدم البوح لأى مخلوق بالجهة التى يقصدها أو المهمة التى ينهض بها ، فقد أجاب ايسوب بأنه لا يدرى .

فما كان من كبير القضاة إلاّ أن أعاد عليه السؤال وقد ازداد حِدّة :

« أولا تعرف ؟ » .

فأجاب إيساب قائلا : « كلا لست أدرى ! » .

ولقد أثار هذا الرد غضب كبير القضاة ، فقد وجده لا ينطوى على التبجيل والاحترام لشخصه ، كما ألفاه غير مناسب من عَبْدٍ ، ومن ثم أشار إلى ضباطه آمراً إياهم بإلقاء القبض على إيسوب . ثم قال :

« خذوه فزجوا به فى غيابة السجن » .

ومن ثم توجَّه الضباط بإيسوب حيث وضعوا السلاسل فى معصميه وانطلقوا به إلى سجنه .

والتفت إيسوب نحو القاضى ، ولوح له بيديه المغلولتين وهو يقول :

« أو ترى كيف كنت محقاً فى قولى أننى لست أدرى إلى أين أنا ذاهب ، و إلاَّ فكيف كان يمكننى ، عندما غادرت دار سيدى هذا الصباح ، أن أعلم أننى سأُساقُ إلى السجن ؟ فليس فى وسع المرء أن يعرف إلى أين هو ذاهب ! » .

لقد رفَّهَتْ عباراتُ إيسوب هذه عن نفس القاضى ، فأصدر أمره إلى الضباط أن يطلقوا سراح إيسوب و يدعوه يذهب إلى حال سبيله .

وكانت هذه هى الوسيلة التى استطاع إيسوب بها أن يصون سر سيِّده بل واستطاع ، فوق ذلك ، أن يُخْفِى اضطلاعه بعبء مهمةٍ سرية .

وقال كبير القضاة إن إكسانثوس لاشك سعيدٌ ومحظوظٌ لامتلاكه عبداً له مثل هذه الفطنة وذلك الذكاء . ولقد ترتب على ذلك أن تأكد إكثانثوس من أهمية إيسوب له ، حتى لقد صدّ عن إطلاق حريته ، نظراً للشرف العظيم الذى أضفاه عليه امتلاكه لمثل ذلك العبد الحكيم .

ولقد كان إكسانثوس نفسه قليل الفطنة ضَحْلَ الحكمة ، على النقيض من عبده الذى أغدق عليه القَدَرُ منهما قسطاً كبيراً . ومع ذلك فإنه لمن المدهش العجيب حقاً أن يشتهر اكسانثوس ويُعْرَفُ فى ساموس بأنه الفيلسوف . ولعله باستطاعته الإنفاق على تلاميذه ، ظفِرَ بشهرته وأطارَ صيته . أو ربما كان لقب الفيلسوف فى ساموس حينذاك ، أيسر

وأسهل مما يأمل بعض الناس أن يظفروا به وينالوه فى أيامنا هذه . أو لعل إكسانثوس لم يرث عن أبيه أملاكه ومكانته الاجتماعية فحسب ، وإنما ورث عنه كذلك شهرته كفيلسوف ، إذْ كان والده فيلسوفاً معروفاً ، ومن ثم يمكن القول إن إكسانثوس فيلسوف بالوراثة ! ومن ذا الذى يسعه أن يخبرنا أين تبدأ الوراثة أو أين تنتهى فيما يتصل بهذا الأمر ؟

وما كان إكسانثوس بالرجل القليل الحظ من الذكاء فقط ، ولكنه كان يضيف ظلاماً إلى ظلام عقله بإدمانه الخمر .

وقد حدث ذات يوم ، بينما كان منهمكا فى نقاش حاد مع تلاميذه ، إذا بإيسوب الذى كان يقوم على خدمتهم يرى أن الخمر قد أخذت تلعب بألبابهم وقد استوى فى ذلك الأستاذ والتلاميذ الذين كانوا يقارعونه بنت الحان .

وقد ذهل إذْ رآهم يشربون فيبدون أثناء الشراب أشدّ غباء منهم فى حالتهم الطبيعية فحاول أن يبدى احتجاجه على تصرفهم فقال :

« إنّ الإفراط فى الشراب له ثلاث مراحل ، أما الأولى فهى الإحساس الكاذب بالسعادة والصحة ، وأما الثانية فهى حالةُ السكر التام وفقدان الرشد ، وأما الثالثة فهى ثورة الغضب » .

فصاح أحد التلاميذ هازئاً به :

« أصغ إليه ! أصغ إلى النبيّ الصغير » .

فتمتم إكسانثوس قائلا « ماذا عساه يقول ؟ » .

فقال أحدهم « يا لإيسوب الطيّب العزيز » .

فصاح إكسانثوس « نعم تكلّم يا إيسوب . أعِدْ علينا عبارتك » .

فقطب إيسوب وجهه ، و بدأ حديثه قائلا :

« لقد قلت إن الإسراف فى تناول الخمر . .. »

فصاح إكسانثوس قائلا « إيسوب مصيب وحق چوپيتر ! هذا هو الصواب . ان ما نحتاج إليه هو فى الإفراط فى الخمر . أحسنت يا إيسوب ! أسعفنا بقدرٍ آخر من الخمر ، ودعنا نشرب جميعاً . هَلُمَّ عجِّل يا إيسوب الطيب المخلص . املأْ كأسى يا إيسوب ! » .

وانتزع آنية الشراب من يد إيسوب وصبّ الخمر فى كأسه حتى فاضت و بدأت قطراتُ الخمر تهمى على المائدة بل وعلى ثيابه .

وقال مفاخراً كما لو كان قد أتى أمراً ملحوظ البراعة :

« هذا هو ما أسميه الإفراط فى الخمر » .

وضحك الجميع وأفرغ اكسانثوس كأسه فى جوفه ، وتوّجه إلى إيسوب مصدراً إليه أمره :

« تعال يا إيسوب ، لا تقف هكذا بعيداً . إذهب وأحضر قدراً آخر من الخمر أوَلاَ ترى أننا لا نزال ظِمَاء ؟ » .

ولم يكن أمام إيسوب إلا الطاعة والامتثال .

وكانت الضجة قد اشتدت حتى أصبحت تصم الآذان . فلما عاد إيسوب كان معظمهم قد بدأ المرحلة الثانية التى سبق أن وصفها لهم .

وقال الفيلسوف وهو مخمور « فى وسعى أن أواصل الشراب على هذا المنوال طوال الليل ، وطوال الغد ، ثم طوال الليل ، وهكذا وهكذا إلى ما شاء الله .

وملأت الجو عاصفة كبيرة من الضحك تعالت من أفواه ذلك لجمع شبه المخمور .

وقال أحد التلاميذ ، ولعله كان أقل تأثراً بالشراب من رفاقه :

« ولكن مما لا شك فيه أيها الأستاذ أنه ينبغى عليك أن تتوقف عن الشراب بعض الوقت » .

وهزّ إكسانثوس رأسه ضاحكا فى غبطة ثم صرح فى عنف قائلا :

« أبداً لن أتوقف أبداً طالما كان فى وسعى أن أشرب . أبدا ، إنى أقول لكم إنى أستطيع أن أجفف البحر إذا شئت أن أفعل ذلك » .

وتعالت عاصفةٌ من الضحك لدى هذه العبارة أشد وأعتى من العاصفة

السابقة ، وفجأة وضع إكسانثوس كأسه على المائدة وتراجع إلى الخلف ونظر إلى رفاقه نظرة غاضبة ، ثم سألهم :

« ماذا يضحككم ؟ » .

وكانوا كلهم يضحكون ويعجزون عن الإجابة نظراً لسكرهم الشديد . فتمتم إكسانثوس فى نبرة مخمورة :

« ليس فى هذا ما يضحك ، كلا إنه ليس مضحكا على الإطلاق . إنه الحق وإنى أقول لكم صادقاً إنّ فى وسعى أن أشرب البحر حتى يجف إذا رغبت فى ذلك » .

فقال تلميذ من تلاميذه : « هذا هراء . أنت لا تستطيع صنع ذلك ! »

فضرب إكسانثوس المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة حتى وقعت الكئوس كلها وانكسر بعضها . ثم قال سائلا : « من ذا الذى يقول إننى لا أستطيع ؟ .

فقال الشاب « أنا الذى أقول ذلك ! »

فنظر سائر التلاميذ إليهما نظرة تنبئ عن انشراحهم ؛ إذ لم يحدث من قبل أن رأوا أستاذهم وقد سكر على هذا النحو الرائع .

وأشار إكسانثوس بإصبعه إشارة صارمة نحو الشاب وقال فى غضب :

« أقول لك إنى مستطيع ذلك . أما أنت فلا تستطيع ، لأنك لست إلاَّ غلام،غلام لم تنبت لحيته بعد،غير أننى رجل وأستطيع أن أشرب البحر كله حتى يجف فإذا جف كان فى وسعك أن تسير على قدميك من ساموس إلى إيفيسوس ذهابا و إيابا دون أن يبتل حذاؤك أو حتى طرف رداؤك ».

وقال أحد الشبان الذين كانوا يجلسون إلى جواره وهو يضع يده على كتفه محاولا تهدئته : « ولـكن هذا أكيد يا أستاذ ، هذا أمر أكيد يا أستاذ . . . »

ولـكن إكسانثوس أبعد يده عن كتفه فى حركة تنبئ عن القلق ثم قال غاضبا : « دعنى وحدى أولاً ! إنى أعرف ما أقول أيها الشاب الذى لم تنبت لحيته بعد » .

ثم استطرد فى إلحاح الرجل المخمور ، قائلا : « هذا هو حالك . لست إلاَّ غلاماً لم تنبت لحيته بعد . أنت أيها الغلام الناعم الخدّ ! »

فقال الشاب الأول : « مهما يكن من أمر فإنى مراهنك على عدم استطاعتك شرب البحر » .

فدقّ إكسانثوس المائدة بقبضته ، ثم صاح وقد وقف فى وقار :

« حسن جدا إذن . أنت تراهن أننى لا أستطيع ؛ سأراهن أنا ببيتى وبكل ما فيه أننى سأشرب البحر حتى يجف » .

ثم ساد صمتٌ يُوحى بعدم التصديق . وحاول بعض التلاميذ فى كياسة أن يديروا الحديث فى مواضيع أخرى .

وحاول بعضهم أن يقطع سير الحديث ، إذْ شعروا أن المهزلة ستمضى شوطا بعيدا، بيد أن إكسانثوس كان مخمورا جدا بحيث لا يمكن أن يصغى لصوت العقل ، لو كان فى وسع أحد الحاضرين أن يتكلم كلاما عاقلا . وقال الشاب فى هدوء « سأقبل الرهان » .

وساد صمت مروِّعٌ وقال إكسانثوس « حسن جدا إذن، فقد اتفقنا . وسأذهب بعد غد إلى الشاطئ وسأشرب ماء البحر حتى يجف فإذا تركت نقطة واحدة فسيكون لك بيتى وكل ما فيه » .

وعَلَتْ عاصفة كبيرة من الضحك عند هـذا القول ، وابتسم إكسانثوس مفاخراً كما لو قال شيئا بارعا براعة ملحوظة .

وتمتم فى عناد ، وهو يتقدم من المائدة ليرفع كأسه : « سأفعل » .

وهز إيسوب رأسه فى أسى لهذا العَرْضِ الغبىّ يقوم به سيدُه ، الذى يدعو نفسه فيلسوفا . وصاح إكسانثوس « اعطنى قدرا آخر من الخمر » .

فقال أحدهم « اعطنا دليلا » .

فزأر إكسانثوس « نعم أعطهم كذلك دليلا . خمرة ودليلا ، هذا ما نريده . أعطهم ما يشاءون يا إيسوب » .

فضحك الجميع . وقال التلميذ الذى قبل الرهان « كلا ، كلا ، لتعطنا أنت برهانا ودليلا يؤكد رهانك » .

فقال إكسانثوس ، وقد كانت الخمر قد ذهبت بلبه : « دليلا ؟ ما هو الدليل ؟ »

فقال التلميذ : « دليل على صدق رهانك . شيء ما يثبت أنك قبلت الرهان » .

فهز إكسانثوس رأسه فى صرامة ثم قال « نعم ، نعم ، طبعا ، تريد دليلاً . هذا حق . لِمَ لَمْ تقل ذلك من قبل . يجب أن تظفر بدليل . إنى لألح فى سبيل إعطاء الدليل سواء شئتَ ذلك أم لم تشأ . يا للدليل الطيب العزيز . . ! لنشرب فى صحة الدليل ! » .

ثم انتزع خاتمه من إصبعه وأعطاه للشاب ليحفظه دليلا على صدق رهانه ثم أفرغ فى جوفه ما فى الكأس من خمر وسقط على الأريكة وما لبث أن نام نوما عميقا .

وعندما تلاشت آثار الخمر فى الغــداة ، ولم يبد على إكسانثوس من علاماتها إلا احمرار يسير فى عينيه ، ولم تُخَلِّفْ فى رأسه إلاَّ صداعا شديداً ، فقد أدهشه وروَّعه تَرْوِيعاً عظيماً عندما وجد إصبعه وقد خلا من ذلك الخاتم الذى كان يُعِزُّه إعزازاً بالغاً .

فأرسل فى طلب إيسوب ، فلما أقبل قال له : « لقد فقدت خاتمى يا إيسوب » .

فهز إيسوب رأسه مُسَلِّماً بما قال . ثم قال موافقاً « نعم لقد فقدت خاتمك . وليس هذا بالشىء الوحيد الذى فقدته ، و إنما فقدت معه منزلك وكل شىء فيه ، وخسرت شهرتك أيضاً » .

وكان فى هذا الحديث ما روع إكسانثوس فسأله فى حدّة « ماذا تعنى ؟ فقدت منزلى ؟ وفقدت سمعتى ؟ ولـكن هذا هو منزلى » .

فهز إيسوب كتفيه وهو يجيب : « نعم ذلك هو منزلك ، ولـكنك لن تظل فيه طويلا فبعد غد ستطرد منه ، وسيكون ملـكا لفيثاغورس الشاب . ذلك أنك راهنته على منزلك وعلى كل ما فيه مقابل أن تشرب البحر غداً حتى يجفّ ، وقد أعطيته خاتمك ضماناً لرهانك . أو عرفت إذن أين يوجد خاتمك ؟ الحق كما تقول إنك فقدته » .

وأمسك إكسانثوس بذراع إيسوب قلقاً وخاطبه فى فزع قائلا :

« لم أفعل ذلك يا إيسوب » .

— فهز إيسوب رأسه وهو يجيبه فى ثبات « بل فعلت » .

فسأله الفيلسوف وهو مبهور الأنفاس « أو كان ثمة إنسان حاضراً عندما قلت ذلك ؟ » .

فقال إيسوب « لقد كان جميع تلاميذك حاضرين وقد سمعوا كلهم ذلك . ولـكن ليس لك ثمة مخرج من هذا الموقف . وليس فى وسعك أن تـكذّب هذا . لقد سمعوك جميعاً وهم شهود على الرهان . وأصبحت القصة ذائعة معروفة فى مدينة ساموس كلها . والجميع يتحدثون عنها وهم يتندرون و يضحكون . ذلك أن فيثاغورس تلميذك الشاب الذى قبل الرهان والذى استبقى لديه خاتمك برهاناً على تمسكك بالرهان ، قد انطلق فى المدينة مثرثراً ، وروى هذا الأمر للناس جميعاً » .

وتأمل إكسانثوس فى صمت برهة ، ثم قال « أرانى يا إيسوب أُعانى محنةً عصيبةً للغاية . و إنى أرى أن منزلى وسمعتى فى خطرٍ كما تقول . ذلك أننى إذا لم أذهب غدا إلى المـكان الذى اتفقنا على الاجتماع فيه فسينظر الناس إلىَّ نظرتهم إلى امرىء مخبول . وسيحل بى العار وسأخسر ممتلكاتى . فإذا ذهبت إلى شاطىء البحر لأمضى فى تنفيذ الرهان الذى دفعنى إليه

الزهو الجنوني ، فسينظر الناس إلى كما لو كنت أشدَّ غباءاً ، ولفقدت ممتلكاتي وسمعتي أيضاً ، أفتني فى أمرى يا إيسوب ! »

فهزّ ابسوب كتفيه وهو فاقدُ الأمل . ثم قال « لست أرى حتى اذا ساعدتك أننا سنشرب البحر معا حتى يجف ! »

وعلى الرغم من هول الموقف فقد ابتسم اكسانثوس ، وان كان حزينا ثم أجاب : « لن تساعدنى بهذه الطريقة . أنت تدرى ماذا أعنى يجب أن تفكر فى طريقة لتخليصى . »

وكان إيسوب قد فكر فعلا فى طريقة تُخلِّصه من محنته ، ولكنه شعر أنه إذا رواها لإكسانثوس فى هذه المرحلة ، كان ذلك منه خطأ ، ومن ثم ترك إيسوب سيّده يفكر نادماً فيما جرّته عليه الخمر من وَبالٍ ؛ وفيما دفعته إليه من سكر حَمَلَه على بذل تلك الوعود الحمقاء . وقد رأى إيسوب أن ذلك الدرس سيفيد سيده كثيراً .

وأما إكسانثوس فقد أمضى يوما تعساً فى داره لا يجرؤ على مبارحتها خشية أن يقابل مواطنيه ويصدم باستهزائهم وتحديقهم فيه ، منذ علموا جميعهم برهانه المستحيل الذى قطعه على نفسه . وإنهم ليجدون فى ذلك الرهان باعثاً على تسليتهم ويجدون سرورا عظيما فى شقائه .

فلما أقبل اليوم الذى يتحتم فيه على الفيلسوف أن يفى برهانه ، اجتمع

كل سكان مدينة ساموس على شاطئ البحر ليكونوا شهودا على خيبة الفيلسوف وعاره . ذلك أن الفلاسفة ليسوا محبوبين بصفة عامة ، وأنّ مرآهم ، وهم فى محنة شديدة ، يدخل على النفوس سرورا أكثر من رؤيتهم منتصرين .

ولقد أبدى فيثاغورس الشاب ، ذلك التلميذ الذى صمد للرهان ، فرحه وغبطته ، وباهى بذلك وفاخر جميع أصدقائه . وقال رجلٌ من بين الجمع المحتشد « بل أنه لن يجرؤ على الحضور ؛ ثم هو يدعو نفسه فيلسوفا ! تخيلوا أن يلتزم امرؤ بمثل هذا الرهان ! »

فضحك رفيقه ثم قال : « لا بد أنه كان قد أفرط فى الشراب عندما قال ذلك » .

فقال رجل كان يقف غير بعيد منهما : « ماذا تعنى بقولك إنه قد أفرط فى الشراب ، لقد قيل لى أنه قد عب من الشراب ما جعله ينسى فى الغداة كل ما يمتُّ بصلة إلى هـــذا الأمر . ولقد نام كالخنزير حتى الظهيرة » .

فأجاب رفيقه بقوله « ولـكنه لا بد أن يكون قد شرب البحر ليصل إلى هذه الدرجة من السكر . ! »

وقطعت عليهما الحوار همهمةٌ ما لبثت أن تعالت فأصبحت عجيجا

وصراخاً . وإذا هم يرون إكسانثوس يشق طريقه بين الجموع ، يتلوه إيسوب الأمين ، وقد سار الفيلسوف بخطوات متزنة وفى شجاعة وجرأة ، وقد امتلأ ثقةً ويقيناً ، وراح يتقدم صوب الشاطىء حيث ازدحمت الجماهير المحتشدة . وراح الناس يتغامزون ويمدون أعناقهم لكى يتمكنوا من رؤيته جيدا .

وقال بعضهم وقد كفَّ الناس عن سخريتهم ، وكبحوا دهشتهم : « ما كنت أظنه قادما » . وقال آخر : « أنه ليبدو رجلا جريئا »

وفجأ أحس فيثاغورس الشاب بخالجٍ من عدم الثقة فى كسبه رهانه ؛ ذلك أن مرأى ذلك القزم ، يقفز بجانب سيده إكسانثوس جعله يشكُّ ويتعجب ؛ ذلك أن أحدا لم يتغلب قط على إيسوب ، وها هو ذا إيسوب يسير إلى جانب إكسانثوس .

ومهما يكن من أمر فقد تقدم مستعينا بقدر كافٍ من الشجاعة لمقابلة الفيلسوف ، وحيّاه فى احترام التلميذ لأستاذه ؛ بيد أن الطريقة التى أبدى بها احترامه لم تخل من بعض التظاهر والادعاء ، ثم نظر من فوق كتفه الى الجميع ليتأكد من أنهم يقدّرون الموقف تقديراً كاملاً ثم قال: «أتمنى لك يوما سعيدا يا أستاذى ! »

فابتسم اكسانثوس ابتسامة ودودة ، ثم أجابه قائلا « وليطب يومك

يا تلميذى فيثاغورس . أنت ترى أننى جئت كما اتفقنا لأكسب رهانى ولأسترد خاتمى . وانى لأرجو أن تكون قد احتفظت به وصنته . ذلك أننى أعزه كثيرا »

فمدّ التلميذ يده وقد بدا الخاتم فى اصبع من يده ثم قال « ها هو ذا يا سيدى ولقد اجتمعنا كلنا هنا لكى نراك ، وأنت تحقق دعواك فتشرب البحر حتى يجف ، ومن ثم نسير على أقدامنا دون أن تبتل أحذيتنا الى ايفيسوس ذهابا وجيئة . »

ثم نظر حوله الى الجمع مفاخرا ، ذلك أنه كان بين الناس لفيفٌ أبي أن يصدّق أن اكسانثوس قد راهن على شىء من هذا القبيل . ولا شك أن اعلان ذلك الرهان قد أقنعهم الآن . وسَرَتْ بين الحشد همهمة تَلَتْهَا ضحكاتٌ مكتومة . ذلك أن المتشككين قد اقتنعوا الآن . ومع ذلك فقد أصغوا جميعا متوقعين أن يصغوا لأكثر من ذلك . و بين حين وآخر كانت تمزق الصمت أصوات منطلقة .

ورفع اكسانثوس يده مناشداً القوم الصمت ، ثم خاطب الحشد المجتمع ليصغى لما عسى أن يقول ، وقد راح المتشوفون المحتشدون يدفع بعضهم بعضا .

ثم قال اكسانثوس : « أيها السادة لقد قُلتُ وراهنت اننى مستطيع

أن أشرب البحر حتى يجف ، والحق أننى تراهنت مع السيد الماثل أمامكم أننى معطيه دارى وكل ما فيها ومتنازل له عن ممتلكاتى جميعا اذا أنا تركت قطرة واحدة ؛ وكدليلٍ مؤيد لرهانى تركت معه خاتمى الذى ترونه فى إصبعه . »

وأمسك بمعصم فيثاغورس ورفع يده حتى يرى الحشدُ الخاتم فيها . وراح الجميع يهمهمون فى ترقب وانتظار . واستطرد الفيلسوف قائلا : « أجل ، لقد راهنت على ذلك واذا أنا لم أنفذ رهانى فسأتنازل له عن كل ممتلكاتى . »

وظهرَتْ على وجه التلميذ ابتسامة توشي بالارتياح . ذلك أن اكسانثوس قد اعترف أمام أهل ساموس جميعا برهانه ، مما يؤكد فوزه المحتم بممتلكاته جميعا !

وتعالت همهمات الحشد من جديد . ورفع اكسانثوس يده مناشدا الناس الصمت مرة أخرى . واستطرد قائلا : « غير أننى لم أراهن على شرب مياه الأنهار التى تصبُ فى البحر فضلا عن مياه البحر نفسه . ومن ثم فاطلبوا الى فيثاغورس الذى قبِل الرهان ، أن يُوقِفَ جريان الأنهار حتى تَكُفَّ عن التدفق فى البحر ، ومن ثم فسأشرب به حتى يجف ! »

وتعالَتْ بين الجماهير عاصفةٌ كبيرةٌ من الضحك ، وراحَتْ الجموع

التى كانت قد احتشدت للسخرية من اكسانثوس تنظر ساخرة هازئة بفيثاغورس الشاب .

وتعاظمت دهشة فيثاغورس وأصابه حزن غير قليل . ذلك أنه كان قد انتصر أول الأمر إلاّ أن انتصاره لم يدم طويلا . وقد كان يؤمل أن يتأكد انتصاره أمام أهل ساموس جميعا ، إلاّ أنه رأى نفسه وقد تضاءل أمام أهل ساموس فأصبح مجرد هدف للسخرية ، وقد أصابه خزىٌ شديد.

وسرعان ما سلّم الخاتم إلى إكسانثوس الذى وضعه فى أصبعه ثم سأله الصفح من أجل ما ساوره من الرغبة فى الانتصار على أستاذه ؛ ومن أجل التشجيع الذى أثاره فى نفسه ذلك الادعاء الذى ادّعاه الأستاذ وهو مخمور!

وقد عفا عنه إكسانثوس . ذلك أنه كان فى ميسوره أن يفعل ذلك .

ولقد أبدى الحشدُ الذى تجمّع على الشاطىء ليشهدوا خزى الفيلسوف وورطته والذين أتوا لكى يسخروا منه ويتهكموا عليه ، لقد أبدى هؤلاء جميعا إعجابهم الشديد بالفكرة التى استنبطها إكسانثوس لينقذ نفسه من موقفه الضنك العصيب . ولقد صفقوا كثيرا لإكسانثوس مهللين وصحبوه حتى داره فى موكب المنتصر . غير أنه كان يوجد بين الحشد من خمّنوا من أين جاء ذلك المخرج . وأشار بعضهم إلى العبْدِ المحدودب

الصغير الذى كان يتبعه فى احترام والذى لا يكاد يراه أحد وهو يسير خلف سيده ، ثم قال بعضهم :

« لو أن الحقيقـــة أُعْلِنَتْ ، لوجب علينا أن نصفق له ونهلل ، لما أبدعته قريحته . وإذا كان للعدالة أن توزع على الجميع توزيعاً صحيحاً ، فإذن اسم إكسانثوس ليس هو الذى ينبغى أن تلهج به شفاه الناس جميعا وإنما هو اسم إيسوب الفريچى ! »

* * *

الفصل التاسع

ولقد طالب إيسوب إكسانثوس أن يكافئه على تخليصه إياه من هذه المحنة العصيبة التى عرضت ثروته وسمعته للضياع ، بأن يهبه حريته .

ولكن إكسانثوس لم يَعُدْ يخاف شيئا بعد أن زال عنه الخطر ، وقد تحقق أكثر من ذلك أن إيسوب أصبح شيئا مهما فى حياته ، وأدرك أنه إذا حرّره فستكون تلك خسارة خطيرة تصيبه .

فأجابه إكسانثوس فى تشامخ قائلا إن الوقت لم يحن بعد لكى يصبح حُرّا !

وناقشه إيسوب فى ذلك ؛ فقال إكسانثوس آخر الأمر :

« حسن جدا . إذا كانت الآلهة ترغب فى تحريرك فلترسل إذن علامة تُنبئ بوجوب تحريرك ، ومن ثم سأجعلك حرا . أما إذا لم تفعل ، فوَطِّنْ نفسك على أن تظل عبدا . وعلى ذلك فلتتنبه عندما تخرج من الدار ، فإذا رأيت وأنت فى الخارج بشيراً بالخير فأنت حُرٌّ . مثال ذلك أنك إذا رأيت غرابين أسودين ، فأنت إذن حر لأن منظرهما أمارة بالحظ

السعيد . وأما إذا رأيت غرابا واحداً ، فستظل عبدا ؛ لأن ذلك نذير بالحظ السيء ! »

ولم يصدق إيسوب تلك العلامات والشارات والرموز . ذلك أن جماعة من الطير ، أو حركة شيء صغير لا صلة له البتة بعتق بشر ، ومن ثم فلا أثر له البتة في الحوادث التالية ، ولا يعتبر دليلا أو إشارة لما عسى أن يحدث في المستقبل ! ومع ذلك فقد كان هذا الاعتقاد سائدا في ذلك الزمان !

كذلك كان هنالك الكهنة في دلفي كما كان كهنة جوبيتر في دودونيس وكهنة أبولو في ديلوس ، وكهنة إسكولابيوس في أبيدوروس .

وكان الناس جميعا يتوجهون إلى هؤلاء الكهنة يستنصحونهم ، حتى الملوك والقضاة كانوا يفعلون ذلك قبل مباشرتهم أية مهام ذات بال .

وكانت في دلفي راهبة تدعى بثيونيس أو سيبيل تتحدث باسم الآلهة ؛ وكانت إجاباتها مرجعا هاما ، بعد أن يتولى القسس تفسيرها وشرحها . وكانت سيبيل تستعين على القاء بيانها الكهنوتي ، بالصوم ثلاثة أيام ، ثم بمضغ ورق الغار ، الذي كان يحملها عصيره إلى غيبوبة كاملة . فإذا ما انتهت إلى هذه الحال ، اعتلت كرسياً ذا ثلاث أرجل ، موضوعاً فوق فتحة من الأرض في مغارة ، تصدر عنها أدخنة بركانية . وكان جسد سيبيل

يهتز كما لو كان قد أصيب بقشعريرة ، وكان شعرها يقِفُّ ، وكان الزبد يُغَطِى فمها ، وقد تشنج جسدها ثم راحت تجيب على ما يوجه لها من أسئلة ، مستعينةً بحركات فى الملامح وتشنجات فى الوجه قيل إن الكهنة أنفسهم هم الذين كانوا يستطيعون فهمها وكانوا يتولون تفسيرها نظير أجرٍ مناسبٍ ؛ ذلك أن الكهنة كانوا على الدوام مستعدين لصنع الكثير من العجائب الغريبة إذا دفع لهم الثمن !

وكان يوجد العَرَّافُون إلى جانب هؤلاء الرسل . كذلك كان يوجد الكهنة المختصون بقراءة الرموز والشارات المستخرجة من تحليق الطيور ، ومن تغريدها ومن طريقة أكل بعض الدواجن المقدسة ، أو من أحشاء الحيوانات المذبوحة على سبيل الضحية . وكانت هذه الحيوانات والدواجن المذبوحة تمدُّ الكاهن بمبالغ طائلة من المال ، كانت تعطيه ربحا طيبا بعد خصم ثمن الأعلاف والحبوب التى أكلتها تلك الدواجن والحيوانات . ولا شك أنه كان يوجد فى أمعاء تلك الحيوانات والدواجن آخر وصية مكتوبة تنصُّ على أن جميع ممتلكات هؤلاء الأشخاص يجب أن تقدم للكهنة ، ذلك أنه لم يكن لهم أقارب آخرون .

ولقد كان إكسانثوس متأثراً بهذه المعتقدات عندما طلب إلى إيسوب ن يراقب تحركات الغربان فى طيرانها .

ومن ثم انطلق إيسوب من حضره سيده وتوجه إلى الخارج ، شاخصاً ببصره صوب بقعة تغطيها الأدواح العالية ؛ ورأى غرابين قد استقرا فوق أعلى شجرة بحيث يستطيعان مشاهدة المنظر كاملا من موضعهما .

فجرى مسرعا لينبئ سيده بما رأى ، ولـكن إكسانثوس صرّح أنه يرغب فى أن يرى بنفسه إذا ما كانت رواية إيسوب صادقة ؛ ولـكن حدث فى أثناء ذلك أن طار أحد الغرابين ، فلمّا وصل إكسانثوس لم يَرَ سوى غراب واحدٍ قابع فوق رأس الشجرة .

فقال إكسانثوس غاضباً : « أو ستظل تـكذب على دائما ؟ » وأمر بجلد إيسوب .

ونفذ الأمر . و بينما كان إيسوب يتحمل أذى الجلد ، إذا بعبد قادم من صديق لسيده يدعوه إلى حفل عظيم . فقبل إكسانثوس الدعوة ، ووعد بأن يحضر فى الوقت المحدد .

فصاح إيسوب : « وا أسفاه ، أن هذه العلامات والدلائل خداعة جدا . فهأنذا أجلد مع أنى شاهدت غرابين ، ومرآهما يعد عادةً فألاً حسناً ، ولـكن سيدى الذى لم يرَ سوى غراب واحد — وهو ما يعتبر فألا سيئا — يُدْعَى اليوم إلى حفل زفاف » .

ولقد سُرَّ إكسانثوس بهذه الملاحظة حتى أمر بالـكف عن جلد

إيسوب و بإطلاق سراحه . وأما عن تحريره وعتقه ، فإنه لم يستطيع أن يحزم أمره لتخويله ذلك الحق ، وإن كان قد وعده بتحقيق مطابه ذلك فى عدة مناسبات .

وكان إكسانثوس يستمتع بزيارة المواضع القريبة منه فى جزيرة ساموس ، وكان يزور الآثار والدمن القديمة و يدرسها . وما أكثر تلك الآثار المختلفة فى جزيرة ساموس .

وفى ذات يوم ، انطلق إكسانثوس وإيسوب يتجولان بين بعض الإطلال التى توجد عند الطرف النائى للجزيرة ، حيث كانت تقوم المدينة قديماً ، قبل أن يعاد بناؤها فى موضعها الحالى ، وكان إكسانثوس يدرس فى اغتباط وسرور النقوش الظاهرة على الأحجار والجدران .

ولقد وجد نقشاً بدا له كأنما نقش حديثا ، وإن كان الجدار الذى نقش عليه ممعناً فى القدم . وعلى الرغم من وقوفه متأملاً ومفكرا فيه وقتا طويلا محاولاً تفهمه ، فإنه عجز عن ذلك . ولقد بدا ذلك النقش كمجموعة من الألفاظ المحشودة دون نظام أو دون معنى ، ومع ذلك فإن العناية التى بذلت فى نقش الحروف فى الصخر ، كانت تدلُّ على أنها من عمل فنَّان صَنَاع ، لا شك أنه لم يضع وقته فى عمل سخيف لا معنى له . ومع ذلك فقد تحيَّر وهو ينظر إلى ذلك النقش ، إلا أنه لم يخرج منه بطائل :

فنادى على إيسوب واعترف له صادقاً بأنّ هذا الأمر فوق ادراكه . ثم قال فى صراحة : « فى وسعى ادراك أن هذه الكلمات لا تنطوى على أية دلالة . »

ونظر ايسوب الى العبارة المنقوشة ، فقرأ فيها الكلمات التالية :

« الكنز الرفيق ديتس بمن هو ملك بحثاً كان هو للوراء أقسم الذهب خطوات تكون مختبئة أربع أنت هذا أرجع . »

وبعد أن فحص ايسوب هذه العبارة وتأملها دقائق معدودات ، نظر الى اكسانثوس ثم قال : « اذا ما استطعت أن أجعلك تهتدى الى كنز عظيم اعتمادا على مضمون هذه العبارة المنقوشة فماذا تكون مكافأتى عندك ؟ » .

وفكّر إكسانثوس برهةً ثم قال : « سأهبك حريتك ونصف ما يحتوى عليه الكنز » .

فسأله إيسوب متلهفاً « أو قلت إنك مانحى حريتى كذلك ؟ » .

فهز اكسانثوس رأسه مُؤمِّناً ثم قال : « نعم وإنى مانحك حتى حريتك » .

وتحرك إيصوب متجهاً صوب بقعة من الأرض أشار إليها وقال « هذا هو المكان الذى خبئ فيه الكنز » .

وانطلقا يحفـران فى ذلك الموضع ، وسرعان ما اصطدمت فأس إكسانثوس بشىء جامد فأخرجا من الأرض صندوقاً كان مخبئاً فى ذلك الموضع فلما فتحاه وجدا فيه كنزاً مطموراً كما قال إيسوب من قبل .

فسأله إكسانثوس : ولـكن قل لى كيف فهمت من تلك العبارة المنقوشة أن كنزاً مخبأ فى هذا المـكان ؟ » .

فأجاب إيسوب قائلا : « ذلك أن العبارة المنقوشة كانت تشتمل على الجملة التالية : « إرجع أربع خطوات للوراء بحثاً عن الـكنز » وهى عبارة واضحة لمن يستطيع استخلاص المعنى من بين هـذا الحشد من الألفاظ . والآن ، لتعطنى نصف الـكنز ولتهبنى معه حريتى كما وعدت . ثم لتدعنى أذهب فى حال سبيلى ! »

ولـكن إكسانثوس هز رأسه وأجاب : « ليس الأمر كذلك . إن الآلهة تأبى أن أهبك حريتك قبل أن تشرح لى كيف تمـكنت من حل اللغز الذى تتضمنه هذه العبارات المحتشدة دون معنى ، وهو ذلك الذى أعاننا على الإهتداء إلى ما وجدنا . وفضلاً عن ذلك فإن هذا العلم فى حد ذاته كنز لا يقدر بمال . وهو إذا قورن بما عثرنا عليه صغر وضؤل كثيراً هذا الأخير فمثل هذا العلم أعظم وأقيم من الذهب » .

وانطلق إيسوب شارحاً « لقد نُحِتَتْ هذه الألفاظ بحيثُ إذا قرأتها

من نهاية الجملة حتى أولها ، بادئاً بآخر كلمة ثم آخذا كل كلمة ثالثة ومهملاً الكلمتين التاليتين فسترى فى النهاية أنه قد تكونت لديك الجملة التالية « ارجع أربع خطوات للوراء بحثاً عن الكنز » .

ولقد تأثر إكسانثوس تأثراً عميقاً . ثم قال « مادمت هكذا عظيم البراعة ، فإنى أكون مجنوناً إذا أنا فرّطت فيك ووهبتك حريتك ، فلا تنتظر إذن منى أن أفكر فى شىء من هذا مطلقاً » .

وقد غضب إيسوب إذْ حنثَ إكسانثوس بكلمته على هذا النحو ثم قال « أمّا أنا فسأشكوك إلى الملك دينس الذى يملك هذا الكنز ، وفى هذه العبارة نفسها كلمات تؤلف جملة أخرى تشير الى ذلك ! » .

ولقد تأثر الفيلسوف بذلك التهديد وأمر ايسوب بأخذ نصيبه من الكنز على ألا يقول شيئاً عنه لأحد ، وأنه معتزم أن يهبه حريته بمجرد عودتهما إلى الدار .

وهكذا أخـذ إيسوب نصف الكنز قائلا أنه ليس مديناً لسيده فى الحصول عليه ، ومن ثم فهو لا يشكره من أجله . وقال : « ذلك أنك ما كنت لتهتدى لهذا الكنز بدونى ، غير أن هذه الكلمات تتضمن معنى ثالثاً وهو ، « ستقتسم ذلك الكنز مع رفيقك » .

فما إن بلغا دارهما حتى سأل ايسوب سيده أن يبادر فيعلن على الملأ أنه قد حرره وعتقه .

غير أن اكسانثوس لم يقتصر على رفض هذا الطلب ، وانما استرد كذلك نصف الكنز الذى كان قد أعطاه إياه ، فأمر بإلقاء القبض عليه وتكبيله بالقيود الحديدية ، كما أمر بزجه فى زنزانة خوفاً من أن ينطلق فيذيع قصة مغامرتهما على النحو الذى هدّده به .

فصاح ايسوب « واأسفاه ، أو هكذا يحقق الفلاسفة وعودهم ويحفظون عهودهم ! ولكن لتفعل ما تشاء فإنك مضطر الى اطلاق سراحى بالرغم من كل هذا » .

وقد تحققت نبوءة ايسوب ، ذلك أنه وقعت أعجوبة هائلة فى ساموس أزعجت أهلها وألقت بهم فى مشاحنات عصبية .

فقد حدث ذات يوم ، بينما كان المواطنون كلهم مجتمعين فى ساحة السوق أثناء انعقاد المحكمة برياسة كبير القضاء ، أن انقضّ نسرٌ من كبد السماء فاختطف خاتم الدولة من فوق المائدة التى كان يجلس إليها كبير القضاء يحيط به معاونوه ، كما كانت العادة المتبعة أثناء المحاكمات العلنية . وكان هذا الخاتم من الذهب ، وكان قانون ساموس يقضى بأن تُمهرَ به كل

الوثائق والعقود الرسمية حتى تعتبر صحيحة وكان يوضع على الدوام فوق المائدة أمام كبير القضاء دلالةً على سلطانه .

ولقد رُوِّعَ النسرُ من صيحات كبير القضاء ومعاونيه ، ومن سائر الجمع المحتشد حتى لقد أفلتَ الخاتم من بين مخالبه ، وسقط واستقر فى جلباب رجل واقف فى الزحام . فلما تقدم الرجل ليسلِّم الخاتم إلى كبير القضاء ومعاونيه الذين كانوا لايزالون يصيحون يأساً وفزعاً ، اكتشفوا أن ذلك الرجل كان عبداً . ولقد كان ذلك موحياً بوقوع حوادث خطيرة ، وإذا كان أحد لم يستطع معرفة مدلول هذه الواقعة ، إلاَّ أن الجميع اتفقوا على أنها لا بد وأن تكون نذير سوء .

وقال بعضهم بوجوب تحرير العبد حتى يمكن تفادى ذلك الطالع إذا كان سيئاً ، وحبَّذا آخرون أن يحكم بإعدامه ، حتى يزول أثر النبوءة إذا كانت حقاً سيئةً . وقال آخرون بالكفِّ عن صنع أى شىء إطلاقاً ، وأن مثل هذه الحوادث المرتقبة ينبغى توقعها فى هدوء ورباطة جأش . وقد قالوا إنه مهما يكن الأمر الذى توحى به هذه الحادثة فإن شيئاً ما لا يمكن صنعه لتغير مجراه فيما بعد . ولو كان الرجل قد تحرر قبل الحادث لكان المعنى مختلفاً بل لعله كان أكثر توفيقاً . ولكن الإقبال على تحرير الرجل الآن أو حتى الإقدام على قتله ، لن يغير من الأمر شيئاً . ومن ثم فقد حبذوا الانتظار .

ومع ذلك فقد كان هناك آخرون قالوا بأن الكف عن صنع أى شىء يعتبر خطأ فى حد ذاته وإنْ لم يستطيعوا الاتفاق على ما ينبغى أو لا ينبغى صنعه .

وقد اتضح من هذا كله أن رأى أهالى جزيرة ساموس بشأن هذا الحادث الغريب ، كان أبعد كثيراً من أن يكون واحداً .

ونشب خلاف كبير ، فقال بعض الناس بشىء ، وقال بعضهم بشىء آخر ، وكانوا كلهم يتحدثون ويصيحون وليس بينهم من سميع ، وانتهى الأمر بكبير القضاء أن اضطر إلى مطالبة أعوانه بتهدئة الجمع . واتفقوا جميعاً على أنه مهما كان المعنى الذى تشير إليه هذه الحادثة الغريبة ، فلا شك فى أنها شىء خطير جداً ، يشير إلى حادث جَلَل ذى أثر فى حياة المدينة وإن كان لا يستطيع أحد أن يتنبأ . أيكون أمراً طيباً أم سيئاً ، أو لا هذا ولا ذاك !

وبعث كبير القضاء فى طلب اكسانثوس ، ليس فقط بوصفه أحد الرجال البارزين فى الجمهورية ، وانما كذلك بوصفه فيلسوفاً حتى يستطيع تفسير معنى هذا الشىء الغريب .

فلما وصل اكسانثوس الى ساحة السوق شرح له كبير القضاة

ما حدث ، كما تولى الشرح أناس آخرون ، على الرغم من كافة الجهود التى بذلها معاونو كبير القضاة فى كفِّهم عن ذلك .

٤ ومرة أخرى تعالت ضجة كبيرة فى ساحة السوق . وأصغى إكسانثوس إلى وجهات النظر الكثيرة التى أبداها أولئك الذين رأوا ذلك الحدَث ، كما أصغى إلى كثير من أولئك الذين أقتصروا على السماع عنه بعد ذلك . ثم فحص الخاتم ؛ والمائدة ، ودعا إليه العبد الذى سقط الخاتم فى جلبابه ، وإن كان لم ينته إلى أية نتيجة . وأخيراً تكلم فقال :

« لا شك فى أن ذلك الأمر ينبىء بتغيير عظيم فى حياة مدينتنا . ولكنى لست حُرّاً فى أن أكشف فى الوقت الحاضر عن حقيقة ذلك التغيير . فالنسر هو رمز الآله جوبيتر ، وجوبيتر هو كبير الآلهة . فليس من اللائق أن نتعجل فى تفسير هذه الحادثة فلا نستأنى فى درسها وتأملها ؛ ولقد أغلقت شفتاى على سرِّ هذه الحادثة . ولما كان عدد حروف اسم الإلـه جوبيتر سبعة فإنى معتزم فى اليوم السابع تفسير سر هذا الأمر هنا فى ساحة السوق حتى يسمعه الكافة ، ذلك أننى إذا حاولت صنع ذلك قبل هذه الأيام السبعة ؛ فسيكون ذلك منى تجديفاً يستدعى انتقام الآلهة ، ليس فقط منى وإنما كذلك من جميع سكان جزيرة ساموس . »

ويرى من ذلك أن إكسانثوس ، وإنْ لم يكن بالفعل فيلسوفا ، إلاّ أن لديه بعض العلم بذلك الفن الغامض .

ولقد تأثر الجمع بذلك الخطاب المكوّن من ألفاظ كثيرة طويلة وإشارات عديدة إلى جوبيتر ، أقنعت الناس ، وإنْ عجزوا عن فهمها .

واستطرد إكسانثوس قائلا :

« ولذلك ينبغى حِفْظُ خاتم الدولة بعناية فى موضع آمن . على ألا يستخدم مرة أخرى إلاَّ بعد أن أكون قد فَسَّرْتُ حادث يومنا هذا . وليعامل العبد فى الوقت نفسه بعناية بالغة ، حتى لا يلحق به أذى وحتى لا يصبح عاجزاً عن تأدية شهادته إذا احتيج إليها أثناء اعداد البيان المنتظر »

ولقد ثارت عواطف أهل ساموس ثورة شديدة . ذلك أن حجز خاتم الدولة ووقف العمل به سبعة أيام يعنى أن السبعة أيام التالية ستكون عطلة عامة ، وهو حَدَثٌ لا يمكن أن يجلب السرور لكثير منهم .

ومن ثم تَفَرَّقَ الناس ، غير راضين عن الحكم الذى نطق به إكسانثوس ، بيد أنهم على الرغم من ذلك كانوا شديدى الاهتمام وبالغى التأثر بذلك الحادث العجيب ، وإن كانوا أعجز من أن يقرروا ما إذا كان الحادث سيعقب لهم شراً أو خيراً .

والذى لا جدال فيه أن شيئاً بالغ الاهمية يوشك أن يقع !

وما كان فى وسع أحد أن يتنبأ بذلك الأمر ، وأما فيما يتصل بإكسانثوس الذى أعلن فى بيانه أنه الرجل الوحيد الذى يستطيع تفسير ذلك الأمر فإن شفتيه قد أطبقتا جرياً على العادة غير المنتظرة التى وصفها والتى توجب عليه بأن يلزم الصمت سبعة أيام .

ومهما يكن من شىء فقد كان بين الجمع طائفة من المتشككين . وقال رجل من هؤلاء : «لقد فقدت كثيراً من ثقتى فيه وفى فلسفته المزعومة، منذ أدّعى هذا السكير أنه سيشرب ماء البحر حتى يجف . »

فأجاب شخص آخر : «ولكنه استطاع أن ينجو من محنته بشرفه.»

فهزّ الرجل الأول رأسه موافقاً ثم أجاب « لقد نجى منها محتفظاً بشرفه ، ولكن لمن احتفظ بذلك الشرف ؟ هل الذى احتفظ بشرفه هو ذلك المفاخر السكّير الغبىّ ، أو ذلك الذى أعدّ له الاجابة » .

فهزّ الرجل كتفيه وأجاب قائلا » هذا هو ما أعنيه تماما . إنه ليبدولى أن اجابته لم تكن من بنات أفكاره ، وانما كانت من صنيع عبده الفريجى إيسوب . ومادمنا نتحدث عن إيسوب فإنه لجدير بالإشارة إلى أن أحداً لم يره فى الأيام الأخيرة . فهو لا يظهر أبداً هذه الأيام فى ساحة السوق كما كان يفعل من قبل عند ما كان لا يمر يوم واحد دون أن يأتى فيه إلى متجرى . »

فتساءل الآخر « أو تظن أن إيسوب .... ؟ »

فأجاب صاحبه « أحسب أن إيسوب كان مستطيعاً أن يجيب اليوم اجابة أخرى لو أنه استشير . إصغ إلىّ ؛ ان ذلك الأحدب الصغير فى طرف إصبعه الصغيرة من الفلسفة أكثر مما لدى اكسانثوس وتلاميذه العقلاء منهم والسكيرين إذا ما اجتمعوا كلهم وكان بعضهم لبعض ظهيراً . »

* * *

الفصل العاشر

وما إن عاد إكسانثوس من ساحة السوق ، حتى قصد فورا إلى الزنزانة ، ليستشير إيسوب التعس ، الذى لا يزال رهن قيـــوده يعانى الضعف والوهن وآلام الأسر .

ذلك أن إكسانثوس — وإن كان يدعو نفسه بالفيلسوف ، وعلى الرغم من كلماته الطويلة ، وعباراته الرنانة — لم تـكن لديه أية فـكرة على الاطلاق عن مدلول تلك الظاهرة العجيبة التى استدعى لتفسيرها و بيانها ، كما لم يكن فى مقدوره ، مهما حاول ، أن يُعِدَّ تفسيراً وأيضاحا لمغزى تلك الظاهرة ، من شأنه إقناع أهل ساموس . ومع ذلك ، فما كان من الميسور إطلاقا إقناع القوم فى سهولة و يسر بأنه لا أهمية أبدا لتلك الظاهرة العجيبة .

كما أن أهل ساموس ما كانوا ليقنعوا ببيانات غامضة ذات طابع غير مقنع ، كلا ، وما كانوا ليرضوا بصفة خاصة عن أى اقتراح يهدف إلى مطالبتهم بزيادة تضحياتهم للآلهة ، أو بمضاعفة القرابين التى يقدمونها للمعابد ، أو حتى بزيادة رواتب الفلاسفة ، أو برفع راتب كبير القضاة نفسه

هذا هو السبب الذى جعله يطلب مهلة سبعة أيام لعله يستطيع خلالها إعداد رده . ولقد رأى أن رده يجب أن يصاغ على النحو الذى يرضى أهل ساموس ، ومن ثم يكون قد أحسن الاستفادة من فترة التأمل الطويلة هذه .

وسرد إكسانثوس على ايسوب ما حدث ، وسأله تفسير معنى هذه الظاهرة الغامضة .

فقال ايسوب : « وكيف ينبغى لى أن أعرف ؟ انى لا أكاد أرى ضوء النهار فى هذه الزنزانة ، فكيف يتسنى لى الوقوف على المعنى الخفى لما ترسله الآلهة من أمارات ورموز وظواهر غامضة ؟ »

ومن ثم أمر اكسانثوس بفك قيوده واخراجه من زنزانته ، بل وردّ اليه نصف الكنز الذى كان قد اغتصبه منه . وأما عن منحه حريته ، فقد قال انه سينظر فى ذلك ، وانْ أصرَّ على القول بأن الوقت لم يحن بعد لتحقيق ذلك المطلب ، فلقد أدرك أهمية وجود ايسوب الى جواره ، ليس فقط بما يقدّمه اليه من عون فى الكثير من الأمور ، وانما كذلك بما يعزز به شهرته ويدعم اسمه وصيته بوصفه فيلسوفا ، اذْ لا شك على الاطلاق فى أنه اذا رغب رجل فى الاشتهار كفيلسوف ، فلا مناص له من أن يكون بالفعل فيلسوفا ، أو أن يستبيح لنفسه آراء أحد الفلاسفة وأفكاره.

وهكذا أطلق سراح إيسوب وغادر سجنه ، وكان إكسانثوس قد أخبره أنه لا بد من مضى سبعة أيام قبل أن يطلب إليه الافضاء برده ، فيما يتصل بتلك الظاهرة الغامضة : ظاهرة النسر والخاتم ، وقال إيسوب إنه لا بدّ له من التأمل والتفكير وتقليب وجهات النظر ، والتجول فى المدينة سعياً وراء الأنباء والمعلومات ، حتى يتسنى له تفسير الظاهرة تفسيراً صحيحاً ، فلا يحيق العار بسيّده نتيجةً لإمداده بردٍّ خاطىءٍ مبتسر .

وراح إيسوب يتجول فى المدينة كما كان أمره فيما مضى ، وأستقى المعلومات من أناس كثيرين ، وأدار المناقشات مع قوم عديدين . وكان ذلك أمراً ميسوراً مذّللا ، نظراً للعطلة العامة التى أُعلِنَتْ فى المدينة .

ولم يقف الأمر به عند حد جمع المعلومات ، وإنما انطلق هو بدوره ينشرها ويروّجها . ولقد ألفى بين أولئك الناس الذين احتشدوا فى الزحام — بمناسبة ذلك الرهان السفيه الذى التزم به الفيلسوف ، وكذلك عند ماطلب إكسانثوس مهلة سبعة أيام قبل شرح هذه الظاهرة — ألفى إيسوب من هؤلاء أولئك من أصغوا إليه متلهفين متشوفين ، ذلك أنهم كانوا يثقون فى حكمته .

وما كانوا قِلّةً أولئك الذين عرفوا النبع الصحيح الذى يستمد منه إكسانثوس حكمته . ولقد تكلم إيسوب مع هؤلاء الرجال فأطال الحديث ،

ولقد أحاطهم عِلْماً بالوعود الكثيرة التى قطعها إكسانثوس على نفسه بأن يعتقه ويحرره ، وكيف أنه لم يَفِ بعهوده وأيمانه ، بل نَكَصَ على عقبيه فى كل مرة ناكثاً بوعده ، حتى بعد أن أستطاع هو (ايسوب) إنقاذ ممتلكاته وسمعته ، على أثر رهانه وهو مخمور ، وحتى بعد أن عثر له على كنز وأقسم له أن يعتقه ويحرره .

ولقد امتلأ هؤلاء القوم سخطاً على إكسانثوس ، ووعدوا بتأييد ايسوب ، إذا استطاع أن يخطب فى ساحة السوق .

وازداد إيسوب معرفة بكثيرٍ من الأمور الأخرى ، بالإضافة إلى ما يعرفه عن جزيرة ساسوس ، فاتسعت معلوماته عن جزيرتى إيفيسوس وسارديس ، وعلم الكثير عن بلاد اليابسة الأصلية ، حتى ميزيا وليديا وسايرا وإيونا . وراح يستطلع شئون شعوبها وملوكها وحكامها .

وتجاذب أطراف الحديث مع البحّارة الذى حملتهم سفنهم الى ميناء ساموس ، ووعى منهم الكثير عن أفعال الناس وأقوالهم حتى مدينة أثينا ، والى أبعد جزيرة فى أعماق البحر .

ولما دنا اليوم الذى تعهّد فيه اكسانثوس بتفسير تلك الظاهرة لمواطنيه ، ضغط على ايسوب كيما يُفضى اليه بتفسير و بيان يجلو حقيقتها ، بيد أن إيسوب قال إن الوقت لم يحن بعد ، و إنه لا يزال ينتظر علامات

ودلائل أخرى ترشده وتهديه فى أمره ؛ ذلك أن إيسوب قد تحقق من أن مصير ساموس غير خاضع على الإطلاق لطيران الطيور ، سواء أكانت نسوراً أم غرباناً ، وإنما هو خاضع للظروف التى نشأت فيها الجزيرة ، ولنوع حكومتها ، كما يتأثر ذلك المصير بأحوال العالم الخارجى .

وأخيراً حلّ اليوم الذى وعد اكسانثوس بأن يلقى فيه بيانه ، وقد راح القوم يحتشدون فى ساحة السوق ، ويملأون المواضع التى يستطيعون منها سماع البيان المنتظر فى سهولة ويسر .

وضغط إكسانثوس مرة أخرى على إيسوب لكى يحيطه علماً بتفسيره وبيانه . ولكن إيسوب لم يلبث أن قال :

« إن هذه المسألة من الأهمية والخطورة بحيث يبدو لى أنه من صالحك أن تدعنى أنا ألقى على الملأ شرحها وتفسيرها من دونك . فإذا أتبعنا هذه الخطة ، وكان البيان طيّباً وافياً ، فسيعود الشرف والفخار إليك أنت بوصفك سيدى . أما إذا جاء البيان خاطئاً وغير مُرْضٍ ، أو اذا لم يجد حتى من الناس ترحيباً ، فسيقع اللوم كل اللوم على كاهلى وحدى ، لكونى تكلمت دون تفويض أو تصريح .

ومن ثم فأرجو أن تتيح لى اعتلاء المنبر ، ومخاطبة المواطنين ، وتفسير هذه الظاهرة العجيبة لهم » .

ووافق اكسانثوس على ذلك ، وقصدا معاً الى ساحة السوق ، حيث احتشد جميع المواطنين ليصغوا الى البيان الموعود .

واعتلى إيسوب المنبر . وما إن رآه الجمع ، حتى عَلَتْ من كل جانب عاصفة هائلة من الضحك ، لدى مرأى ذلك الرجل الضئيل العجيب المشوه الزرى الخلقة .

وصاح أحدهم قائلا : « كان ينبغى أن تكون موجودا فى الأسبوع المنصرم قبل أن يخطف النسر خاتمنا ، فلربما أَخَافَتْ هيئتك الطائر ، وولى الإدبار قبل أن يستطيع إلحاق أى أذى .

وقال آخر : « لعل الفيلسوف إكسانثوس يود أن يخيفنا ، ومن ثم لا يجد نفسه بحاجة إلى أى بيان » .

وسأل ثالث : « ولكن لِمَ يتولى نِصْفُ رجلٍ الإجابة عن موقف نسر كامل ؟ »

غير أنه كان يوجد بين الحشد أناس كثيرون ما إنْ رأوا إيسوب حتى قالوا أنهم يرغبون فى أن يسمعوه من دون غيره عاجلا ، ذلك أنهم أيقنوا أن ذلك الجسد المشوه الضئيل إنما ينطوى على قدر عظيم من الحكمة .

وخاطب إيسوب الجمع قائلا : « أصيخوا إلىّ وانصتوا يا أهل ساموس فلا ينبغى للناس أن يحكموا على القنانى بروائها وجمالها ، وإنما بنوع الخمر

الذى تشمل عليه . وربما حوَتْ قنينة متواضعة غير مصقولة نوعاً نادراً من الشراب ، بينما لا نجد غير الخلِّ فى إناء جميل . ومن ذا الذى يستطيع الحكم قبل أن يُصَبَّ الشراب ويذاق ؟ »

وتلاشَتْ ضحكات القوم واختفت من شفاههم ، وألقوا آذانهم متلهفين ، وكان هنالك كثيرون انطلقوا يَصِيحُون مشجعين إيسوب على الكلام ، دون وَجَلٍ ، عن حُكمِهِ فى عجيبةِ النسر وخاتم الدولة .

بيد أن إيسوب الذى أثار لهفتهم وتشوفهم على هذه الصورة ، لم يلبث أن صرّح بأنه لا يجرؤ على ذلك ثم قال : « حدث ذات مرة أن أجْرَتْ إلهَةُ الحظْ مباراةً فى الحكمة بين سيد وعبده . فلو أن كلام العبد كان أسوأ من كلام سيده ، فهو حقيق بأن يضرب . أما إذا كان كلامه أفضل من كلام سيده ، فهو جدير كذلك بأن يُضْرَب . ولما كنت عبداً فأنا لا أجد فى نفسى الجرأة على الكلام » !

وتعالت على الأثر عاصفةٌ شديدة من الهتاف ، تولى قيادتها أولئك الذين شرح لهم إيسوب حقيقةَ الأمر ، ووعدوه بشد أزره وتأييده ، وطالب جميع الموجودين إكسانثوس بأن يعتق إيسوب ويحرره .

ورفض إكسانثوس ذلك المطلب برهة طويلة ، حتى أضحى صياح الناس شديداً ومنذراً بِشَرٍ مستطير ، فما كان من كبير القضاة نَفْسِهِ إلا

أن طلب من اكسانثوس أن يعتقه فإن أبى ، فلن يسعه هو ، بوصفه كبير القضاة ، إلا أن يفعل ذلك ، بما له من سلطان قضائى نافذ . واضطر إكسانثوس تحت وطأة هذا النذير إلى أن يعتلى المنبر إلى جانب إيسوب ، وهنا لك ، وعلى مرأى من الجمع المحتشد قاطبة ، مدَّ نحوه يديه جميعا ، دليلا على تحريره ، وعلى أن إيسوب لم يعد من بعد ذلك عبداً .

ولم يكد يحدث ذلك ، حتى ألتفت إيسوب مواجِهاً الجمع وهو يقول : «يا أهل ساموس ، إنّ هذه العجيبة التى وقعت عند ما اختطف النسرُ خاتم الدولة ، ثم عاد فألقاهُ فى ثنايا ثياب عَبْدٍ ، إنما تعنى أنَ مَلِكاً قوياً سيعمل بنفس الطريقة على حرمانكم من حريتكم واستعبادكم والسيطرة على جزيرة ساموس ، وجعل أهلها تابعين لمملكته . فالنسر هو الملك ، وخاتم الدولة يصور حرية مدينة ساموس وأهلها ، تلك الحرية التى سوف يحاول الملك أن يسلبكم إياها . وكما استحوذ الخوف على النسر لدى صياح كبير القضاة وجمهور المحتشدين ، مما دفعه الى القاء الخاتم ، كذلك سيعجز ذلك الملك القوى عن استلاب حرّية أهل ساموس اذا جاهد الأهلون وناضلوا وقاوموا عدوانه . وكما سقط الخاتم فى ثياب عَبْدٍ قبل اعادته الى موضعه الصحيح بين يدى كبير القضاة ، فكذلك ستتعرض حرية مدينة ساموس للخطر فترة قصيرة من الزمن ، ثم تستقر تلك الحرية وتصان .»

* * *

وعلى أثر ذلك أوفد كروسوس ، ملك ليديا ، الرسل الى جزيرة ساموس . ولما انتهى الرسل الى المدينة خاطبوا أهلها قائلين :

« يا أهل ساموس ! لقد أوفدنا الملك العظيم كروسوس ، ملك ليديا وفريجيا ، وسليسيا وأيونيا ، وممتلكاته أعظم من ممتلكات أى ملك من ملوك هذه الدنيا ، وانه ليتناول طعامَهُ فى صحافٍ من الذهب الخالص ولا يستعمل فى قصره من المعادن غير الذهب ، حتى لقد صنعت منه الأدوات والأشياء العادية مثل (مفصّلات) الأبواب ، وجيوشهُ هائلةُ العدد فكأنها الرمل على شاطىء البحر . »

وسرت بين القوم همهمةٌ من التعجب والدهشة لدى سماعهم هذا الكلام .

واستطرد السفراء قائلين :

« واليوم يبعث اليكم الملك كروسوس بتحياته ويعرض عليكم حمايته . ومن ثم تصبح بلادكم جزءاً من مملكته ، فتتمتعون بالميزات التى تنعم بها أمة عظيمة . »

غير أن أهل ساموس لم يرحبوا بهذا اللون من الحماية ، لا ولم يظهروا رغبة فى الظفر بالمزايا والنعم ، التى تغدقها تلك الحماية .

وتَكلَّم كبير القضاة باسم الشعب قاطبة ، فقال :

« لا شك أننا شاكرون من أعماقنا التفاتةَ الملك كروسوس نحونا واهتمامه بنا ، بيد أننا نحن أهالى ساموس ، قانعون بأن نرى ساموس أمة عظيمة ، ولسنا نرغب فى أن نصبح أعظم مما نحن عليه ، اذا كان من الميسور أن يتحقق ذلك . وهل هنالك ثمّة رسالة أخرى من الملك كروسوس ؟ ذلك أنكم لم تتحدثوا حتى الآن الا عما يعتزم تقديمه لنا . ولكن أفليس هنالك شيء يرى من واجبنا تقديمه اليه ؟ »

وشَعَرَ السفراء بالضيق والحرج ، ذلك أنهم كانوا يؤثرون عدم التعرض لهذا الجانب من المساومة ، ومع ذلك فقد قالوا :

« يتوقع الملك كروسوس ، بطبيعة الحال ، أن تظهروا تقديركم وارتياحكم لهذه الميزات العظيمة ، وأنه لينبغى عليكم . . . »

فقاطعهم كبير القضاة قائلا « . . . أن ندفع له الجزية ، ونصبح رعاياه ؟ هذا ما لا قبل لأهل ساموس الأحرار أن يصنعوه ! »

فقال السفراء « اذن ، فإن مولانا وسيدنا يُنذركم ، اذا لم تقبلوا عرضه بأنه مرسلٌ اليكم جيشا عظيما ، لحملكم على تحقيق مشيئته . »

ثم ساد صمتٌ رهيبٌ فى ساحة السوق .

وكان هنالك كثيرون يحبّذون الخنوع والإذعان لمشيئة الملك كروسوس ، ذلك لأنه ملكٌ عظيم البأس ، واسع الثراء ، وقال أحدهم :

من ذا الذى يسعه مقاومةَ مثل ذلك الملك الشديد البأس ، الواسع الثراء ، الذى تَرْجحُ ثروته ما لدى أى ملك آخر من ملوك الأرض ؟ ثم هو يأكل فى صحاف من الذهب الخالص ، وهو لم يستخدم فى قصره معدناً غير الذهب ، حتى الأدوات والأشياء العادية المألوفة ، مثل (مفصلات) الأبواب ، فهى من الذهب ، ثم إن عدد جيوشه كعدد رمال الشاطئ !

بيد أن إيسوب اعترض قائلا :

« يهب الحظ للناس طريقين : أحدهما طريق الحرية ، وهو طريق وعر تكتنفه الصخور وَيُغَصُّ فى أوله بالكثير من الأشواك ، ولكنه سرعان ما يصبح بعد وقت قصير سهلا ممهداً وبهيجاً ، وأما الطريق الآخر فهو واسع سَهْلٌ مُمَهَّدٌ فى أوله ، ولكنه ، كلما أوغل فيه المرء ، ألفاه أكثر صعوبة وأشد وعورة وانحداراً ، إلى أن يصبح وقد امتلأ بالأشواك الحادة المميتة ، حتى ليستحيل التقدم على مرتاده ، وإنما يهلك ويموت يائساً محسوراً » .

وبهذه الطريقة نصح إيسوب أهل ساموس بأن يقاتلوا دفاعاً عن حريتهم ، وأوصاهم بألاّ يستسلموا ويمتثلوا لمطالب كروسوس ، ملك ليديا .

وهكذا أعاد أهل ساموس سفراء الملك كروسوس ساخطين فاشلين وكان بعض الأهلين يحبِّذُ قَطْعَ رءوس هؤلاء السفراء وإرسالها إلى الملك كروسوس دلالةً على التحدى ، حتى لا يخالجه ريب فى أن الشعب يرفض مقترحاته .

ولكن إيسوب أثناهم عن عزمهم ، حينما قال : « حرام عليكم أن تَمَسُّوا السفير بسوء ، فلِشَخْصِهِ قداسَةٌ يجب صيانتها ، وقتلُ السفير كالعدوان على قُدْس من الأقداس ؛ تلك خطيئة رهيبة ، تمقتها الآلهة . ولتذكروا أنه ، كما يَفِدُ السفراء من عند الشعوب الأخرى ، كذلك توفدون أنتم السفراء وقد يأتى ذلك اليوم الذى نشعر بحاجتنا فيه لإيفاد السفراء . وكيف نستطيع حينذاك إيفادهم إذا ذاع عنا ما اقترفناه فى حق هؤلاء ؟ وفضلا عن ذلك فمن هو الذى يستطيع من بيننا أن يحمل إلى الملك كروسوس رءوس سفرائه ؟ وكم من الزمن يستطيع أن يحتفظ فيه برأسه فوق كتفيه ، بعد إنجاز مثل هذه السفارة ؟ » .

وهكذا فإن سفراء الملك كروسوس لم يصادفوا قط ما يكدرهم أو يسىء إلى كرامتهم ، بأية صورة من الصور . وعادوا إلى عاهلهم يحملون إليه جواب أهل ساموس .

ولقد تكدر الملك كروسوس واغتم كثيراً . ثم حشَدَ جيشاً هائلا

لِغَزْوِ ساموس ، وقال له السفراء إنه طالما احتفظ أهل ساموس بإيسوب الذى يزوّدهم بنصائحه فسيكون من العسير عليه إخضاعهم ، ذلك أنهم يؤمنون إيماناً عميقاً بحكمته ورجاحة عقله .

ومن ثم أوفد كروسوس السفراء مرة أخرى إلى ساموس حيث طلبوا إلى أهلها أن يسلّموا إيسوب إلى الملك ، فإذا فعلوا فلن ينالهم بسوء ، وإنما يدعهم ينعمون بحريتهم فى سلام .

ورأى بعض كبار المواطنين أن هذا الشرط يسير عليهم تحقيقه ، وأنه مُرْبِحٌ لهم ، ماداموا يستطيعون بِتَسْلِيمِ إيسوب أن يبتاعوا حريتهم ، ويا له من مطلب زهيد ، ولقد قالوا فى ذلك :

- « إنه لشرف عظيم أن يُتَاحَ لفردٍ الفرصة لتضحية شخصه فى سبيل خير الجماعة ، وإن التاريخ لَيُنْبِـئُنَا أن مثل هذه التضحية مقبولة ومستساغة فى الظروف الشبيهة بهذا الظرف الراهن » .

غير أن إيسوب لم يَرَ رأيهم ، وروى عليهم القصة التالية ، قال :

- « أبْرَم الذّؤْبان مع الخراف معاهدة يعيشون بمقتضاها معاً فى سلام . ولقد وافقتْ الخراف على تسليم كلابها رهائن ، دلالةً على حسن نيّتها . وما إن تم ذلك ، وأصبحت الخراف وليس من يتولى حراستها وحمايتها ، وقَعَتْ فى سهولة

ويسر فريسة بين مخالب الذئاب التى صار فى ميسورها افتراس ما تشاء منها فى أوقات الفراغ ! » .

ولقد تأثر أهل ساموس بهذه الحكاية ، حتى أنهم اتخـــذوا موقفاً إجماعياً يناقض تمام المناقضة قرارهم السابق ، ورفضوا تسليم إيسوب للملك كروسوس .

ومع ذلك ، فقد شعر إيسوب أنه قادر على تقديم خدمة أفضل لأهل ساموس إذا هو توجه إلى الملك كروسوس ، بوصفه سفيَراً ، لا أن يُرْسَلَ على أنه رهينة . وهنا تجلت حكمته عندما وعظهم بعدم قتل سفراء الملك كروسوس ، على النحو الذى كان ينادى به بعض أهل ساموس .

ولقد ألفى معارضة شديدة ، على عكس ما كان يتوقع ، من جانب إكسانثوس ، الذى أصبح من ألدِّ أعداء إيسوب منذ أصبح حُرّاً .

ونظراً لمـكانته ، بوصفه أحد كبار أهل أهالى ساموس ، ولـكونه فيلسوفاً ذا شأن ، فلقد كان له نفوذ كبير فى المدينة ، راح يستخدمه ضد إيسوب فى كافة المناسبات والظروف ، وانطلق الفيلسوف يقول :

« أو هكذا تسمحون لأنفسكم يا أهل ساموس الأحرار النبلاء ، بأن تتأثروا بهذا المخلوق المشوه المَسْخِ الحقير ، الذى كان ، حتى أمس القريب عبداً عديم القدر والقيمة ؟ أو هو الذى سيمثلـكم ؟ أو هو الذى سينطق

بلسان جزيرة ساموس الحرّة ؟ إنى أراكم تنبذوننا وتتخلون عنا ، نحن مستشاروكم الصادقين الذين يحق لهم أكثر من سواهم أن يكونوا موضع تقديركم بحكم مركزهم ووضعهم الاجتماعى ! »

وقال إيسوب : يحكى أن الحمار والثعلب وَجَدَا ذات يوم تمثالا من الجص يصوّر النصف الأعلى لجسم الإنسان ، ولقد تأثر الحمار تأثراً عظيما بوجه التمثال الأجوف الذى كان يكبر الحجم الطبيعى ، وقد كان يمثل رأس إنسان له جمال الآلهة ؛ بيد أن الثعب أخذ يقلب التمثال ، فلما ألفاه خاوياً أجوف ، قال : « ياله من رأس رائع الجمال لولا أنه لا مُخَّ له ولا عقل فيه . »

وبِقَدْرِ ما سَرَّ أهالى ساموس وسرّى عنهم بهذا الكلام ، بقدر ما استشيط إكسانثوس غضباً ومضى يتعقب إيسوب بتشهيره وتخرصاته كلما أتيحت له الفرصة .

فلما اقترح إيسوب أن يكون سفير المدينة عند الملك كروسوس : عارَضَ إكسانثوس ذلك الاقتراح ، وقال : « أوتحسبون أن مثل هذا المخلوق التافهِ يستأهل مثل ذلك التكريم فيُبْعَثَ لتمثيلكم عند الملك كروسوس ؟ إنكم لستم مدينين له بشىء حتى تُغدِقوا عليه مثل ذلك التشريف الكبير » .

ووافق إيسوب على زعمه ، وأجاب بقوله :

« صحيح أنكم لستم مدينين لى بشىء . ولو أنكم كنتم مدينين لى بشىء ما ، فإنى أرده إليكم عن طيب خاطر ، حتى لقد أصبح لديكم الآن سببٌ مضاعفٌ يدفعكم إلى عدم سداد ما أدينكم به . ذلك أننى لست أسألكم بالسماح لى بالتوجه سفيراً لكم عند الملك كروسوس ، مكافأة لى على خدمات سابقة قدّمتها إليكم ، وإنما أنا أقترح عليكم السماح بإيفادى حتى أتمكن من القيام بخدمات أخرى . ولكم الخيار على كل حال بيد أنكم إذا رأيتم أن تكون السفارة لدى الملك كروسوس مكافأة على خدمات سابقة ، فلست أعرف رجلا فى المدينة تدينون له بدين أعظم مما يدينكم به إكسانثوس . فبفضله هو وحده دون سواه لم تصل جيوش الملك كروسوس بعد إلى هذه البلاد ، وأنتم أنفسكم لم تصبحوا بعد فى عداد الأسرى » .

ولقد دهش حتى إكسانثوس نفسه من هذا الثناء يُغْدِقُه عليه إيسوب فى الوقت الذى قَلّ فيه توَقُّعه لمثل ذلك الثناء .

وسأله إكسانثوس فى سماحة نفس : « ولكن كيف تصوغ لى هذا الثناء ؟ » .

فأجابه إيسوب قائلا :

« ذلك ثناءٌ يدفعنى إليه ما جُبلتُ عليه من التزام الجادة والرزانة والكف عن المزاعم الباطلة ! أو لم تراهن أنت على شرب ماء البحر حتى يجف ؟ ولولا أنك عدلت عن رهانك لاستطاع جيش الملك كروسوس أن يسير إلينا دون أن تبتل حتى أطراف حُلَلِه ! »

* * *

الفصل الحادى عشر

ودهش الملك كروسوس عندما رأى إيسوب ، وعجب كيف يكون ذلك المخلوق المشوّه التعس ، هو العقبة الكئود التى تحول دون استعباده شَعْبَ جزيرة ساموس ، وصاح الملك :

« ماذا ! أو هذا هو الشيء الذى أوحى لشعب ساموس أن يعارض مشيئتى ؟ » .

فألقى إيسوب بنفسه عند قدميه ثم قال : « لتعش أبد الدهر أيها الملك العظيم ؛ ولتشملنى برحمتك وتُصِيخَ لحديثى : انطلق رجل ذات يوم يفتك بالجراد الذى أغار على محاصيله وراح يفنيها أَكلاً ، ووجد بين عدد من الجراد المتجمع بين يديه صرصوراً ، كاد يَهُمُّ بقتله ، لولا أن خاطبه الصرصور قائلا (ما هى جنايتى عندك ، إنى لا آكل قمحك ، ولا أسبب لك أية خسارة . ولست أملك سوى صوتى الذى أرسله فى براءة مطلقة ، ولست إلاَّ صرصوراً ، لم يستخدم صوته قطُّ فى مهاجمتك !)

وامتلأ كروسوس إعجاباً به وشفقةً ، وعفا عنه .

وشاء أن يرفع منزلته فأمر بأن تُخْلَعَ عليه أجمل الحُلَل ، وأمطره

بالهدايا ، وأكرمه إكراما عظيما . وسمح له بغشيان مجالسه ، ووجّه إليه أسئلة كثيرة عن جزيرة ساموس وعن لون الحياة التى يحياها أهلها .

وقال لإيسوب : « ولكن أوما تفهم أنت ومواطنوك ، أنكم ستكونون أحسن حالا ، متى بُسِطَتْ عليكم حمايةُ ملك عظيم مثلى ؟ سأعملُ إذن على تنمية تجارتكم ، وستنعمون بكل المزايا التى يهيؤها لكم تأييدُ مملكةٍ قويةٍ مثل مملكتى . ولسوف أبعث المهرة من رجال المعمار وحذّاق الصنّاع لتجميل مدينتكم ، ولتشييد معابد وقصور جميلة بها . فإذا حاقت المجاعة ببلادكم أسعفتها بالطعام ، أُرْسِلُه من أطراف مملكتى الأخرى ، ذلك أنه إذا وقعت مجاعةٌ أو حدث قحط فى ولاية كان الوفر والمحصول العظيم فى الولايات الأخرى . وستتمتعون فى معاملاتكم مع الأجانب بالميزات التى يوفرها لكم كونكم مواطنين فى دولة عظيمة ، وأنكم تحتلون مكانكم الكامل فى بناء أمة قوية . هذا بينما لا تعدو بلادكم اليوم أن تكون جمهوريةً صغيرةً ، وأنكم تحت رحمة أية دولة كبيرة ترغب فى مهاجمتكم وأنتم لا شك تعيشون — نتيجة لذلك — فى دوّامة من المخاطر والتهديد بالحرب ، وأنتم مُلْزَمُون على الدوام بالاستعداد والتأهب لدفع العدوان » .

وفكّر إيسوب دقائق معدودات قبل أن يجيب بقوله :

« قَابَلَ ذِئْبٌ ذات مرة كَلْباً . ولقد أثار ذلك الكلب فُضُولَ الذئب وإعجابه ، ذلك أنه كان كلبا كبير الجرم نبيلاً جميلَ الصورة ، عليه آثار النعمة وحسن التغذية . فقال الكلب « تعال معى ، ودَع الغابَةَ حيث تعيش عيشة تعسة ، يَسُودُها الخوفُ الدائم والضَنَى المستمر ، ولن تكون مجبرا حينذاك على مصارعة الحيوانات الأخرى ، فى سبيل البقاء ، ذلك أن كلَّ طعام تأكله لا تناله إلاَّ قتالا . بيد أنك إذا صَحِبْتَنِى ، فستكون أحسنَ حالاً وأسعد نفسا ، ذلك أنك ستنال معاملة أفضل وستظفر بطعام جَيِّدٍ ، ناهيك بالربْتِ والتدليل ، وهكذا انطلق الذئبُ مع الكلب ، ولاحظَ وَهُماَ فى الطريق أن الشعر قد تلاشى واختفى من حول عنق الكلب . فسأله : ما هذا؟ . فأجاب الكلب قائلا : لا شىء ، لقد تلاشى الشعر حول عنقى من أثر الطوق الذى أُشَدُّ منه لأربط فى كوخى فقال الذئب : تُرْبَط ؟ إذن فأنت لا تستطيع أن تروح وتَغْدُو متجولاً على هواك حيثما تريد ؟ فأجاب الكلب « ليس على الدوام ، ولكن ماذا يهم ؟ » فردّ عليه الذئب قائلاً « إنّ هذا الأمر على جانب كبير من الأهمية ، وإنى لأوثره على بيتك الجميل هذا ، وَلأُفَضِّلُه حتى على تناول طعامى فى صُحُفٍ من ذَهَبٍ ، بل وعلى الظَّفَرِ بكنزٍ ثمينٍ ، وأهل ساموس مثل هذا الذئب يؤثرون الحرية على أى شىء عداها فى هذا الوجود » .

ولقد اشتد تأثر كروسوس بما رواه إيسوب ، ولقد وعد بعدم التعرض لشعب ساموس ، وتركهم ينعمون بحريتهم فى سلام !

واستبقى كروسوس إيسوب لديه زمنا طويلا ، ولقد قام فى أثناء ذلك برحلةٍ طاف خلالها بأطراف مملكته ، كما زار الكثير من الأقطار المجاورة ثم عاد إلى مسقط رأسه ، إلى آموريا فى فيرجيا . ولكنّ كرّ الأيام والسنين لم يدع هناك من يذكره ، أو من يعرف شيئا عن مصير عمه ماردين ، ولا حتى من يعلم أين دُفِنتْ أمه لاريسا . بل إنّ الدار التى ولد فيها ، وكانت له بمثابة العالم بأسره ، والمثالَ الحىَّ للبقاء والاستقرار . . . حتى هذه الدار . . . قد امّحتْ وتلاشتْ ، ذلك أن جيوشا قد اجتاحت الديار ، وراحت تحرق كل ما تصادفه فى سبيلها وتدمره فلم يبق إلا ذلك الجدول الصغير الجارى عند سفح التل ، إنّه نفس الجدول الذى كان يجلبُ منه الماء ، وهو لا يزال يجرى بطيئاً وانياً كالعهد به من قبل عَبْرَ نفس الجلامد والصخور القديمة ؛ ذلك أن ما تصنعه الطبيعة أبقى على الزمن مما يصنعه البشر . وإذا كان من العسير تشييدُ معبد عظيم أو حتى تدميره ، كمعبد ديانا الذى شيدّه أهل إيفيسوس ، فكان إحدى عجائب الكون ، فإنه لمن الأمور الأشد عسراً محاولة تغيير مجرى مثل ذلك الجدول الصغير ، أو حتى وقف تدفقه وجريانه . ولقد استخلص من هذا أنه لا محالة يأتى

يوم يتداعى فيه و يتحطم معبد ديانا بل و ينسى فيه حتى المكان الذى كان يشغله المعبد . ذلك أن ما يبنيه الإنسان لا بد زائلٌ إنْ عاجلا أو آجلا ، وإنّ الأقدار لتحدد فى نفس اليوم الذى يُشَيِّدُ فيه الإنسان بناء ، موعِدَ دماره وساعة زواله . بيد أن الجدول الصغير ، ذلك المجرى الضئيل المجهول الاسم ، الذى طالما مَلَا آنيته من مائه ، فإنه سيتدفق و يتدفق طوال عصور لا حصر لها ولا عدد .

ولقد عاد إيسوب بقلب كسير إلى سارديس عاصمة الملك كروسوس، الواقعة على ضفاف نهر باكتولوس ، وقد آدَه الحزن لزوال مسقط رأسه ، ولعدم اهتدائه حتى إلى قبر والدته لا ريسا !

وذات يوم ، بينما هو سائر فى الطريق ، إذا به يبصر قَافِلَةً من التجّار المتبايني المشارب وقد ساروا معاً حمايةً لأنفسهم من أخطار الطريق ، ذلك أن البلاد كانت تُعَانى اضطرابا وفتِنَاً ، ولم يكن من الحكمة أن يغامر المسافرون بالسير فى الطريق دون حراسة . وكان بين هذه القافلة جماعة من العبيد الذين أقتناهم أَحَدُ التجّار ، وقد طُوِّقت أعناقهم جميعا بالسلاسل .

فلما مرّ إيسوب بالقافلة ، نظر إلى العبيد ، فرأى بينهم الراعى بايدان الذى صادقه فيما مضى ، كما شاهد الراعى يوزات الذى كرهه وأبغضه ودفع به إلى العبودية . ولقد عَلَتْ السن بكليهما ، إذْ انصرمت سنوات كثيرة

على فراقه لهما . ولكنهما لم يريا إيسوب ، وإن كان هو قد عرفهما فَوْرَ وقوع بصره عليهما .

وخلا إيسوب بتاجر الرقيق على حِدَةٍ وسأله أين يقصد .

فأجابه الرجل فى احترامٍ وحفاوةٍ ، ذلك أنه حسب إيسوب بعض كبار النبلاء الوجهاء فى حُلّته الأنيقة التى خلعها عليه الملك كروسوس ، قال التاجر : « إنى متوجه إلى سارديس ! »

فسأله إيسوب « وهل أنت مصطحِبٌ هؤلاء العبيد معك ؟ »

فأجاب الرجل « نعم ، لكى أبيعهم يا مولاى ! »

فعاد إيسوب يسأله « وهل كانوا على الدوام عبيدا ! »

فأجاب الرجل « كلا يا مولاى ، فقد كانوا فى وقت ما رجالاً أحراراً ولكن عندما قدمت جيوش الملك العظيم كروسوس ، استعبِدُوا فاشتريتهم وإنى ذاهب بهم إلى سارديس عساى أبيعهم فأصيب ربحا . »

وأشار إيسوب نحـــو الرجلين إشارة أدركها التاجر ولم يدركاها هما ثم قال :

« متى صرت فى سارديس ، فأحضر هذين العبدين إلى بلاط الملك كروسوس وسأبتاعهما منك . وعليك أن تُحسِنَ معاملتهما أثناء الطريق .

وأعطى النخاس قطعتين ذهبيتين للارتباط بهذه الصفقة ، واحدةً من أجل بايدان والثانية من أجل يوزات .

ووافق النخّاس على ذلك العرض ، وواصل إيسوب رحلته عائدا إلى بلاط الملك كروسوس الذى استقبله معرِباً عن اغتباطه العظيم بلقائه .

و بعد أيام ، أقبل تاجر الرقيق على إيسوب مصطحباً العبدين كما اتفقا من قبل . وأمر إيسوب بوضعهما فى حجرةٍ منفردةٍ ، كان يحفظ فيها المسجونون ، وأن تُشَدَّد عليهما الحراسة . ولم يسمح لهما بأن يرياه . وسدّد ثمنهما كاملاً للنخّاس الذى انصرف إلى حال سبيله .

ثم ارتدى إيسوب ثياب العبيد ، وطلب إلى الحرّاس أن يصحبوه كما لو كان بالفعل عبداً وأن يدخلوه الزنزانة التى ينتظر فيها بايدان و يوزات .

وهكذا صحبوه ودفعوا به فى غِلْظَةٍ وخشونة إلى الغرفة ، بعد أن شيّعوه بطائفة من السبّاب والشتائم ، كما لو كان بالفعل عَبْداً ، ثم أغلقوا الباب من دونه .

فما إن رآه الرجلان حتى عرفاه . وحيّاه بايدان فى غبطة وسرور ، بيد أن يوزات عبس فى وجهه . وخاطبه بايدان قائلا :

« حَسَنٌ ياديكى الصغير الرائع ! إذن فقد عدت إلينا من جديد !

وها أنذا أراك أيضا قد أصبحت عَبْداً . كان ينبغى لك أن تبقى معنا ، فما كان أجدرنا بأن نسعد معاً . »

واستخلص إيسوب من هذه العبارة أن يوزات قد أخفى عن الرعاة فعلته ، عند ما سلّم إيسوب إلى الرّق والعبودية .

فما كان من إيسوب إلاَّ أن زوى لبايدان ما وقع . ودهش بايدان الراعى دهشة بالغة عند ما ألفى إيسوب يتكلم فى لغةواضحة مبينة ، كما اشتد غضبه على يوزات لما اقترف من جرم ، ثم قال له : « لقد سدّدت لك الآلهة جريرتك التى اقترفتها ، فأصبحت أنت كذلك عبداً جزاءً وفاقا لإثمك وشرورك . تلك مشيئة الآلهة . »

فقال يوزات وهو عابس متجهم « حسن ، وتلك هى حالك كذلك ومن ثم فلستُ أرى أنك قد امتزت على ، ولقد تشَابَهَتْ مكافأةُ كل منا ، وإنْ اختلفت أعمالنا وتباينت . »

وضحك بايدان ، وكان لا يزال رفيقاً مرح الأعطاف على الرغم من أهوال محنته ثم قال : « نعم ، إنى عبد كما تقول . ولـكننى أعرف كذلك أننى بايدان الراعى ، وفى هذا ما يكفينى : وإذا شاءتْ الآلهة أن أظل عبدا ، فلاَ رادَّ إذن لمشيئتها ، غير أننى سأظل على المدى حُرَّ العقل والضمير . ولـكنك أنت ، أنت عَبْدُ القلب والفكر والضمير . ومع ذلك فلا فائدة من اللوم أو السباب ، فقد وقع ما وقع وانتهى الأمر ! »

واستطرد بايدان قائلا ، وهو ينظر إلى إيسوب « هَلُمَّ إلىَّ أيها الصغير القبيح الخلقة . الآنَ وقد عثرت عليك بعد هذه السنين الطوال ، ومنذ ذلك الوقت الذى قَدِمْتَ فيه إلى خيامنا لأِول مرة ، جائعا مُتْعَباً ، سنظلُّ معا لا نفترق بعد اليوم . ولكننا قد تقدَّمْتْ بكلينا السن ، منذ تلك الأيام ، وإن كنت أنت ياديكى الصغير ، لم تكبر حجماً ، ولم تزدد ملاحةً . كلا ، حتى بعد أن نَمَتْ لحيتك . ولن تكون عظيم القدر بوصفك عَبْداً . ومن ثم فسنظلّ متلازمين متصاحبين حتى أستطيع أن أرعى شأنك ، ذلك أن الآلهة قد شاءت أن نلتقى مرة أخرى . »

وقال يوزات فى عبوس : « الأفضل التخلى عنه ، فهو شقىٌّ سىء الطالع مشوّه ، وإن لديك من متاعبك وأثقالك الخاصة مايغنيك عن حمل أثقاله فوقها . فلن تستطيع ـ بوصفك عبدا ـ أن تعين نفسك ، فكيف بإعانتك الآخرين ؟ »

وسرعان ما أقبل الحرّاس ، بإيحاء سابق من إيسوب ، فدفعوه إلى خارج الغرفة من جديد ، تاركين الرجلين الآخرين وحدهما فى الزنزانة.

فلما أصبح خارج الغرفة ، خلع إيسوب ثياب العبيد ، وارتدى ثيابه السالفة ، وأمر بإحضار بايدان ويوزات للمثول بين يديه .

فلما شاهداه وقد نضا عنه ثياب العبيد ، وارتدى ملابس أنيقة ،

وجلس فى مقعد التشريف والتكريم ، وقام على خدمته كثير من الخدم ، تعاظمت دهشتهما . وامتلأ يوزات خوفاً ورعباً عندما أخبرهما إيسوب كيف أنه عرفهما فى الطريق ، وأنه اشتراهما من تاجر الرقيق .

وضحك بايدان وهو يقول : « حسن إذن ياديكى الصغير الرائع ! من كان يحلم أننى سأصبح عبدك ذات يوم ! » .

فقال إيسوب « ثِقْ أنك لن تكون لى عبداً » وأشار بيديه دلالة على أنه قد رد عليه حريته ، ثم نظر إلى يوزات وقال « ماذا تريدنى أن أصنع من أجلك ؟ » .

ولكن يوزات لم يحر جوابا . فاستطرد إيسوب قائلا « إنك وإن كنت قد أَسْلَمْتَنى للعبودية — إذْ أعياك بيعى مقابل أى ثمن يدفعه النخاس ، فقد كنت ترى أننى لا أساوى شيئاً — إلا أننى سأهبك الآن حريتك دون مقابل . ولعل هذه هى قيمتك الحقيقية أيضاً » .

وطوَّحَ إيسوب بيديه دلالةً على أنه قد ردّ عليه حريته ، ثم أعطاه كيساً من النقود حتى لا يسير خالى الوفاض فيتضور جوعا .

وانطلق يوزات لحال سبيله .

غير أن إيسوب أدرك أنه خلق من ذلك الرجل عدواً له . ذلك أن هنالك من الطبائع والنفوس البشرية مَنْ يبغض المحسنين إليه

والمتفضلين عليه ، دون المسيئين إليه . ولقد كان يوزات واحداً من ذلك الطراز العجيب . كان رجلا ممتلئاً حقداً وغيرة ، ولم ينبض قلبه قط بماينبيء عن كرم النفس وطيب الشيم .

ثم التفت إيسوب إلى بايدان ، وأمر بأن تقدمْ إليه ملابس جديدة ، وأعطاه الـكثير من الهدايا ، وسأله عما يريد أن يصنعه من أجله .

فأجاب بايدان قائلا « حسن أيها الصغير الدميم الخِلْقَة . ما دمنـا قد التقينا بعد كل هذه الأعوام ، فلست أرى لِمَ لانبقى معاً . لست أدرى إلى أين أتوجه ! فقد أصبحتْ مَرَاعِيَّ مهملةً ، وقد تشتتت قطعانى . وكما قلت من قبل إننى أستطيع السهر على شئونك ، فلعلك أنت تستطيع أن ترعى أمورى ، ولعل كُلاًّ منا يُعْنَى بصاحبه » .

وهكذا اتفقا ، وظل بايدان مع إيسوب سنوات كثيرة ، بوصفه رفيقه وصديقه . وقد رحلا معاً إلى كثير من البلدان ، كان بايدان ، بخلقه المَرِح وقوَّتِه البدنية الهائلة ، عظيم الفائدة لإيسوب .

وكان بايدان كلما فـكَّر فى يوزات ، هزّ رأسه ، وقال : « لقد وجد رجل ذات مرة ثعباناً ، مهملا منبوذاً بين ثلوج الجبال ، وقد تجمّد حتى أشفى على الهلاك . فحمل الرجل الثعبان وأدفأه فى حجره ، إلى أن استرد قواه . فلما عادت الحياة إلى الثعبان ، عادت بعودتها إليه روحه الخبيثة

الشريرة ، فلدغ الرجل ، فمات . إلا أنه من الخير أن نكون كرماء ، ولكن مع مَنْ ؟ ليس مع ناكرى الجميل ، ليس مع يوزات ! »

وابتسم إيسوب ، ثم أجاب بقوله : « إن الذى حدث فى روايتى أنا ، هو أن الرجل أخذ الثعبان وأدفأه أمام النار التى كان يستدفىء عليها ، إلى أن استعاد الثعبان قواه واسترد حياته ، واسترد باستردادها نوازعه الشريرة فأخذ فحيحه يتعالى ، وأرجع رأسه إلى الوراء متحفزاً ، ومحاولاً لدغ الرجل ، بيد أن هذا عجَّل بتناول فأسه ، وأهوى بها على الثعبان مرتين متتاليتين ، فشطره ثلاثة أقسام ، وهلك الثعبان ، ولم يمت الرجل ! »

فتعالى ضحك بايدان من هذا النص المبتدع لحكايته ، ثم قال « مهما يكن من أمر فإنّ قصتك لا تزال تدلّ على أنه ليس من الخير أن نكون كراماً مع ناكرى الجميل اللئام ! »

فقال إيسوب « ولكنها تدل كذلك على أن ناكر الجميل اللئيم هو الذى يهلك آخر الأمر وهو يكابد البؤس والتعاسة » .

واستطرد بايدان قائلاً : « ومع ذلك فقد كان من الأحجى أن تدع يوزات لتاجر الرقيق ولا تبتاعه ، وهكذا تتركه ليكابد أهوال العبودية ؛ ذلك أنه لو حدث أن لدغ ثعبان قصتنا يوزات ، إذن لهلك الثعبان ولم يصب يوزات بسوء ، فإن فيه من السمّ قدراً أعظم مما فى أى ثعبان

أصيل ! أجل ، لقد كان من الأحجى ، تركه بين يدىّ النخّاس ! »

فهز إبسوب رأسه موافقاً ثم أجاب قائلا :

« صدقتَ ، ومع ذلك ، فليس ذلك من شيمتى ! »

فأجاب بايدان :

« كلا ، ولا من شيمتى أنا الآخر . وهذا هو السرُّ فى حبى إياك أيها الصغير القبيح الخلقة » .

* * *

الفصل الثانى عشر

تبوأ عرش فريجيا حقبة من الزمن ملك يدعى ميداس .

وذات يوم استدعاه أپوللو وسيلينوس مارسياس ليقول رأيه فى الأنغام الموسيقية المنبعثة من قيثارة الآله أپوللو ، وفى تلك الصادرة عن الناى الساذج الذى ينفخ فيه ذلك الإله الريفى المتواضع سيلينوس مارسياس ، فقال الملك ميداس فى قحة إنه يؤثر مزامير الإله بان الريفيـــة الساذجة على قيثارة أپوللو .

ولقد تميز أپوللو عند ذلك غضباً .

وكان الإلـه أپوللو إله النور والموسيقى ، وكان هو الذى اخترع القيثارة وراح يصاحب بأنغامها عرائس الشعر كيما تَسْتَمْتِعْ بالإصاخة إليها آلهـة الأولمب ، وكان أپوللو يبغض الناى على الدوام ، ولا يعده أداة من أدوات الموسيقى ، ذلك أنه كان يراه وضيعاً ، زرياً ، ومن ثم فقد حفزه حكم الملك ميداس على الانتقام لنفسه ؟

وتقول بعض الروايات أنه — لفرط سخطه وحقده — سلخ جلد سيلينوس مارسياس وهو حى ، إذ تجاسر فعارض بصفير نايه الهزيل ، أنغام قيثارته العلوية ، فى حين تفيد بعض الروايات الأخرى أنه سَخَطَه

فأحاله شيخاً مسناً زرى الهيئة مضحك الصورة ، يمتطى حماراً بين حاشية إله الخمر باخوس ، و يبدو على الدوام مخموراً . وأما فيما يتعلق بالملك ميداس فإن أبوللو قد جعل أذنيه تكبران حتى صارتا مثل أذنى الحمار . وفى ذلك قال الإله أبوللو :

« ما دام ميداس لا يختلف عن الحمار فى تقدير ما يسمع من الأنغام ، فمن العدل أن تصير أذناه مثل أذنى الحمار ! »

وهكذا عوقب الملك ميداس من أجل حكمه السيئ ، واغتم كثيراً لتلك البلية التى لحقته ، وخشى أن يذيع أمرها و يعرف ، فيُسبِّب له ذلك العار ، ويقضى على سلطانه الملكى ، ومن ثم فقد أمر بصنع غطاء للرأس متسع فضفاض ، يوضع تحت تاجه بحيث تختفى تحته أذناه الشبيهتان بأذنى الحمار ، فيتفادى الفضيحة ! .

وكان غطاء الرأس هذا هو أصل القبعة الفريجية ، التى صارت شائعة فى ذلك العصر ، بعد أن جعلها الملك لرأسه غطاء ، ومن ثم أقبل الناس على تقليدها ، وفى طليعتهم الفرنسيين الذين اتخذوها غطاء للرأس يرمز إلى جمهوريتهم ، و يفى بالغاية المقصودة من ارتدائه ، لا على سبيل التحية منهم لذكرى الملك ميداس .

ولم يعلم أحد بذلك العار سوى حلاق ميداس ، الذى أقسم أن يصون

ذلك السر فلا يبوح لأحد بالتشويه الذى أصاب وجه الملك ، فإن فعل فمصيره الموت . ذلك أن الملك كان مضطراً ، لا لنزع تاجه عن رأسه فقط ، وإنما لرفع قبعته الفريجية أيضاً ، حتى يسهل على الحلاق قص شعره و إصلاح لحيته وسوالفه .

ولقد رزح ذلك السر عبئاً ثقيـلاً باهظاً على صدر الحلاق ، الذى نَحُلَ جسمه وسقم ، وشحب وجهه من ذلك السر الذى يحمله معه و يحبسه فى صدره ، ذلك السر الذى لا ينبغى له أن يفضى به لأحد من البشر . وأحس الحلاق ذات يوم أنه أصبح لا يطيق حِمْله الباهظ الثقيل ، فقصد إلى مكان غير مطروق ، ومنعزل عن العمران . وهناك حفر حفرة وهمس فى تلك الحفرة بِسرِّه . ثم أهال التراب على الحفرة حتى ردمها ومضى لحال سبيله ، وقد خفف عنه البوح آلام نفسه !

ولـكن حدث أن نمت فى المكان الذى حفر فيه تلك الحفرة ، قصب وأعشاب ، فلما نضجت واكتمل لها النمو واستوت على عيدانها ، كانت كلما هبت عليها الرياح ، تمايلت بعضها على بعض وتمتمت بالعبارة التالية :

« إن لميداس ، ميداس الملك ، أذنىّ حمار ! »

وبهذه الوسيلة ذاع بين رعايا الملك ميداس أن له أذنى حمار ، و بعث

هذا النبأ فى نفوسهم فرحة عظيمة . وبدلاً من أن يظل هذا المكان كما كان فيما مضى ، مهجوراً موحشاً غير مطروق ، فقد أصبح مكاناً محبوباً ، يلتقى فيه الكثير من الناس ، حتى لقد شيدت عنده حانة ثم أقيمت عدة أماكن للترفيه وللتسلية ، بل لقد شيِّدت هناك دور لسكنى الأهلين . وأقيم حول أعواد القصب والعشب النامى سياج لوقايتها ، لا يمنع الرياح بحال من أن تهب عليها ، وإن كان يقيها عدوان أىّ من رعايا الملك المتحمسين المخلصين .

وفى ذات مرة طلب الملك ميداس من الإله باخوس أن يهبه القدرة على تحويل كل شىء يمسّه إلى معدن الذهب . واستجاب الإله له فوهبه هذه النعمة ، فلما عاد الملك إلى قصره امتلأ تقزّزاً واشمئزازاً عندما رأى الطعام الذى يَمَسُّه يتحول من فوره إلى ذهب خالص ، فلا يستطيع أن يأكله . وَبمُضِىِّ الوقت ، أضحى تقززّه هذا خوفاً ورعباً ، إذ رأى أنه لا يستطيع أكل أى شىء على الإطلاق . وحتى حينما حاول أن يأكل — لا بأصابعه كما كان يصنع آنفا — وإنما بأدوات مستحدثه أمر بصنعها من نفس الذهب الذى تكوّن نتيجة للمسه الطعام فى وجباته السالفة ، حدث نفس الشىء ، فما إن مَسَّتْ اللحوم وألوان الطعام الأخرى شفتيه ، حتى أضَتْ كذلك ذهباً . ولقد تعاظم هَلَعُ ميداس وفَرَقُه ، وكان يتوقع

أن يموت جوعا وحرمانا وسط ذلك الخير الوفير . فلما تفاقم خطبه واستبد به الجوع ، انطلق فى طلب الإله باخوس وتوسل إليه أن يزيل عنه تلك الهبة الخطيرة .

فأمره باخوس بالاستحمام فى نهر باكتولوس ، على أن يسرع فى السباحة فلا يلحق به رجال حاشيته ، فألقى بنفسه فى ماء النهر وانطلق يسبح ويستحم ، وأبى أن يخرج من الماء إلا بعد مضى زمن طويل ، على الرغم من توسلات رجال حاشيته ، خشيةَ أن يظن الإله أنه غير جادٍ فى إزالة أسباب عجزه البالغ ، حتى إذا لم يقتنع بطهارته الكاملة ، عمد الإله إلى إزالة جانب من أسباب محنته ، وذلك بأن يتحول الذهب إلى معدن آخر أخسّ منه ، كالرصاص مثلا ، وهو معدن يستوى مع الذهب فى استحالة هضمه ، وإن كان أبخس منه قدرا ، وظل فى الماء يومه بطوله . وقد حرص طوال الوقت على اخفاء رأسه تحت سطح الماء وراح يضرب بيديه الماء فيثير أمواجا عالية من الرشاش ، وكان لايفتأ يفرك يديه ، وينفخ ويدعك جسمه ، حتى اضطره الجوع إلى مغادرة النهر ، فعاد إلى قصره وحمد الإله على أن طعامه لم يتحول ذهباً ، واستطاع أن يأكل كما يشاء .

وقال كبار رجال حاشيته إنهم لم يروا الملك من قبل يأكل بمثل هذه الشهية الطيبة ، ولا بمثل هذه الشراهة ، وذلك التشوف ، وقد نبذ الأدوات

التى استحدثت له أخيرا ليستعين بها على تناول الطعام ، وكانت تبدو شيئا غريبا نابيا بين يديه ، بالقياس إلى أصابعه التى ألف طول حياته أن يتناول بها طعامه .

ومنذ ذلك اليوم حملت مياه نهر باكتولوس معها ذرّات دقيقة من الذهب .

ومن ذلك النهر ، الذى تقع على ضفافه مدينة ساردِيس ، استمد الملك كروسوس ثروته العظيمة ، التى جمعها باستصفاء الذهب من ماء النهر ، أو باستخلاصه من رماله وطميه .

وهكذا صار الملك كروسوس ، عاهل ليديا ، أغنى رجل فى العالم .

وصحب الملك إيسوب وأظهره على كنوزه التى حفظها فى دار نفائسه . فهنالك سبائك من الذهب ، وأكياس من العملة الذهبية التى تزينها صورة الملك ، وحقائب ضخمة مفعمة بتراب الذهب المستخرج من ماء النهر .

وسأله إيسوب عما فعله بذلك الذهب .

فقال الملك كروسوس إنه حفظه فى هذا المكان الآمن ، واستطرد قائلا : « وفى كل يوم ، تُجلَبُ من النهر أكياسٌ جديدةٌ من تراب الذهب الناعم ، وتضاف إلى المدخّر منه ، وهكذا أُصْبِحُ مع كلّ يوم جديد ، أكثرَ ثراء وأعظم سعادة ! » .

فضحك إيسوب وسأله « ولـكن ماذا يحدث لو سطا اللصوص على الذهب فسرقوه ؟ »

فأجابه كروسوس إجابة الواثق المطمئن ! « لا شك أن هذا محال . فجدران دار حفظ الـكنوز هذه سميكة جداً وأبوابها متينة محكمة ، بحيث لا قِبَلَ لأحد على تحطيمها ، هذا فضلا عن قيام مائة جندى على حراسة هذه الدار ليل نهار .

فتوجه إيسوب إلى الملك بهذا السؤال : « أوتحسب أننى إذا حفظت كنزاً لى هنا — بعد استئذانك — أستطيع أن أطمئن إلى سلامته ؟ »

فأكدّ له الملك كروسوس ذلك .

وانصرف إيسوب ، ثم عاد مسرعا يحمل حقيبة صغيرة ، من ذلك النوع الذى يستخدمه الملك نفسه فى حفظ نقوده الذهبية ، وطلب إلى الملك أن يأذن له بحفظها تلك الليلة فى دار كنوزه .

ولقد قارن الملك بين قيمة حقيبة إيسوب الصغيرة الثمينة ، و بين كنزه الهائل الشامخ الذى يرتفع حتى يبلغ سقف الدار فى بعض المواضع ، وكانت هذه المقارنة باعثاً كبيراً من بواعث تسليته والترفيه عنه . ومع ذلك فقد سمح لإيسوب أن يضع حقيبته بين حقائبه المملوءة نقوداً ذهبية . ولم يمسّ

تلك الحقيبة أحد سوى إيسوب . ولقـد مَيَّزَ إيسوب — فى حضرة الملك — حقيبته بعلامةٍ حتى تسهل عليه معرفتها ، ووضعها فوق حقائب الملك الممتلئة ذهباً . ثم أغلقت الأبواب ، وأخذ الملك بنفسه المفاتيح ، وتولى الجنود المائة حراسة دار الـكنوز .

غير أن إيسوب اشتدّ قلقهُ ، وساورته الشكوك حول مصير حقيبته ، حتى طفق يسأل الملك للمرة تلو الأخرى ، فى غضون الليل ، عما إذا كان واثقا من أن حقيبته ستحفظ وتصان تماما كحقائب الذهب التى يملكها الملك نفسه .

وضحك الملك كروسوس عند ما وجه إيسوب سؤاله ، وقد تعاظم قلقهُ وتزايد خوفه على حقيبة ضئيلة صغيرة ، بينما هو لا يبدى مثل ذلك الخوف والإشفاق على كنزه الـكبير .

وفى صباح اليوم التالى ، توجه الملك يصحبه إيسوب إلى دار حفظ الـكنوز . وكان الجنود جميعاً يتولون الحراسة ، وهم كاملو اليقظة والنشاط ولم يسمحوا حتى للملك نفسه أن يدخل الدار إلاَّ بعد أن ألقى على رئيس الحرس العبارة المتفق عليها قبل السماح بالمرور .

وقال الملك يخاطب إيسوب وهو يضحك : « أنت ترى كيف يصان كنزك الضئيل التافه ! »

ولم يُحرْ إيسوب جواباً ، وإنما هز رأسه كما لو كان لا يزال يساوره ظل من الشك .

وفتح الملك الأبواب بالمفاتيح ودخل دار الكنوز . وهناك بدت حقيبة إيسوب وعليها العلامة ، فى نفس الموضع الذى وضعها فيه بالأمس ، ولم يمسسها أحد قطّ .

وابتسم الملك وهو يشير إلى الحقيبة قائلا : « ها أنت تراها مصونةً مثل حقائبى ! »

وتناول إيسوب حقيبته وفتحهـا ، وأخرج محتوياتها ووضعها على أرض الغرفة .

ولم تكن سوى مجموعة من الحصى العديم القيمة . وندّت من الملك صيحةٌ عاليةٌ من الدهشة والتعجب ، ثم قال : « لا شك أن فى الأمر لغزاً غامضاً ، أمن الميسور أن يقع شىء كهذا ، فيتمكن شخص من الدخول لاستبدال حقيبتك بحقيبة تحتوى على حصى لا قيمة له ؟ »

وأرسل الملك فى طلب قائد الحرس وسأله فى هذا الأمر ، وأقسم قائد الحرس ، كما أقسم الجند قاطبة بأغلظ الإيمان أن أحدا لم يدخل دار حِفْظِ الكنوز طوال الليل ، أو حتى اقترب منها .

وصاح الملك فى دهشة : « ولكن ، كيف إذن نرى هذه الحقيبة

وقد امتلأت فى هـذا الصباح بذلك الحصى العديم القيمة ؟ » . و بدت دهشة مماثلة على وجه قائد الحرس .

وقال إيسوب : « فى وسعى أن أتولى شرح ذلك . لقد وجدناها هذا الصباح ممتلئة حصى ، لإنها كانت بالأمس ممتلئة حَصَى عندما وضعتها بنفسى هناك ! »

فأعاد الملك كروسوس عبارته فى دهشة بالغة : « كانت بالأمس ممتلئة حَصَى عندما وضعتها بنفسك هناك ! ولـكن قل لى لم رغبت فى وضع حقيبة ممتلئة حَصَى لا قيمة له فى دار كنوزى ؟ »

فأجاب إيسوب فى هدوء : « لـكى أطمئن على سلامتها »

فقال الملك غير مصدق ما يسمع : « لـكى تطمئن على سلامتها ! ولـكن قل لى ، بحق الآلهة أجمعين ، ما الذى يدعوك إلى الاهتمام بمصير حقيبة ممتلئة حَصَى ، لا يفيد منه أى إنسان ؟ »

فردّ عليه إيسوب مقلدا نبرة صوته : « وما الذى يُقْلقك — بحق الآلهة أجمعين — على مصير حقائب ممتلئة ذهباً لن يستخدمه أى إنسان ؟ ذلك أنه إذا لم يُسْتَخْدم ذلك الذهب أبداً ، أو يُستعمل فى تحقيق أى غرض نبيل ، فسيكون هو والحصى سيان ! فليس الذهب كنزا ثمينا فى حدّ ذاته ، و إنما الأشيـاء التى يستطيع الذهب شراءها هى التى تجعل له قيمته وأهميته . »

ولقد سُرَّ الملك كروسوس سروراً بالغا بذلك الدرس الذى لَقَّنَهَ إيسوب أياه ، وأمر خازنه بإزالة الحصى من حقيبة إيسوب ، وملئها بالعملة الذهبية المكدّسة فى دار الكنوز ، كيما يستعين إيسوب بها على قضاء كافة حوائجه ، واتعظ الملك بحكمة إيسوب ، وشرع ينفذ مشورته بإنفاق ذهبه على مملكته فى وجوه كثيرة ، ومن ثم ظفر رعاياه بالكثير من الخير ، وناله هو الشرف العظيم . ولم ينضب قط ذلك الكنز ، ذلك أنه كان يسدّ نقصه أبداً بالأمداد الجديدة المتواصلة من تراب الذهب ، المستخلص من مياه نهر باكتولوس أو من رمال شطيه . وهكذا عمّ الخير الجميع وازدهرت مملكة ليديا ازدهارا مطرداً .

وأقام إيسوب حقبة طويلة مع الملك كروسوس فى مدينة سارديس . وكان الملك يستشيره ويستنصحه فى كافة الأمور ، وأباح له شهود جميع مجالسه واجتماعاته ، وأكرمه لحكمته إكراماً عظيماً . واستطاع إيسوب فى غضون هذه الحقبة تأليف خرافاته ، التى تركها للملك كروسوس ملك ليديا .

تلك الخرافات التى تناقلها الناس على مر العصور ، وانطلقوا يسردونها ولا يفتأون يعيدون روايتها حتى يومنا هذا .

ولقد حققت هذه الخرافات نبوءةَ ذلك العرّاف الشيخ عندما قال

إنّ حكمة إيسوب ستنتشر ويتردد صداها فى العالم قاطبةً ، وأن اسمه سيبقى خالداً على مر العصور ، طالما ظلّت للأسماء على شفاه البشرِ مَعْنَى ودلالة .

وظل بايدان الراعى ملازماً إياه طوال هذه الفترة من الزمن . ولما أتمّ إيسوب وضع كتاب الخرافات ، قال للملك إنّ واجبه يقتضيه العودة إلى ساموس حتى يعرض على شعبها تقريراً عن سفارته . وهكذا أذن له الملك كروسوس بالرحيل ، وأرسله إلى جزيرة ساموس ، محمّلاً بالهدايا الوفيرة ، وتنويهاً بإعجاب الملك الشديد بإيسوب واعترافا بفضله عليه وبما أفاده من علمه وتجاربه ، فقد أقسم أن يدع أهل ساموس ينعمون بحريتهم آمنين ، ولا يُضَحُّون بشيء منها كما كان يبغى من قبل .

وعندما اجتمع أهل ساموس فى ساحة السوق ، روى لهم إيسوب ما انتهت إليه سفارته ، فاعتبروه محرّرهم ومنقذَهم ، وأسبغوا عليه فيضاً وافراً من التكريم والتشريف !

وعَرَضَ كبير القضاة على إيسوب منصبه ، آملا أن يتولاه عوضاً عنه.

ولكن إيسوب أَبَى ذلك وقال : « إنى أفضّل أن يَظَلَّ فى منصبه ذلك الذى كان كبيراً لقضاة ساموس ! فقد يأتى حين من الدهر ينسى فيه الناس فَضْلِي ، ولا يذكرون سوى وجهى وشخصى ، وفضلاً عن ذلك ، فإنّه ليس من الخَيرِ أن يُوحِيَ شخص كبير القضاة ، حتى لجاهلٍ غبيّ ،

بأن يسخر و يستهزىء من سَمْتِه وصورته . ولكنى سأظل مستعداً — ما دمتُ حياً فى جزيرة ساموس — لإسداء نصحى المخلص الأمين فى كافة الشئون ، وأن أفعل ذلك على أحسن وجه مستطاع » .

ومن ثَمَّ أطلق القوم على إيسوب لقب كبير فلاسفة ساموس . وشيّد له المواطنون داراً فى أجمل أحياء المدينة ، وعاش فى تلك الدار يصحبه رفيقه بايدان .

وتعاظمت شهرته حتى طبقت آفاق الوجود .

ورحل إيسوب و بايدان معاً ، وأتيا الكثير من غرائب الأمور ، وشاهدا الكثير من البلدان العجيبة ، وأطلعا على ما فيها من غرائب . وراح إيسوب يتحدث إلى الكثير من الناس سارداً خرافاته ، التى كانت تنير بصائرهم حكمةً وعلماً . ولكنه كان فى أعقاب رحلاته يؤوب إلى ساموس !

* * *

الفصل الثالث عشر

ووفد ذات يوم على إيسوب ، وهو فى جزيرة ساموس ، سفراء من لدن الملك ليكروس ، عاهل بلاد بابل البعيدة ، الواقعة على نهر الفرات ، يطلبون إليه — وقد طبقت شهرته الآفاق — أن يلبى دعوة مولاهم بالتوجه إلى بلاطه فى مدينة بابل .

ولقد أبدى أهل ساموس اهتماماً بالغاً بهذه الدعوة ، لأنهم كانوا يعتبرون إيسوب حكيمهم ومتنبئهم ومرشدهم فى كافة الشئون ، ولذلك آثروا أن يُثْنوه عن قبول هذه الدعوة . فالرحلة إلى بلاد بابل رحلة طويلة ، وإذا سافر إليها إيسوب ، فلا يعلم أحد إذا كانت عودته ميسورة .

غير أن إيسوب رأى من الخير أن يغادرهم ويتركهم بعض الوقت ، لعله يأتيهم بجديد إذا كتبت له الأوبة ، وفى ذلك قال لهم :

« لقد فرَّ أول إنسان شاهد الجمل ، خائفاً منه وجلا ، بيد أن الرجل الثانى دنا منه وخطا صوبه ، أما الثالث فقد أعدَّ للجمل رَسَناً ، أحاط به عنقه ، ثم راح يستخدمه فى حمل الأثقال . وهكذا أصبح مرأى الجمل مألوفاً ، حتى أننا إذا رأينا فى عرض الطريق جملا ، لم يُدِرْ أحد عنقه

لمن النظر فيه فاحصاً ، فقد أصبح حيواناً أليفاً مستأنساً ، وقد كان يبدو أول الأمر مخيفاً ومعناً فى الغرابة » .

وفضلا عن ذلك ، فقد رأى إيسوب من الخير لنفسه ولأهل ساموس جميعاً أن يعودوا فيخضعوا بعض الوقت لنفوذ رجل مثل إكسانثوس ، الذى كان يدعو نفسه فيلسوفاً ، وأن يحرموا — بعض الوقت — من خدماته ونصائحه ، هو الذى يدعوه الناس جميعاً فيلسوفاً ، فيما عدا شخصه هو ، ومن ثم يلمس الناس الفراغ الذى يُحدثه غيابه ، فيزداد تقديرهم له ، عندما ينجيهم من المحن التى سيورطهم فيها إكسانثوس وأتباعه .

وهكذا قبل إيسوب دعوة الملك ليكيروس ، وأبحر يصحبه بايدان فى سفن السفراء ثم نزل إلى الشاطئ عند إيفسيوس حيث كانت فى انتظارهم القافلة التى تقلهمّ إلى بابل .

ولقد نزلوا فى الطريق ببلاط الملك كروسوس ، الذى استقبل إيسوب بمظاهر الغبطة البالغة ، وأمطره بهداياه ، حتى لقد تأثر السفراء تأثراً عظيماً بذلك الإجلال الذى يضمره له ذلك الملك القوى . وأقام إيسوب عدة أيام فى بلاط الملك كروسوس .

وكان الملك كروسوس فى ذلك الوقت يعانى كرباً شديداً ذا صلة بذهبه ، فقد ظل الجانب المتبقى فى دار نفائسه عظيماً ، وأخفى القدر الذى

نقله فى مكان سرى ، حتى إذا وقعت دار النفائس فى يد أحد أعدائه يوما ما ، كان فى الجانب المحفوظ بذلك الموضع السرى ما يكفيه من الذهب لقضاء حاجاته ومطالبه . وقد أعانه أحد وزرائه على إخفاء ذلك الكنز الجديد ، صحبه أثناء إيداعه ذلك المكان السرى . وكان ذلك الوزير هو الشخص الوحيد ، فيما عدا الملك ، الذى عرف مكان ذلك القدر من الذهب .

فلما زار الملك كروسوس المكان بمفرده فى مناسبة تالية ، اكتشف ضياع الكنز . وعلى الرغم من أنه كان واثقا من أن الوزير هو الذى سرق الكنز ، إلا أنه لم يتحدث إليه بعد فى شأن ذلك الاكتشاف ، فقد كان متأكدا من أن الوزير سوف يعمد إلى الاختفاء والهجرة إلى قطر آخر ، إذا رأى أنه أصبح موضع اتهام . ولقد كان الملك كروسوس من الفطنة والذكاء بحيث كان يتوقع مثل ذلك من وزيره ، ولو أن شيئا من ذلك تم إذن لضاع عليه كنزه وفقده إلى الأبد . وفضلا عن ذلك ، فإنه حتى لو أمر بزجه فى السجن لا نكر التهمة إنكارا شديدا ، وكان من استرداد كنزه أمرا بعيدا .

وما أن سمع إيسوب بهذه القصة حتى نصح الملك قائلا :

« استدع وزيرك ، ولا تحدثه بشىء عن الكشف الذى اهتديت

إليه . وإنما أظهر له مودتك العظيمة وثقتك البالغة . وقل له أنك غير مرتاح إلى أن القدر المخبوء من الذهب فى المكان السرى ، قدر كاف ، ولذلك فأنت معتزم فى مساء الغد التوجه إلى ذلك المكان لزيادة الكنز المخبوء فيه ، حتى يصبح ضعف ما هو عليه الآن . ولا شك أنه عند ما يسمع ذلك سيتوجه بنفسه الليلة لرد الكنز الذى سرقه آملا فى أن يتمكن فيما بعد من سرقة قدر من الذهب أعظم . »

وهكذا فعل الملك كما نصحه إيسوب . فأرسل فى طلب وزيره ، وأطلعه على خطته الجديدة ، بأن أنبأه بعدم ارتياحه إلى أن القدر المخبوء من الكنز فى ذلك المكان السرى ، قدر كاف ، ولذلك فقد انتوى مضاعفته .

ورحب الوزير بفكرة الملك ترحيبا بالغا .

وفعل كما قدر إيسوب ، عند ما حمل فى نفس الليلة إلى المكان السرى ما كان قد سرقه من الذهب . وكان يناجى نفسه قائلا « لن يعرف الملك أنه قد سبق لى أخذه ومن ثم فسيتضاعف مغنمى »

ولكن حدث فى الليلة التالية ، أن توجه الملك إلى المخبأ السرى ، ونقل منه الكنز إلى مكان آخر أمعن فى السرية ، لا يعرفه أحد سواه .

ولما تم له ذلك ، أمر بأن يمثل الوزير بين يديه ، وناقشه فيما اقترف

من جرم ، فما كان من الوزير إلا أن اعترف بذنبه . وكاد الملك أن يقذف بوزيره الخائن مكبلا بالسلاسل والقيود إلى غياهب السجن ، إلا أن إيسوب رجا من الملك أن يكون به رءوفا ، فاقتصر على إعفائه من منصبه ونفيه من مملكته ، وأما إيسوب فقد وهبه كنزا كذلك الذى كان قد أخفاه فى المكان الأول .

وقال إيسوب للملك كروسوس « أو تحسب أن امتلاكك لكل هذا الذهب يجعلك سعيدا حقا ؟ »

وروع الملك لهذا السؤال وقال « أنه لغريب حقا أن توجه لى مثل ذلك السؤال . وفقد وفد على بلاطى منذ زمن صولون الحكيم الأثيني وأطلعته على كنوزى جميعها . فما كان منه إلا أن سألنى نفس هذا السؤال فلما حدثته بسعادتى ، أجاب أنه ما من رجل يمكن أن يكون سعيدا إلا بعد موته . وغالبا ما أدرت فى خاطرى هذه الاجابة . ولكن قل لى : أوتحسب أن المستقبل يضمر لى فاجعة رهيبة ؟ »

فقال إيسوب « من ذا الذى يستطيع أن يستشف ما يخبؤه المستقبل أو ما تعتزمه الآلهة ؟ » ومع ذلك فقد كان إيسوب محقا ، ذلك أن أحدا منا لا يستطيع أن يعرف ما يخبؤه الغيب لنا ؟ حتى ولا أولئك المتنبئون . وكل ما يسعنا صنعه هو أن نظل أيقاظا متأهبين . فالسعادة شيء عجيب ،

وهى لا تسعى دائما للاعيان وكبار الأثرياء . ولا شك فى أن ثروتك العظيمة تسبب لك الكثير من القلق والضيق ، وهى دون شك تحمل الملوك الآخرين على الموجدة عليك والغيرة منك . »

وفى يوم آخر من الأيام التى أنفقها إيسوب فى مدينة سارديس ، لاحقه رجل مخبول ، أثناء سيره وحيدا دون حراسة ، وراح يصب عليه لعناته وشتائمه كما راح يقذفه بالحجارة . وتوقف إيسوب عن السير ، والتفت إلى المخبول قائلا « أشكرك يا صديقى لما صنعته من أجلى ، لست كما ترى إلا رجلا مسكينا ، ولكننى — على الرغم من فقرى — عامل يستحق الأجر الذى يناله . إليك هذا المال ، فهو على قلته مكافأتك ، وهو ما أستطيع تقديمه لك . ولكن هنا لك رجلا ثريا . وإذا أنت قصدته فصنعت مثل ذلك معه ، فلا ريب عندى فى أنه سيدفع لك مكافأة أكثر مما أطيق . »

وهكذا جرى المخبول خلف الرجل الثرى ، وانطلق يصوب نحوه شتائمه وأحجاره .

ولكن خدم الرجل الثرى ، الذى كانوا يسيرون خلفه ، جروا وقبضوا على المخبول وضربوه ، حتى تخلص من جنونه ، ومن ثم انتقم إيسوب لنفسه

وسرعان ما غادر إيسوب الملك كروسوس مواصلا رحلته .

ولقد أبدى بايدان تعجبه الشديد من الملك كروسوس وأساليبه ، ذلك أنه حتى بعد أن أظهره إيسوب على قيمة ذهبه الحقيقية ، فإنه واصل خطته فى جمع الذهب ، وأوقف إنفاقه فى تحقيق الأهداف والغايات النبيلة كما كان يفعل أول الأمر ، بعد تلقيه ذلك الدرس القيم عن إيسوب. وقال إيسوب لبايدان أنه من المستحيل تغيير طبائع البشر . واستطرد يقول « كان لرجل قطة ، وكان مولعا بها ، حتى لقد طلب من الآلهة أن تحيلها امرأة ، فلما تم ذلك تزوجها ، ولكن حدث فى أثناء حفل القران أن قفزت الزوجة فجأة محاولة افتراس الفئران ، فتلك هى طبيعتها الحقة ، وشعر الأضياف المدعوون لحفل الزواج بأنهم أهينوا وأسىء إليهم أساءة بالغة . »

وسارت القافلة مخترقة بلاد ليديا وفريجيا ، ثم بلغت سيلسيا مع الربيع .

وهناك فى سيلسيا — حيث الربيع الدائم — تظهر الآلهة فينيس أو عشتروت وعشيقها آدونيس ، فيجددان بظهورهما معاً مظاهر الحياة فى الوجود ذلك أن عشتروت قد فتنت بحب آدونيس ، وهو قد امتلأت نفسه بحبها ، وقد عاش الحبيبان الجميلان معاً سعيدين ، وجعلا تلك البلاد موطن الربيع الدائم . ولكن حدث ذات يوم أن خرج آدونيس للصيد فصرعه ظبي وحشى ، فانسحب ظله على حقول الأليزية ، ليستقر هناك مع

الظلال الأخرى . ولما كان حبيب عشتروت لقى حتفه ، فقد أقبل الموت والشقاء كذلك على هذه الربوع . ولكن الآلهة أوحت لعشتروت أن تعبر نهر ستيك ، نهر الجحيم ، لتعود بحبيبها إلى الأرض من تلك الأقاليم النائية ، بيد أن قوى تلك الآلهة لم تكن معادلة لقوى المقادير ، فلم يستطع آدونيس البقاء على الأرض إلى ما شاء الله ، وإن كانت تجب عودته إلى حقول الأليزيه ، بنفس الطريقة التى اتبعها عند توجهه لأول مرة لملاقاة الظلال هناك . وهكذا ففى كل عام ، يترك آدونيس عشتروت بعد صحبة ستة شهور متوجهاً للصيد ، حيث يقتله نفس الظبى البرى ، وفى كل عام تتوجه عشتروت للبحث عنه . وهكذا يتجدد الربيع والصيف فى سيلسيا عندما تسترد عشتروت حبيبها آدونيس ، فإذا ما قتله الظبى البرى ، عاد الخريف وأقبل فى أعقابه الشتاء . وهكذا تتجدد الفصول فى سيليسيا على هذا المنوال كل عام .

فلما تجاوزا بلاد سيليسيا بلغا نهر الفرات . وهنا تركا القافلة وركبا سفينة سارت مستعينة بالشراع والمجاديف أياماً كثيرة حتى بلغت مدينة بابل العظيمة وحملق إيسوب وبايدان متعجبين من ضخامة الأسوار المحيطة بالمدينة ، وهى تمتد على مدى البصر من كلا الجانبين . وكانا وهما يدنوان يريان هـــذه الأسوار الشبيهة بالهضاب الحمراء وكأنها تكاد تنيخ فوقهما

وكانت هذه الأسوار مصنوعة من الطوب ، ويكاد يبلغ ارتفاعها مائتى قدم . وقادهما مرشدهما حتى اخترقا هذه الأسوار من ثغرة أشبه ما تكون بالنفق . ذلك أن الأسوار كانت من السمك والغلظة بحيث كانت تسمح لخمس عربات أن تتسابق فوق قممها ! وسرعان ما بلغا أعتاب قصر ليكيروس الذى كان يطل على مياه نهر الفرات .

وكان هنالك حشد من الضباط والجنود فى استقبال إيسوب ، ذلك أن السفراء كانوا قد أطلقوا الرسل ليسبقوهم إلى الملك ليكيروس ، ويخبروه بمقدمهم .

وتولى كبير الضباط اصطحاب إيسوب ، فصعد به الدرج إلى القصر حيث كان الملك ليكيروس جالساً ينتظر مقدمه . ورحب الملك بإيسوب فى ابتهاج عظيم ، وأجلسه إلى جانبه ، وظل يتحدث معه حتى ساعة متأخرة من الليل .

ولقد كان من عادة ملوك ذلك العهد أن يتراسلوا بالأحاجى والألغاز فإذا عجز أحدهم عن حل تلك الأحاجى ، حق عليه تقديم غرامة معلومة لمرسلها . فإذا كانت الإجابة عن الأحجية صحيحة ، فإن مقترح الأحجية يلزم بدفع الغرامة . وكانت هذه الغرامات مبالغ ضخمة من المال تصل إلى وزنة من الذهب ، أى إلى ما زنته مائتين وخمسين رجلا .

ولقد نال ليكيروس ملك بابل توفيقاً عظيماً فى اقتراح هذه الأحاجى وفى حلها ، وكان إيسوب يساعده فى ذلك ويؤازره . ومن ثم عقد له لواء النصر على غيره من الملوك ، وصار ذائع الصيت فى وضع الأحاجى وفى حلها على السواء .

ولقد أراد الملك ليكيروس أن يختبر إيسوب ، فجمع كل الحكماء والسحرة ، فطرحوا على إيسوب كثيراً من الأسئلة ، فلم يتمكنوا من إفحامه .

ودهش بايدان كثيراً لما اتصف به من حكمة .

ولكن إيسوب قال له « إن الحقيقة تكمن خلف كل حكمة . والحقيقة هى أعظم شىء فى الوجود بأسره ؛ ومن الضرورى ، لكى نهتدى إلى الحقيقة ، أن نزن الأشياء كما نراها نحن بأعيننا لا أن نتأملها فننظر إليها متأثرين بما صنعه أناس آخرون فى مثل هذه الظروف ، فنحاول اقتباس طرائقهم خبط عشواء شأن الكثيرين . ولقد صدق عرافى الشيخ عندما قال لى أن الشىء الذى له بداية لا بد وأن تكون له نهاية ، وأن الشىء الذى لا نرى منه سوى نهايته لا بد كانت له بداية . وإننا بالعودة فى بحثنا إلى البداية ، أو بتفكيرنا فى نهاية الأشياء ، إنما نظفر بالإدراك والفهم الصحيح ، ذلك أنه ليس هنالك ثمة شىء بلا بداية اللهم إلا قطعة الخيط التى نعد طرفيها نهاتين

« وإياك أن تنقل أفكار الآخرين وأعمالهم دون ما تدبر ، ذلك أن الشىء الذى يلائم بعض الناس أو ينسجم مع بعض الظروف ، ليس من الضرورى أن يلائم الظروف الأخرى ويناسبها .

« وإياك إياك أن تنقل أفكار الغير ، فلقد أبصر غراب ذات يوم نسرا ينقض على حمل فى المرعى فيحمله إلى وكره . وخيل للغراب أنه قادر أيضا على صنع ذلك . فحلق فوق قطيع من الأغنام . واختار لنفسه أسمنها وأكبرها ، لكى يحمله إلى عشه فريسة هنية له . وسرعان ما انقض الغراب على ذلك الحمل الممتاز بين سائر حملان القطيع ، الذى نذر لكى يقدم قرابين للآلهة ، وأعمل الغراب مخالبه فى الحمل ، وجاهد فى سبيل حمله . ولكنه لم يفشل فى حمله فحسب ، لضعف قوى ظهره وجناحيه عن نظائرها عند النسر ، ولكن الأدهى من ذلك أن مخالب الغراب ظلت عالقة بصوف فروة الحمل الكثة المعقدة ، بل والأشد تعقيدا من لحية بوليفيموس وهكذا ظل الغراب لاصقا بصوف الحمل ، كما لو وقع فى فخ ، إلى أن أقبل الراعى وأخرجه ووضعه فى قفص وأعطاه لأطفاله يلهون به » .

« وربما قال كثير من الناس أن هذا الغراب قد عاقبته الآلهة لمحاولته الاعتداء على حمل نذر ضحية من أجلهم ، فى حين أن الغراب قد عوقب حقا من أجل غبائه ، فقد حاول — وهو الغراب الزرى الحقير — أن يبدو فى صورة النسر النبيل » .

وقال بايدان « وما رأيك ، أيها الصغير الدميم ، فى تلك المباريات الغريبة التى يشترك فيها أولئك الملوك فيبعث بعضهم لبعض أحاجى يتولون حلها ويراهنون على ذلك بتلك الأموال الطائلة ؟ والرأى عندى أن الملك كروسوس ، الذى يدخر ذهبه فى دار الكنوز ولا يحاول استعماله ، ربما كان أعظم حكمة من هؤلاء . فما رأيك أنت ؟ » .

وابتسم إيسوب ورفع كتفيه ، ثم قال :

« أما عن رأيي ، أنا إيسوب ، فلا يهم كثيرا ، كما أنه ليس من الخير للمرء أن يصرح على الدوام برأيه فى الملوك وأعمالهم . ويروى أن الأسد ، وهو ملك الوحوش ، عزم ذات يوم على أن يرى كل رعاياه من الحيوان حوله ، فدعاهم جميعا إلى قصره . وما كان ذلك القصر سوى عرينه ، القذر الذى تفوح منه رائحة النتن ، التى زكمت أنوف الحيوانات جميعا . وكان الدب أول من أظهر تقززه بأن دلى خشمه . وكانت تلك الإهانة سببا فى استثارة الملك وإعلان غضبه ، وأمر بحبس الدب . وأبدى القرد ارتياحه لتصرف الملك ، وبالغ فى إطرائه وهو يمتدح عدالته ، وقوته ، ويقول أن الرائحة التى تفوح فى العرين هى نفس الرائحة التى تفوح فى بستان وقال أنه لم يحدث قط أن أينعت زهرة دون أن تكون إلى جانبها ثومة .

وقد بالغ في مديحه كثيراً ، ومن ثم لم يظفر برضاء الملك ، وإنما عوجل بالعقوبة .

وقال الملك عندما أبصر بالثعلب قادما « والآن ، قل ، أى شىء تشم ؟ قل ولا تتلجلج أو تداجى » .

واعتذر الثعلب من فوره ، بأنه مصاب بزكام . ومن ثم فهو لا يحسن الشم ! » .

فضحك بايدان ، ثم سأله « وما قولك فيما يدور بخلد الآلهة أنفسهم »

ففكر إيسوب هنيهة ثم قال « نشب خلاف ذات مرة بين الفيل ووحيد القرن ، وكل منهما فى أقليمه ملك على الوحوش ، وعزما على القتال فى سبيل السيادة . وقد اختارا اليوم والمكان ، عندما أبلغا أن القرد الإله جوبيتر يهبط من لدى الآلهة رسولا ، حاملا صولجان عطارد ، وأنه فى الجو يدنو ويقترب من البسيطة . فسأله الفيل فى كبرياء ، إذا ما كان قد أتى من عند الآلهة برسالة عن النزال المرتقب . فقال القرد « أى نزال هو ؟ إننى لم أسمع قط بأى قتال ! » .

فاستطرد الفيل مفسرا وشارحا « القتال الذى أنا موشك أن أشترك فيه مع وحيد القرن ، الذى تجاسر فتحدى سيادتى ! فما هو رأى الالهة فى ذلك ؟ »

فهز القرد رأسه وأجاب قائلا « إن الالهة لا يعرفون عن ذلك الأمر شيئا ! » .

فقال الفيل فى دهشة « لا يعرفون عن ذلك شيئا ؟ فلم إذن بعثوا بك رسولا ؟ » .

فأجاب القرد « لقد أرسلت لكى أزاحم بضع نملات على عود من الكلأ . أما فيما يتعلق بمسألتكما ، فإن شيئا بعد لم يرد عنها إلى مجالس الالهة . وأنت لا شك تعلم أن المخلوقات ، جليلها وحقيرها ، كلها سواء فى نظرهم ! » .

* * *

الفصل الرابع عشر

ومنح الملك ليكيروس البابلى إيسوب قصراً لإقامته ، وخدما يتولون قضاء مطالبه . وكان إيسوب يدعى كل يوم إلى قصر الملك ، ويشهد مجالسه . وهكذا استقر بإيسوب المقام فى بابل .

ثم تزوج إيسوب . ومر زمان ، ولم ينجب أطفالا ، فتبنى طفلا يتيما نبيل الأرومة يدعى إينوس وقد نشّأه تنشأة كريمة رقيقة ، وحاطه بقسط وفير من الرعاية ، ومحضه خالص محبته كما لو كان ابنه حقاً . وعلمه بعناية لا تقل عن العناية التى حضنته بها أمه فى تعليمه . فلما كبر الغلام وترعرع ، أعطاه كل ما تمناه ، وكل ما كان يعطيه لابنه الحقيقى ، ذلك أنه كان يعتبره ابنه . ومهما يكن من أمر فإن إينوس ، وقد أصبح شاباً ، تآمر مع زوجة إيسوب على سرقته وخيانته . فلما وقف إيسوب على ذلك وتجلى له الدليل الساطع على جرمهما ، طردهما من داره .

وأراد إينوس أن ينتقم لنفسه ، فزور خطابات توحى بأن إيسوب كان على صلة خفية بأولئك الملوك الذين كانوا ينافسون الملك ليكيروس فى إعداد الأحاجى وحل طلاسمها .

فلما تم له تزوير تلك الخطابات ، بل وتوجها بتوقيعات أولئك الملوك وأختامهم ، طلب مقابلة الملك فأذن له بذلك .

ولما صار فى حضرة الملك ، ألقى بنفسه عند قدميه وقال « دامت حياتك أيها الملك العظيم إلى أبد الآبدين ! »

وأمره الملك بالنهوض على قدميه ، وسأله عما يريد ، فقد كان يعرف أنه الإبن المتبنى لإيسوب وإن لم يدر شيئاً عن جحوده .

وقال إينوس « لقد عثرت على بضعة خطابات لست أستطيع فهمها . ولما كان والدى إيسوب مسافراً فى رحلة ، ولما كان اسم جلالتكم قد ورد فى تلك الخطابات ، فقد أحضرتها لكم ، حتى إذا كانت مما يهمكم أمكنكم الوقوف على فحواها ، وإذا كانت مما لا يعنيكم استطعتم شرحها لى ، وإخبارى إذا كان فيهما ما يلزمنى صنعه قبل أوبة والدى » .

فسأله الملك ليكيروس متلهفاً « وهل أحضرت معك تلك الخطابات ؟ »

فقال إينوس « نعم ، لقد أحضرتها معى ! »

وطالع الملك الخطابات فتعاظم غضبه وسخطه ، فقد عرف منها أنها خطابات موجهة من ملوك الأقطار القريبة ، وقد اتفقوا فيها مع إيسوب على أن يبعث إليهم بحلول كافة الأحاجى التى قد يوجهها إليهم الملك

ليكيروس ، وكذلك اتفقوا على أن يعد إيسوب إجابات خاطئة على الأحاجى التى يوجهونها إلى ليكيروس ، وبهذه الطريقة يدفع لهم الملك المبالغ الضخمة لعجزه عن حل أحاجيهم ، فى حين يتلقون منه مبالغ أخرى طائلة نظير استطاعتهم حل ما يردهم من أحاجيه

وعلى الرغم من تعاظم سخط الملك واشتداد غضبه ، فقد تمالك نفسه أما إيسنوس وأخفى انفعالاته ، بل وأخبره أن هذه الخطابات ليست ذات بال ، وإن كانت تخصه وحده ، ثم صرف إينوس من حضرته بكثير العبارات الرقيقة التى كان يلقيها دون اهتمام كما لو كان الأمر جد تافة ، ومع ذلك فقد نصحه ألا يتحدث بشىء من ذلك إلى أحد .

ولكن اينوس أسعده أن يلمح ومضة الغضب فى عينى الملك ، فقد تأكد له أن مكيدته قد نجحت ، وأنه بذلك سينتقم من إيسوب .

ولم يكد إينوس ينصرف من حضرة الملك ليكيروس ، حتى انطلق هذا فى سورة غضب رهيبة ، وأرسل فى طلب أحد كبار ضباطه وكان يدعى هيرميبوس ، وأمره بأن يركب جواده ويخرج من المدينة لاستقبال إيسوب ، والإجهاز عليه دون إيقافه على السبب ، وقد أصدر الملك هذا الأمر دون التماس برهان آخر على خيانة إيسوب ، أو حتى دون انتظار أوبته ، كيما تتاح له فرصة الرد على هذه التهمة المتعلقة باتصالاته الخفية بمنافسى الملك .

وهكذا استفسر هيرميبوس عن الطريق الذى سيسلكه إيسوب فى عودته من رحلته ، ثم ركب لملاقاته ، وقد التقى به وهو عائد إلى بابل وكان موضع لقائهما قريباً من المدينة ، وهو وادى مقابر نبلاء بابل .

ولقد كان هيرميبوس صديق إيسوب ، ولقد أعانه إيسوب كثيراً فى الاهتداء إلى جواهر الملك التى كانت وضعت فى حراسته وكان قد سرقها أحد مساعديه .

ولكنه أراد أن يتظاهر أمام الجنود بحرصه الشديد على تنفيذ ما صدر إليه من أمر ، ومن ثم فقد أمر جنوده بإلقاء القبض على إيسوب وأتباعه ومن جملتهم رفيقه بايدان ، وأمر بأن يمثلوا أمامه . وقال لإيسوب على مسمع منهم أن الملك أمر بقتله . ثم سار به بعيداً ، وتوارى بين القبور ، تاركاً الجند عند الطريق يتولون حراسة أصحاب إيسوب . فلما صار فى موضع متوار بين تلك القبور ، قاد هيرميبوس إيسوب إلى داخل أحد الأضرحة ، ثم أخبره أن الملك قد أمر حقاً بقتله ، ومع ذلك فلن يفعل هو ذلك ، تذكراً منه لذلك الجميل الكبير الذى أسداه إليه فيما مضى ، وإبقاء على الصداقة القائمة فيما بينهما . ومن ثم فقد أخفى هيرميبوس إيسوب داخل ذلك الضريح ، ثم عاد إلى حيث وقف أتباعه ، فسار بهم فى حراسة الجند إلى بابل ، حيث أعلن أن إيسوب قد لقى مصرعه .

وأمر الملك ليكيروس بإطلاق سراح الأسرى ، اذ لم يكونوا مسئولين بأية حال من الأحوال عما آمن به من خيانة إيسوب ، ولكنه صادر دار إيسوب وممتلكاته ، وكافأ هيرميبوس .

وفى نفس تلك الليلة امتطى هيرميبوس جواده ، وتوجه خفية إلى الضريح الذى اختفى فيه إيسوب بين القبور ، حيث حمل إليه طعاماً ، ولقد استطاع هيرميبوس الخروج من المدينة بعد إغلاق أبوابها ليلا ، وذلك لأنه كان ضابطاً عظيما لا يعوقه عائق عن مغادرة المدينة فى أى وقت . وظل يصنع ذلك بانتظام شهوراً طويلة ، بينما انتشرت فى العالم الأنباء القائلة بموت إيسوب .

فلما سمع الملك نيكاتانابيس ، ملك مصر ، بموت إيسوب ، ظن أن الفرصة أصبحت ملائمة لاستعباد الملك ليكيروس وجعله أحد أتباعه ، وحمله على دفع الجزية له ، طالما أصبح الآن وحيداً ، لا يجد إلى جانبه من يشاوره فى شىء حتى فى حل الأحاجى والألغاز .

وجمع ملك مصر كل سحرة هيليو بوليس وحكمائها ، وطلبوا إليهم إعداد أحجية لا يستطيع أن يجد لها بشر حلا ، فلما صنعوا ذلك ، أوفد الملك نيكاتانابيس السفراء إلى ليكيروس ملك بابل ، يحملون إليه خطابات التحرش والاستهزاء ، ولقد تحداه فى تلك الخطابات أن يبعث إليه بمهندسين

معماريين يستطيعون أن يشيدوا له حصناً فى الهواء ، كما تحداه فى الوقت نفسه ، أن يبعث إليه رجلا يستطيع أن يجيب على ما يوجه له من أسئلة .

وعندما قرأ الملك ليكيروس هذه الخطابات ، اضطرب اضطرابا بيناً ، وأرسل فى طلب حكماء بابلا وعلمائها قاطبة ، وحدثهم بما انطوت عليه خطابات الملك نيكتانابيس من تحد . فلما سمعوا ذلك اضطربوا مثلما اضطرب الملك ليكيروس وأغلق عليهم ، ذلك أن أحداً منهم لم يستطع حل اللغز على وجهه الصحيح . وعلى الرغم من أنهم راحوا عدة أيام يحاولون ذلك ، فإن أحداً من بينهم لم يهتد إلى الاجابة الرشيدة .

وشعر الملك ليكيروس عند ذاك بأسف شديد على فقد إيسوب . ومأن سمع هيرميبوس بندم الملك ، حتى بادر فاعترف بأنه لم يقتل إيسوب كما أمر ، نظرا لما يقوم بينهما من صداقة وطيدة ، وإنما أخفاه فى ضريح بوادى القبور .

وطغى الفرح والسرور على الملك لدى سماعه ذلك النبأ . وأمر هيرميبوس باستقدام إيسوب سرا إلى القصر ، على أن يكون ذلك ليلا ، حتى لا تنتشر الأنباء بأنه لا يزال على قيد الحياة .

وعند ما صار إيسوب فى حضرة الملك ، أبدى له غبطته العظيمة

برؤيته وقال أنه عفا عنه لاتصالاته السرية مع منافسيه ، فقال إيسوب مندهشا « أية اتصالات سرية تلك ؟ »

فهز الملك رأسه فى حزن . ثم أجاب قائلا « أنها تلك الاتصالات التى كنت تقوم بها مع منافسىّ ، فتطلعهم على الاجابات الصحيحة لما أعده لهم من أحاجى وألغاز . لقد أحسست بالتعاسة البالغة لمجرد ظنى أنك تخوننى على هذه الصورة ! »

فقال إيسوب « ولكننى لم أخنك مطلقا ؟ »

فهز الملك ليكيروس رأسه ، ثم قال « ان لدى ، وآأسفاه ، الدليل على ذلك . ولكن لنكف عن هذا الحديث مرة أخرى . ومهما يكن من أمر ما حدث فى الماضى ، فأصدقنى الوعد أن تكون مخلصا لى الآن عدنى وأقسم بأغلظ الإيمان ، ولن تدير الحديث عن الماضى مرة أخرى . »

فقال إيسوب « بل انى أرى ، على النقيض من ذلك ، أن نجلو هذا الأمر الآن ! هات برهانك »

فأخبره الملك ليكيروس بأمر الخطابات التى أحضرها إليه إينوس فى براءة مطلقة ، تلك الخطابات التى أوقفت الملك على المؤامرة . فقال إيسوب محنقا « . . . فى براءة مطلقة ! »

فكرر الملك لـيكيروس عبارته « نعم ، فى براءة مطلقة . أو ليس هو ولدك بالتبنى ، حتى تنطبق عليه هذه الصفة ؟ »

فضحك إيسوب ، ثم قال « الآن بدأت أفهم الموقف ، لقد كان إينوس ولدى المتبنى ، إلى أن اكتشفت أنه سرقنى وخاننى ، فطردته من دارى نتيجة لذلك . ولا مراء فى أنه أقدم على هذا الجرم فى براءة تامة ، انتقاما منى . وكنت قد انطلقت فى رحلتى تلك لأخفف من الحزن الذى أصابنى بعد ذلك الحادث ، هل أستطيع رؤية تلك الخطابات ؟ »

وأطلعه الملك لـيكيروس على الخطابات . وانطلق إيسوب يضحك قبل اتمام تلاوة أولها ثم قال « أنه يقول فى هذا الخطاب على لسان ملك نينفيه ، أنه موفد إلى رسولا متنكرا بمجرد أو بى من رحلتى . »

فقال الملك لـيكيروس متسائلا « وماذا فى ذلك ؟ »

فأجاب إيسوب بقوله « لقد كتب هذا الخطاب قبل أن أزمع القيام برحلتى ، بل وحتى قبل أن اكتشف خيانة إينوس . فكيف إذن استطاع هذا الملك أن يعلم بأمر رحلتى قبل أن أبدأها بشهر من الزمان ، أى فى وقت كنت لا أفكر البتة فى القيام بهذه الرحلة ! ! ؟ »

فسأله الملك لـيكيروس متلهفا « ماذا تقول ؟ »

فقال إيسوب « أنها ترهات مختلقة ! مجرد أكاذيب ملفقة ! وأنها لأكاذيب دنيئة حقيرة ! »

واستشاط الملك غضبا لخيانة إينوس ، ثم قال « على باينوس . . »

فقال إيسوب « لا تفعل هذا . بل دع إينوس ينتظر . فالأمر العاجل الآن هو تحدى الملك نيكتانابيس . ذلك أننا إذا لم نواجه هذه المسألة مواجهة سريعة ، خصوصا بعد تريث أيام كثيرة ، فسيسخر منا سفراؤه ، الذى سيقولون أننا لم نجرؤ أن نقطع الأمر بلا أو بنعم ! »

وهكذا أظهره الملك لـيكيروس على رسائل الملك نيكتانابيس ، التى حملها اليه السفراء المصريون تحديا له ، وراح الملك ينظر اليه نظرات فاحصة قلقة وهو يطالعها .

فلما أتم إيسوب تصفح الرسائل ، انطلق ضاحكا ، الأمر الذى سرى عن الملك وأراحه كثيرا . وراح إيسوب يفكر متأملا دقائق قليلة ثم طلب إلى الملك أن يأمر بعودة السفراء إلى الملك نيكتانابيس ، قائلين له أن المهندسين المعماريين الذين سيعهد اليهم ببناء صرح مشيد فى الهواء ، سيوفدون اليه فى الربيع القادم ، وأنهم سيشيدون للملك نيكتانابيس ذلك الصرح اذا أعدا مواد البناء . كما يستطيع هؤلاء السفراء أن يخبروا عاهلهم

أن الملك لـيكيرس و سيبعث اليه فى الوقت نفسه رجلا فى وسعه أن يجيب على ماعسى أن يوجه اليه من الأسئلة .

ثم همس فى أذن الملك فلا يسمعه أحد حتى بايدان وهيرميبوس . ولما انتهى همسه ، انفجر الملك ليـكيروس ضاحكا وهو يصفق غبطة وسرورا .

وقال إيسوب « و إنه لينبغى فوق ذلك كله ، ألا يعرف أننى مازلت حيا ، على الأقل حتى يعود السفراء إلى الملك نيـكتانابيس فى مصر . »

وهكذا استدعى الملك ليـكيروس سفراء الملك نيكتانابيس فى اليوم التالى ، فلما اجتمعوا لديه خاطبهم — كما علمه إيسوب — بما يلى :

« عودوا إلى مولاكم وعاهلـكم الملك نيكتانابيس ملك مصر ، وقولوا له إننا نقبل تحديه الملـكى ، فيما يتعلق بالمهندسين المعماريين ، وفيما يتصل بإيفاد رجل يجيب عن كل أسئلته ، على شرط أن أدفع الغرامة إذا عجز عن الإجابة . أما فيما يتصل بالمهندسين المعماريين ، فقـد طالعنا الرسالة فى عناية بالغة ونستخلص منها أن علينا إرسال المهندسين المعماريين والعمال الفنيين ، وأن عاهلـكم وملـككم سيعد مواد البناء و يجهزها فى الموضع الذى يريد إنشاء الحصن عنده » .

وتعجب السفراء تعجبا شديدا لأنهم أدركوا أن هـذا الأمر من المستحيلات !

ومع ذلك فقد أجابوا قائلين إن الملك نيكتانابيس سيعد المواد اللازمة لبناء مثل ذلك الصرح ، متى أوفد الملك ليـكيروس من ينهضون بعبء العمل . وأنهم يستطيعون أن يعدوا باسم عاهلهم .

وقال الملك ليـكيروس « حسن جدا ، ولتقولوا لمولاكم إذن أن الموسم قد أوشك أن ينتهى ، وفضلا عن ذلك فإن رجالى المعماريين ، منهمكون الآن فى بناء عدة حصون وقصور وأبنية أخرى لى فى الهواء فى بعض أطراف مملـكتى ، ومن ثم فلا أستطيع أن أرسلهم لمصر فورا . ولـكن ، متى حل الربيع ، بعثت بهم لـكى يشيدوا ذلك الصرح الهوائى على النحو الذى يريده الملك نيكتانابيس وسيقـدم معهم الرجل الذى سيتولى الإجابة على كل أسئلتـكم » .

ثم قدم للسفراء هدية ، وصرفهم من حضرته .

ولقد أحس السفراء باضطراب شديد كما تسلوا تسلية واضحة . فقد خيل إليهم أن الملك ليـكيروس قد أشرف على الجنون . ولقد سخروا منه فى أعماق قلوبهم سخرية شديدة — عندما قبل التحدى بصنع ما كانوا يرونه أمرا مستحيلا . ولو أنه اقتصر على رفض التحدى ، لوجب عليه أن

يدفع الرهان وحده ، ولكنه ، وقد قبل التحدى ، أصبح ملزما بسداد ثلاثة أمثال الرهان طبقا للشروط المبينة فى الرسالة ، المبلغ الذى يوشك أن يدفعه هو لا ريب مبلغ عظيم من المال مقداره ألف قطعة ذهبية .

وما أن خرجوا من بابل حتى انطلقوا يضحكون ساخرين . وظلوا طوال طريق عودتهم إلى مصر يضحكون ويتندرون حتى عادوا إلى الملك نيكتانابيس ، وأخبروه أن الملك ليكيروس قد قبل التحدى بل لقد طلب من الملك نيكتانابيس أن يهىء له مواد البناء .

وضحك الملك نيكتانابيس ضحكا متعالياً ، فقد تأكد لديه أن الملك ليكيروس قد جن جنونه حقاً . ولقد ابتهج كثيراً عندما صور لنفسه المحنة التى سيواجهها متى وافى الربيع . وأمر بقطع أضخم الحجارة وأثقلها من الصخور ، ونقلها إلى مكان يقع خارج عاصمته القائمة على ضفاف نهر النيل .

وأرسل الرسل الى هيليوبوليس حيث يقيم السحرة والحكماء ، وأمرهم بأن يعدوا أكثر الأسئلة تعقيداً وعسراً .

ورد الملك ليكيروس على ايسوب أملاكه التى كان قد صادرها ، وزاد عليها ، وأمر بأن يمثل اينوس بين يديه ، وأن يترك لإيسوب التصرف

فيه على النحو الذى يرضيه ، بيد أن ايسوب لم يلبث أن عفا عنه ، وراح يعامله من جديد كما لو كان ولده .

ولكن عطف ايسوب وكرم نفسه كانا شديدى الأثر فى نفس اينوس ، الذى اشتد به تأنيب الضمير فلم يلبث أن مات بعد قليل .

وحزن ايسوب على فقده !

* * *

الفصل الخامس عشر

وما كاد سفراء الملك نيكتانابيس يبرحون بابل فى طريق عودتهم إلى مصر ، حتى بدأ إيسوب يعمل تأهباً لإفساد التحدى الذى ووجه به ليكيروس ، ملك بابل والفرات .

وبدأ بإرسال بايدان إلى إحدى المناطق الجبلية لكى يجمع عدداً كبيراً من أفراخ النسور . فلما تم له جمع تلك النسور الصغيره ، أمر بوضعها فى قفص كبير . أمر بإنشائه فى مكان خفى على مقربة من مدينة بابل . ولقد حفظ أفراخ النسور فى القفص على هذا النحو ، حتى إذا كبرت أصبحت مستأنسة ، وعرفت الذين يتولون رعايتها . وبينما كانت تترعرع وتزداد قوة ، وتتعلم الطيران ، كان هو يدربها على حمل الأثقال ، التى كان يزيدها تدريجياً كلما ازدادت الطيور قوة ، وكانت لألفها واستكانتها واستئناسها تطيع أصوات حراسها والمكلفين برعايتها . وأخيراً أصبحت فراخ النسور ، بعد شهور قلائل، نسوراً شابة قوية . وقد اشتدت أجنحتها قوة وعزامة ، فعلما على التآزر والتضافر كأن تتعاون كل ثلاثة أو أربعة منها على حمل سلة ممتلئة فى الهواء وتحلق فى الجو ثم تعود بها إلى الأرض ، وهى لا تزال حاملة سلالها .

وكانت النسور تصنع ذلك كله بأمر يصدره إليها صوت بايدان ، الذى نيطت به رعايتها . فكانت تحلق بسلالها فى الجو عالياً وتطير حائمة حول المكان الذى يقف هو فيه ، دون أن تهبط أو تحط على الأرض . وعود الطيور على ألفة الأصوات والضوضاء والجلبة ، فتواصل طيرانها كما يأمرها بايدان دون أن تضطرب أن تذعر أو يداخلها الخوف والفرق .

فلما تأكد إيسوب من كمال تدريب الطيور ، التى أصبحت نسوراً جميلة المنظر قوية الأسر وشديدة القوى ، نتيجة للغذاء الدسم الذى تظفر به ، والعناية والاهتمام البالغين اللذين تحظى بهما ، قال للملك ليكيروس أنه أصبح مستعداً للتوجه إلى نيكتانابيس ملك مصر ، استجابة لتحديه ، ولما اطلع الملك ليكيروس على ما انتهى إليه استعداده ، سر سروراً عظيما ، وتسلى تسلية بالغة فقد علم الآن علم اليقين أن إيسوب مستطيع أن يذهل الملك نيكتانابيس .

فلما هيئت كل هذه الأمور ، أعدت قافلة عظيمة ، وبدأ إيسوب رحلته عبر سوريا متجها صوب شاطىء البحر ، حيث يبحر فى سفينة إلى مدينة منف ، عاصمة ملك مصر ، ولقد استقبل جميع أهل هذه البلاد إيسوب ، استقبالا ينطوى على التكريم العظيم . ولما كانوا يعلمون بأمر تحديه لملك مصر ، فقد سألوه أن يطلعهم على الطريقة التى سيجيب بها .

ولـكنه لم يشأ أن يطلعهم على شىء منها ، خشية أن يبلغ خبرها إلى الملك نيكتانابيس ، فيعد على ضوئها ما يفحمه به .

وكان فى بعض الأماكن التى تستريح فيها القافلة عبر الطريق ، يعمد إلى تدريب النسور سرا حتى تصل إلى مصر قوية مرنة الأعضاء ، فتحسن الطيران إلى حد الـكمال . ولـكنه كان متى سارت القافلة يحكم اخفاء أقفاص النسور ، حتى لا يعلم أحد عن محتوياتها شيئا . وقد أجلس بايدان مع الحراس فوقها يتولون المحافظة عليها وحراستها .

فلما عبروا سوريا ، بعد مقدمهم من بلاد ما بين النهرين ، بلغوا نهر الأردن ، الذى يخترق واديا عميقا واسعا .

وعبر مع قافلته نهر الأردن ، حيث يتدفق فى بحيرة ضحلة صغيرة تدعى بحيرة ميروم أو بحيرة الحولة ، وكان عبورهم من موضع ألفت القوافل أن تعبره خائضة فى المياه الضحلة فلما اجتاز التلال العالية على الجانب الآخر من السهل ، بلغ مدينة صور على الشاطىء الفينيقى .

ولقد ذكرته بعض ملامح صور بمدينة ساموس . فقد كانت كذلك مدينته جزيرة ، وإن كان بعدها عن الساحل لا يزيد على خمسمائة خطوة ولقد كانت فى واقع الأمر تـكاد تلاصق الشاطىء ، حتى أن ضواحى المدينة كانت تمتد فى داخل البلاد . ولقد عرف الفينيقيون بأنهم جنس

متعلق بالملاحة وحب البحار ، وكانت السفن تنتظره عند مدينة صور لكى تنقله إلى منف عاصمة الملك نيكتانابيس ، وهى تقع على ضفاف نهر النيل .

وكان الفينيقيون يعبدون الاله بعل ، وكان يعرف فى مدينة (صور) باسم ميلكارت ، وكانت زوجته تدعى عشتروت . ولقد رأى إيسوب أنه من الأحجى عدم الاستفسار عما إذا كانت هى عشتروت التى اتخذت من الفتى الوسيم آدونيس حبيبا لها . ومع ذلك فقد استخلص إيسوب لنفسه رأيا مغنيا ، عنــد ما لاحظ أن الربيع والصيف يحلان فى فينيقيا فى نفس الموعد الذى يحلان فيه ببلاد سيليسيا ، حيث يعترف صراحة بهذه القصة الغرامية العاطفية .

ولما سمع حاكم مدينة (صور) باقتراب مقدم إيسوب خرج من المدينة للقائه ، ثم استقبل مقدمه بأعظم مظاهر الحفاوة والغبطة ، واستضافه هو وأتباعه أثناء مقامه فى المدينة .

ولم تمض أيام قلائل حتى كان إيسوب قــد أبحر صوب مصر هو وأتباعه ، فى ثلاث سفن وقد اتخذوا طريقا محاذيا للشاطىء ، حتى يستطيعوا أن يتبينوا من مياه البحر التى استحالت حمراء بفعل فيضان النيل ، أنهم قد شارفوا الشاطىء المصرى . ذلك أن النيل نهر عظيم جبار يدفع مياه البحر إلى التراجع القهقرى إلى مسافة بعيدة عن مرأى العين المجردة من

الشاطىء وما أن بلغوا الشاطىء المصرى ، حتى استأجروا بحارة ذوى خبرة بمعرفة فروع النيل العديدة التى تتكون منها الدلتا ، وقد كانت تلك الفروع ممتلئة ، فى ذلك الوقت من العام ، بمياه النيل الحمراء ، التى تهب التربة الطمى والخصب . وقد تولى هؤلاء البحارة تيسير أمر رحلتهم بسفنهم عبر النهر .

و بينما كانت السفن تسير بهم عبر النيل ، عند الموضع الذى تلتقى فيه فروع النهر فى مجرى واحد عظيم ، لمح إيسوب الاهرام ، مثل التلال المنحوتة المتعددة فى الصخر ، وهى تتلألأ بيضاء من بعـــيد فى موضع يسمى الجيزة .

وكان أكبر هذه الاهرام ، هو هرم خوفو ، والثاني هرم خفرع ، والثالث ، وهو أصغر بكثير منهما حتى لا يرى عن بعــد ثم قمته ، فقد كان لمنقرع .

وقد توجه إيسوب أثناء مقامه بمصر فيما بعد لزيارة الاهرام فى صحبة بايدان . ولقد خيل إليه وهو يراها من بعد ، وهى منتصبة شامخة وسط ذلك السهل العجيب ، أنها جبال شاهقة نحتت لتضرب فى أعماق السماء . وكلما دنا منها أخذ يراها على حقيقتها ، مبنية من الحجارة ، و بدا له عندئذ كما لو كان ارتفاعها أقل مما حسب أول الأمر ، بيد أنه عند ما صار عندها

علم اليقين مبلغ ارتفاعها ، وأدرك جلالها الحقيقى . ولقد رأى أن كل حجر من أحجار الأهرام ، فى مثل حجم عربة الشحن الهائلة ، ولقد بهر ودهش آخر الأمر وهو ينظر إلى هذه الأهرام سامقة الأطناب فى أعماق الفضاء . وأحس أنه ، على الرغم من كل العجائب التى شاهدها فى مصر ، إذا كان لم ير فى مصر سوى هذه الاهرام ، ثم رحل عنها دون أن يرى شيئا سواها ، فلا شك أن رحلته المضنية الطويلة لم تضع هباء ولم تكن سدى ، ولقد تملكه شعور بالهيبة والاحترام . وهو ينظر إليها . وزاد فى هيبته واحترامه أنها تقف فى مكانها هذا منذ أكثر من خمسة عشر قرنا ! ونظر إلى بايدان الذى وقف مشدوها يقلب النظر فيما حوله وقال «حسن يابايدان ، مارأيك فى هذه الأهرام ؟ » .

وتأمل بايدان الأهرام دقائق قليلة ، كما لو كان سؤال إيسوب قد نبهه إلى وجودها لأول وهلة ، ثم أجاب « حسن أيها الصغير الدميم . ما يعنى قوله هو أنك اذا شاهدت واحدا فقد شاهدت الكل ! »

فلما بلغوا منف ؛ وسمع الملك نيكتانابيس أن إيسوب قدم الى مصر دهش دهشة بالغة ؛ ذلك أن ما كان قد ترامى الى مسامعه عن موت إيسوب ؛ هو الذى حفزه على أن يوفد سفراءه الى بابل ناقلين تحديه الى الملك ليكيروس ؛ وهو مطمئن الى هذا الأخير لن يجد من يعينه على حل

مثل تلك الأحاجى العسيرة ؛ ومن ثم فسيكون ملزما بدفع الغرامة المالية الباهظة .

وتوجه إيسوب إلى الملك نيكتانابيس ، الذى استقبله بسرور ظاهرى وأن أضمر له الحقد والضغينة فى أعماق قلبه .

وانحنى إيسوب أمام الملك ، ثم قال « لتعش أبد الأبدين ، أيها الملك العظيم ، لقد أوفدنى سيدى ، ليكيروس ملك بابل العظيم ، استجابة لتحديكم الذى بعثتم إليه به على أيدى سفرائكم . »

وعلى الرغم من أن عبارة (لتعش أبد الأبدين ، أيها الملك العظيم) كانت مجرد لون من ألوان الخطاب فى ذلك العهد ، فإن الملك نيكتانابيس كان حقيقا أن يرى — لو أنه عمد إلى التأمل الجاد لحظة — أن إيسوب ، لا الملك ، هـو المرجَّح أن يعيش أبدا ، خصوصا بعد إشاعة نبأ موته ثم ظهوره الآن فى صحة جيدة ، الأمر الذى جعله يميل إلى الاعتقاد أن إيسوب قادر على مواجهة الموت فى رباطة جأش ، اللهم إلا إذا كان نبأ موته قد بولغ فيه كثيرا . ولقد بدا إيسوب ، على الرغم من إشاعة موته ، فى روح معنوية طيبة للغاية . وعلى الرغم من أن الملك لم ير إيسوب قط من قبل ، إلا أن إعلان نبأ ظهوره كان كافيا لكى ييسر عليه معرفته .

فهو على نقيض الأهرام ، لا توجد منه نسخة أخرى ، ومحال أن يوجد أثنان من البشر بمثل هذه الصفات والسمات .

وسأل الملك إيسوب : « وهل أرسل مولاك الملك المهندسين المعماريين كما وعد لتشييد برج فى الهواء ؟ » فهز إيسوب رأسه ثم قال :

« لقد أرسلهم أيها الملك العظيم ، كما أوفد معهم الرجال الفنيين ، وغيرهم من الحاذقين فى بناء مثل هذه الأبراج ، ذلك أن مولاى الملك لـيكيروس يقترح تشييد عدد كبير من أمثال هذه الأبراج فى مملـكته . ومن ثم فإن لديه عددا وفيرا من أمثال هؤلاء المعماريين والعمال والحاذقين لأمثال هذه الفنون . »

ونظر اليه الملك نيكتانابيس دهشا ثم سأله « ولـكن ، هل يستطيع الملك لـيكيروس حقا أن يشيد مثل هذه الأبراج ؟ »

ذلك أن الملك نيكتانابيس كان يوقن أنه أعد لغزا يستحيل حله أو تحقيقه ، ومن ثم فإن ايسوب قد أشار ببساطة الى بناء عدد كبير من تلك الأبراج ، الأمر الذى ملأه بالشكوك . ولقد أحس احساسا مقلقا بأن المقادير تدخر له مفاجأة غير سارة ! . وأجاب ايسوب قائلا :

« فى استطاعة سيدى أن يصنع أى شىء يسع أى ملك آخر صنعه ، وفضلا عن ذلك ، فإن سيدى يستطيع صنع أشياء يعجزون هم عن أتيانها .

وفى الغد سيشيد لك مهندسىّ المعماريين ورجالى الفنيين البرج الذى تريد وذلك بعد أن يستكملوا أسباب الراحة بعد رحلتهم الطويلة . ؟ »

وقال الملك متعجبا « سيشيدونه فى الهواء ؟ »

فقال ايسوب « أجل فى الهواء ! ولكن لم تبدون جلالتكم الدهشة كما لو كان ذلك الأمر مستحيلا ؟ فلا شك أن جلالتكم لم تقترحوا لغزا عرفتم مقدما أنه شىء مستحيل الوقوع . »

فنظر الملك فى قلق نحو حكمائه ، وكان حقيقاً بالابتسام لو أن محدثه غير ايسوب ، ذلك أن شهرة ايسوب التى طبقت الآفاق جعلته يتوجس خيفة .

وسأله الملك « وهل أرسل مولاك كذلك الرجل الذى سيجيب عما نطرحه عليه من أسئلة ؟ »

فقال ايسوب « نعم ، أنى ذلك الرجل . ومتى أخذت أنا الآخر قسطى من الراحة من عناء رحلتى ، فسأحاول أن أرضيكم وأصون شرف مولاى . »

وأذن له الملك نيكتانابيس بالانصراف من حضرته بعد الاتفاق على اللقاء فى موضع خارج مدينة منف ، حيث ينبغى بناء البرج المنشود !

وضرب ايسوب خيامه فى تلك الليلة نفسها ، عند موضع منخفض غير بعيد من نهر النيل ، وعلى مقربة من الموضع الذى اتفق مع الملك على تشييد البرج عنده .

ورابط بايدان ونسوره فى مجموعة خاصة من الخيام ، أقام حولها حاجزاً سميكا من الحصير ، حتى لا تقع عيون الفضوليين على الاستعدادات التى كانت تجرى داخل تلك الخيام .

وما كاد يبزغ فجر اليوم التالى حتى كان كل شىء كامل الإعداد .

وكانت النسور ماثلة داخل الخيمة الكبيرة بعد أن نقلت إلى هنالك داخل أقفاصها ، وقد غطيت بالقماش فى إحكام حتى لا يتمكن من رؤيتها أحد . وكانت طوال الرحلة قد أحسن إطعامها وقدم إليها بايدان فى الصباح الباكر وجبتها الأخيرة حتى تصير فى صحة جيدة تسمح لها بمواجهة تحدى الملك نيكتانابيس . وقد وقفت الآن على قضبانها الخشبية ، وبدت وهى متخفية كما لو كانت جوارح هائلة ، وكانت شبه نائمة عندما داعبها حراسها وهى راضية مستسلمة على الرغم من أن هذه الطيور الجوارح الهائلة تستطيع بطعنة واحدة من مناقيرها القاتلة أن تفتك برجل ، تماما كما لو طعن بمدية صيد حادة ، أو لعلها تستطيع بضربة من أجنحتها أن تكسر ذراع رجل . وكان ريشها يحدث حفيفاً وخشخشة وهى تتحرك فى قلق .

وما كادت أشعة الشمس تغمر الصحراء ، ملقية الضياء على قلاع منف وقصورها البيضاء ، حتى علت سحابة من الغبار عند أسوار المدينة ، وشوهد جمع من العربات يتقدم صوب تلك الأسوار . وكان من اليسير على الرغم من بعد المسافة ، رؤية الجياد البيضاء الرائعة الجمال ، وهى تجر فى خطوات كلها أنفة وكبرياء — عربة الملك نيكتانابيس بلونيها الذهبي والأزرق .

وكان الملك واقفاً يتولى قيادة العربة بنفسه ولا يرافقه فيها سوى عبد أسود هائل ، وقد بدا جلده الآبنوسى المغطى برداء ذهبي من جلد أسد — مناقضاً تمام المناقضة لوجه الملك الأبيض العاجى . ومن ورائهما أقبل لفيف من كبار رجال الدولة ، بعضهم يركبون العربات كمولاهم ، وبعضهم الآخر يمتطون الجياد .

وما كادت العيون ترمقهم حتى بدت الحركة فى معسكر بايدان . وتوجه بايدان إلى خيمته ليلقى نظرته الأخيرة على الاستعدادات التى اتخذت ، فى حين تقدم إيسوب وحده إلى الأمام خطوات قليلة لاستقبالهم . وزاد الملك نيكتانابيس من سرعة جياده التى انطلقت تعدو عدواً ملحوظاً ، مارة من أمام إيسوب ، وهى تثير رمال الصحراء وحجارتها ، وتعقد فى الجو سحابة من الغبار . وما كادت العربة تقف ، حتى قفز العبد الأسود الضخم نازلا منها ، ثم هرع إلى الجياد يمسك رؤوسها ، ويهدىء من روعها ،

وهو يقودها فى هـدوء إلى الأمام . وكان الملك نيكتانابيس قد ترجل فى خلال ذلك ، ولحق به كبار رجال دولته .

وانبطح إيسوب على الأرض أمام الملك ، كما كانت العادة المألوفة حينذاك وهو يقول « لتعش أبد الدهر أيها الملك العظيم » ثم نهض واقفاً على أثر اشارة من الملك وتقدم قليلا .

وأخرج إيسوب من حافظته خطابا فض خاتمه ، وراح يتلو ما فيه ، قال : « باسم الملك ليـكيروس ملك بابل على نهر الفرات ، لما كان أخى الملك العظيم نيكتانابيس ملك مصر ، قد تحدانى وطالبنى باتيان أعمال معينة ، فإذا عجزت عنها فمن واجبى أن أدفع إليه الغرامة المادية المتعارف عليها ، ولمـا كنت قد وافقت كذلك على أن تزداد الغرامة التى أدفعها للملك نيكتانابيس فى حالة إخفاقى ، إلى ثلاثة أمثال الغرامة العادية ، و بذلك تصل إلى ألف مكيال من الذهب ، ولسوف يدفع هو نفس هذه الغرامة المضاعفة لى أنا الملك ليـكيروس فى حالة توفيقى .

« ولقد بعثت أنا الملك ليـكيروس ، ملك بابل على نهر الفرات ، بخادمى المحبوب الأمين إيسوب ليرد باسمى على ذلك التحدى .

« وسيتولى إيسوب ، اعتماداً على عمل مهندسى المعمار والعمال الفنيين وحدهم ، بناء برج شامخ فى الهواء ، لا يستند إلى الأرض فى أى موضع

من مواضعه . وقد وافق الملك نيكتانابيس على إمداد أولئك النيفين بكل ما يحتاجون إليه من مواد .

كذلك يتولى إيسوب الرد على جميع الأسئلة التي سيوجهها إليه أخي الملك نيكتانابيس ، عاهل مصر .

وطوى إيسوب الرسالة وسلّمها إلى الملك . وقال الملك نيكتانابيس « ذلك تحد وأيم الحق ! وأنت إذن الذي يتولى الرد على الأسئلة التي سأوجهها إليك . أوَ أنت مهندس معماري كذلك ؟ »

فابتسم إيسوب ابتسامة من يحاول التنصل والتخلص ، ثم قال « لست أنا المهندس أيها الملك العظيم ، ولكن المهندسين معي هنا ، وهم مستعدون لبدء العمل بمجرد صدور أمركم لي بالابتداء » .

وألح الملك نيكتانابيس إلحاح من لا يستطيع تصديق ما يسمع ، وهو يقول « وسيشيدون برجاً في الهواء ؟ » .

فأجاب إيسوب قائلا « حتى في الهواء ، ما لم تمنعهم جلالتكم من صنع ذلك » .

وهز الملك رأسه ، ثم أجاب وهو يضحك « سأكون آخر من يمنعهم . وإني لأعطيك كلمة الشرف الملكية موثقاً وضماناً لذلك . وإلى أي ارتفاع سيبنون ذلك البرج ؟ » .

فهز إيسوب كتفيه ، ثم أجاب « الارتفاع الذى يرضى جلالتكم » .
ثم نظر إيسوب إلى أعلى ، فلمح عدداً من الجوارح تطير فى سماء المدينة ، فأضاف قائلا « أو تريد ذلك البرج مرتفعاً إلى أقصى ما يستطيع الطائر أن يعلو فى السماء ؟ »

وفزع الملك نيكتانابيس ، وفكّر هنيهة ثم قال « بل أريده مرتفعاً إلى أقصى ما يستطيع النسر مثلا أن يعلو فى الهواء ! »

وقال الملك ذلك وهو يقدر أن النسر هو أقوى الطيور جميعاً .

وابتسم إيسوب ثم أجاب « بل ومرتفعاً إلى أقصى مايستطيع أن يبلغه النسر من عنان السماء . »

وخطا الملك بضع خطوات متأملا . لقد كان هنالك شيء يتصل بثقة إيسوب ، جعله يتساءل ما إذا كانت المشكلة التى عرضها على الملك ليكيروس مما يستحيل حله حقاً كما تخيل ، وراح يتساءل كذلك عما إذا كانت الألف مكيال من الذهب ، لا تزال آمنة مضمونة كما كان يؤمل!

ثم توقف عن المسير آخر الأمر وقال « حسن جداً ، فلنشاهد اذن هذه العجيبة .

واستدار ايسوب مواجهاً السياج المشيد من الحصير ، وقد وقف بايدان لدى مدخله يترقب . فأشار ايسوب إليه إشارة خاصة ، فدخل بايدان واختفى داخل السياج .

وسرعان ما طار فى الجو عدد هائل من النسور المنطلقة من الحظيرة ، وقد أخذت تضرب بأجنحتها محدثة أصواتاً عالية . ولقد حلقت كل ثلاثة أو أربعة منها فى مجموعة تحمل قفصاً . وكان فى كل قفص غلام صغير . وراح أحد هؤلاء الغلمان يلوح بمسطار البناء ، ولوحّ آخر بقادوم ، وهز ثالث مسطرته ، ونشر رابع أمامه مشروعاً هندسياً للبناء . .

وبمجرد أن أصبحوا فى الجو محلقين فوق رأس الملك وحاشيته ، انطلقوا يوجهون إليه الخطاب فى أعلى صوت :

« لتعش أبد الآبدين ، أيها الملك العظيم ! لتعش على المدى أيها الملك العظيم . . . إنى بناء ! إنى مهندس معمارى ! . . . أعطنا الملاط والحجارة ، والخشب والطوب وسنشيد نحن برجك . لتعش أبد الدهر أيها الملك العظيم . . . . »

وواصلوا صياحهم وهتافهم هذا إلى أن علت بهم النسور فى أعماق الجو ، وصار من العسير تمييز الألفاظ التى تصدر عنهم . وقال إيسوب وهو ينظر إلى الملك « هؤلاء هم مهندسوك و بناؤوك ، وعمالك الفنيون . فلتقدم إليهم إذن المواد التى اتفق على تقديمها إليهم حتى يتمكنوا من تشييد البناء . فقد نص الاتفاق على أن تتولى تقديم المواد اللازمة للبناء ! »

ولم يستطع الملك نيكتانابيس إلا أن ينفجر ضاحكا ، وقد سره كثيراً

حذق إيسوب ودهاءه ، واعترف صراحة بانهزامه ، وبأنه سيدفع الغرامة المضروبة للملك ليكيروس ، فيما يتصل بمسألة البرج .

واستطرد الملك قائلا : « ولكنى سأسألك سؤالاً واحداً : كم مقدار الطين الذى يوجد فى حفرة مستديرة ، عمقها ذراعان ونصف ذراع ، وعرضها ذراع ؟ »

وهز إيسوب كتفيه وأجاب بقوله « لا يوجد شىء من الطين على الاطلاق ، ذلك أن الطين قد أزيل ليسمح بوجود الحفرة .

واعترف الملك نيكتانابيس مرة أخرى بأن إيسوب قد أجاب على سؤاله إجابة صحيحة .

وفكر الملك هنيهة ثم قال « إن لدى فى اصطبلاتى بعض الأفراس الأصيلة ، التى تستطيع الإصغاء إلى صهيل جياد مولاك الملك ليكيروس فى بابل ، وتجيب على صهيل تلك الجياد ، بل وتلد أمهاراً صغاراً نتيجة لهذا التجاوب فى الصهيل ! أو هل يسعك حل هذا اللغز ؟ »

وطبيعى أنه كان مستحيلا على إيسوب أن يقول للملك نيكتانابيس إنه كاذب وأن ما قاله مستحيل التحقيق . وظل يفكر عدة دقائق ، ثم أجاب بقوله « إذا أذنتم جلالتكم ، فسأتولى الرد على هذا السؤال غداً !

وهكذا وافق الملك نيكتانابيس على أن تكون إجابة إيسوب على سؤاله فى اليوم التالى . ثم عاد إلى قصره ، مصطحباً معه ايسوب ، وأمر بإعداد وليمة عظيمة من أجله . وأكرم الملك ايسوب اكراما كثيراً ، فقد سرته اجاباته سروراً عظيما ، حتى لقد أجلسه عن يمينه ، وظل يتحدث إليه طوال المأدبة .

* * *

الفصل السادس عشر

كان المصريون يعبدون آلهة كثيرة، كان بعضها نفس الآلهة التى عبدها الإغريق وأن تباينت أسماؤها. مثال ذلك أن إله الشمس الذى عرفه الإغريق باسم أبوللو، عرف فى طيبة والكرنك باسم آمون، كما عرف فى بقاع مصر الأخرى باسم رع، فى حين كان معروفا فى مصر بصفة عامة باسم آمون — رع.

وكان الإله فتاح معروفا فى ممفيس عاصمة الملك نيكتانابيس باسم أوزوريس. وكان أول ملك من الأسرة المقدسة التى أنشأت هذه المدينة. وكانت شقيقته وزوجته إيزيس، آلهة للطب والزواج والزراعة. وأما ابنهما حوريس الذى كان يبدو فى بعض الأطوار على هيئة النسر أو الحدأة أو فى صورة رجل له رأس حدأة، فقد كان رسول الآلهة على النحو الذى عرف به هرمس لدى الرومان باسم مركورى، وكان رسول الآلهة إلى جبال الأولمب.

ولم يكن أمرا شاذا أن يبدو هؤلاء الآلهة على صورة الحيوانات أو أن تحتفظ لنفسها ببعض أجزاء الحيوانات تظهر فى أجسادها.

ومن ثم فقد كان لأنوبيس رأس ابن آوى.

وكانت هنالك مظاهر أخرى للتشكل فى صـــور الحيوانات كلية أو للظهور فى صورة تجمع بين الحيوان والإنسان .

وكان الإله رع يبدو عادة فى صورة أسد له رأس إنسان ، وهو الشكل المعروف لنا اليوم فى هيئة أبى الهول . وكانت الإلهة هاتور لها رأس بقرة وجسم امرأة عندما هبطت إلى الأرض لتختلط بالبشر . ولا شك فى أن هـذه الآلهة كلها كانت تتخذ صورة الحيوان كلية لتتخفى عن البشر فلا يلحظونها ولا يدرون عن حقيقتها شيئا . غير أنه وإن كانت امرأة تبدو بوجه بقرة يمكن أن تمر فى حشد من الناس دون أن يلاحظها أحد ، فإن رجلا له رأس حدأة أو رأس ابن آوى لابد وأن يجذب الانتباه أو يثير التعليق . فى حين أن ظهوره على هيئة بقرة كاملة أو فى صورة ابن آوى أو الحدأة لن يثير البتة شيئا من التعليق .

وأما عن الإله رع فإنه ليصعب تخيلنا كيف كان يستطيع التصرف على الاطلاق ، ذلك أن جسم أسد يتجول بين حشد من الناس سواء أكان ذلك الجسد يعلوه رأس أسد أم رأس إنسان فإنه لا ريب سيثير شيئا من القلق بل ويبعث على الفزع والرعب . ولا شك كذلك أنه ربما استطاع بحيلة ما أن يبدو فى صورة أسد رقيق حتى لا يثير اهتمام أحد ممن يلتقى بهم .

وأما الإله فتاح — سوكار — أوزوريس ، فإنه كان يبدو دائما على الأرض فى صــورة العجل أبيس . ولقد كان العجل مما يسهل تمييزه ومعرفته .

وقد كان يوجد فوق جبهته وفيما بين قرنيه علامة بيضاء على هيئة الهلال . وعلى ظهره بدت بقعة على صورة الطائر أو النسر وقد نشر جناحيه وكان يبدو تحت لسانه رسم الجعران . وبهذه الطريقة استطاع الـكهنة أن يميزوا العجل المقدس بمجرد ابلاغهم نبأ ميلاده ، فـكانوا يأخذونه ويحفظونه فى المعبد إلى أن يولد الإله مرة أخرى فى صورة عجل آخر ، يبلغ إليهم نبأ مولده بمجرد حدوثه . وكان ذلك يحدث عادة عند ما يتقدم العجل أبيس فى السن ، ذلك أن الـكهنة ما كانوا ليستطيعوا معرفة حقيقة العجل أبيس الا متى أصبح العجل المؤله طاعنا فى السن وصار من المحتوم أن يكتشفوا العجل الذى سيحتل مكانه المقدس . فلما كان موعد حلول مثل ذلك الاجراء ، كانوا ينطلقون بالعجل أبيس فى حفل عظيم ثم يغرقونه فى نافورة مقدسة يرمز لها بنافورة آمون — رع إله الشمس ، وكانت بقايا العجل المقدس تحفظ مومياؤها فى مقبرة كبيرة إلى جانب بقايا العجول التى تقدمته وكانت معبودة من أهل البلاد .

وترتب على هذه الاعتقادات أن امتلأت مصر بالـكثير من الطيور

والحيوانات المقدسة . وكان كل من العجل أبيس والنسر مقدسين . أما النسر فلأنه كان طائر الإله حوريس وكذلك لأنه كان مطبوعا على ظهر العجل أبيس . وأما العجل أبيس فلأنه يقضى على الزواحف السامة التى يغص بها شاطئا النيل . كذلك كان القط حيوانا مقدسا ، ذلك أن الآلهة باست كانت تبدو فى صورته .

بل أن الماشية التى كانت تتميز بإحدى العلامات التى يتميز بها العجل أبيس كانت هى الأخر موضع تكريم وإجلال . فلم تكن تذبح على الاطلاق ، أو تستعمل فى جر العربات أو حتى فى أعمال الحقول .

ومن ناحية أخرى نرى أن النسوة التى تتشابه وجوهها ولو شبها قليلا ببقرة ، لم تكن موضع أى احترام ، فإذا كان الشبه قريبا واضحا كان الاحترام واجبا ، حتى إذا كان الشبه كاملا بما فى ذلك القرون ، كان التكريم أعظم على النحو الذى بدت عليه الآلهة هاتور إذ ظهرت فى صورة امرأة لها رأس بقرة .

ولقد درس إيسوب كافة هذه الأحوال التى كانت سائدة فى مصر حين ذاك . فلما سمح له الملك بالانصراف من حضرته ، انطلق إيسوب يعد العدة للإجابة على اللغز الذى طرحه عليه الملك نيكتانابيس ، وكان إيسوب قد وعد بأن يجيب على ذلك اللغز فى الغداة . وعادت النسور إلى

الأرض بأحمالها ، ثم جمعت كلها واحتشدت فى المعسكر تحت رعاية بايدان
و بمعاونة الشبان الصغار الذين راحوا يلعبون داخل الحظيرة .

وهكذا وضع إيسوب خططه ، وفى صبيحة اليوم التالى أخذ الشبّان الصغار إلى مدينة ممفيس وهناك استعرضهم فى الشارع الرئيسى وهم يجرّون قطا يضربونه بسوط و يسيئون معاملته على مشهد من أهل المدينة أجمعين .

وسرعان ما انطلقت صيحات شديدة .

وهرع القضاة ومعاونوهم وأنقذوا القط من أيدى الصغار وألقوا القبض عليهم وقادوهم إلى الملك نيكتانابيس للمحاكمة ، الأمر الذى توقعه إيسوب ووضع على أساسه خطته .

فلما مثل الصغار أمام الملك نيكتانابيس وعلم بجريرتهم غضب غضبا شديدا ، ذلك أن القط هو الحيوان الذى تتقمصه الإلهة باسط ، ومن ثم فهو حيوان مقدس فى مصر ومن الكفر معاملته على هذا النحو . وشهد القضاة ورجالهم كذلك بما رأوه من تعذيب الأطفال للقط وجره فى طول المدينة وعرضها ضاربينه بالسياط ومتسببين فى تأوهه وصراخه على هذا النحو الباعث على أشد الأسف والمناقض لما ينبغى أن يعامل به الآلهة .

واحتقن الملك غضبا . ثم وجه حديثه إلى الصغار قائلا :

« كيف تجرءون على أن تقترفوا مثل هذا العمل الذميم الدنىء ؟ »

وتقدم أكبر الأولاد ونظر إلى الملك دون خوف ، فقد كان إيسوب قد علّمه ما ينبغى قوله ، ثم أجاب فى جرأة :

« لقد فعلنا ذلك لنعاقبه . »

فأعاد الملك عبارته فى دهشة : «لتعاقبه ! لتعاقبه ! وماذا صنع ليستحق مثل ذلك العقاب ؟ »

فهز الغلام رأسه ، ثم أجاب :

« لست أدرى . بيد أن سيدنا إيسوب طلب إلينا أن نأخذه ونضربه بالسياط عبر شوارع المدينة عقابا على جرم قد اقترفه . ونحن لا نناقش أبدا أوامر مولانا إيسوب ! »

واشتدت غضبة الملك عند ما قال :

« مولاكم إيسوب ! أو أنتم الأولاد الذين جلبهم معه والذين حملتهم النسور فى السلال وطارت بهم جوا ؟ »

فأجابوا قائلين « نعم نحن »

فأصدر الملك نيكتانابيس أمره قائلا : « إذن فاستدعوا إيسوب »

وكان إيسوب يتوقع ذلك الاستدعاء وسرعان ماقدم ومثل فى حضرة الملك : ووجه إليه الملك فى حزم السؤال التالى :

«هل أمرت هؤلاء الأطفال بالتجول فى شوارع المدينة وهم يسيئون معاملة قط ويضربونه بالسياط ؟ »

فقال إيسوب « نعم ذلك ما أمرتهم به . ولقــــد كان ذلك عقابا لما اقترفه القط الليلة البارحة . فقد أساء إلى سيدى الملك لـيكيروس ملك بابل إساءة بالغة . »

فقال الملك « ماذا ! أو أساء هذا القط الذى عذبه هؤلاء الصغار إلى سيدك ؟ وكيف كان ذلك ؟ وعلى أية صورة ؟ »

فهز إيسوب كتفيه ثم قال « لقد كان لسيدي الملك لـيكيروس عاهل بابل ديك صغير ظريف جدا وكان يغالى فى إعزازه ورعايته والعناية به . فهو لم يكن ديكا نادرا ومن أحسن فصائل الديكة المقاتلة فحسب ، وإنما كان كذلك طائرا مقاتلا شجاعا ، كما كان مدربا بصفة خاصة على الصياح بانتظام فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار مرة ، حتى ليستطيع المرء أن يحسب الزمن بدقة إذا استمع إلى صيحاته . والحق أنه كان طائرا معجزا وكان الملك لـيكيروس يعزه إعزازا عظيما كما كان يحتفظ به فى فناء قصره بمدينة بابل . لقد كان طائرا عجيبا حقا ، أليس كذلك ؟ . »

والتفت إيسوب إلى الأطفال عندما ألقى هذا السؤال كأنه يوجهه إليهم

فأجاب الأطفال قائلين « نعم ، لقد كان طائرا مدهشا حقا »

فأجاب الملك نيكتانابيس قائلا : « لا شك أنه كان طائرا مدهشا حقا كما تقول . ولـكنه سواء أكان مدهشا أو غير ذلك فما صلة هــذا الديك بالقط الذى يعذبه الأطفال ! »

فقال إيسوب فى حزم : « لقد كان هذا القط هو الذى توجه إلى قصر مولاى الملك لـيكيروس عاهل بابل حيث احتفظ بالديك فخنقه الليلة الماضية . »

فقال الملك نكتانابيس فى قلق : « هذا هراء . ليس من الممكن حتى لقافلة من أسرع الجمال أن تسافر إلى بابل وتعود منها فى أقل من شهرين ونصف شهر . وهذا أنت تدعى أن هذا القط قد توجه إلى هناك ثم عاد فى ليلة واحدة بعد أن خنق ديك الملك لـيكيروس . فكيف أمكن تحقيق ذلك ! »

قال إيسوب : « إذن فحدثنى كيف كان ممكنا أن تصغى أمهارك وهى فى اسطبلاتها إلى صهيل جياد سيدى فى بابل ، وتجيب عليها ، بل وتحبل عنها ؟ »

* * *

وعلى أثر ذلك أرسل الملك نيكتانابيس إلى مدينة هليوبوليس فى طلب بعض الحكماء والسحرة وغيرهم من أهل الحذق فى الفنون الغامضة والألغاز المعقدة ومثل هذه المسائل والشئون . ثم أمرهم أن يعدوا أسئلة يوجهونها إلى إيسوب .

فلما تم لهم إعداد هذه الأسئلة ، أمر بإقامة حفل عظيم دعا إليه أصدقائه

وقواده كما دعا إليه أولئك الحكماء والسحرة ومن بينهم إيسوب .

ونظر أحد أولئك الحكماء إلى إيسوب وكان ماهرا فى الرياضيات وغيرها من المسائل الطبيعية ، وقال له :

« إن لدى سيدنا وعاهلنا الملك نيكتانابيس متحفا يدخر فيه جميع كنوزه . وقد أقام حجرة منفردة إلى جانب دار الكنوز الرئيسية ، حشد فيها ألف كيس من الذهب لتكون وقفاً على مراهنته مع سيدك الملك ليكيروس عاهل بابل ، وبذلك يستطيع أن يسد ما قد يقع عليه من دين تسديدا كليا أو جزئياً ، طبقا لنتيجة الرهان بينهما . وهذه الأكياس الألف مختومة بخاتم جلالته الملوكى فى عشرة جراد ، على نحو يتيح لجلالته أن يغشى دار كنوزه فيأخذ أى عدد من الأكياس من واحد إلى ألف ، دون أن يفتح جرة أو يكسر خاتما فكيف أمكن ذلك ؟ »

وصفق المجتمعون تصفيقا عظيما لذلك الحكيم ، ذلك أن لغزه بدا لهم صعب الحل .

وفكر إيسوب وهو صامت مدة طويلة .

وتجدد التصفيق مرة أخرى عندما لحظ القوم عليه طول صمته .

وسرعان ما تكلم إيسوب قائلا :

« عندى أن الملك إذا فقد رهانه كله ورغب فى الحصول على الألف

كيس ، ففى وسعه أن يأخذ الجرار العشرة مختومة بخاتمها كما هى » .

فقال الحكيم وقد كان بارعاً فى الرياضيات : « هذا حق إلى حد ما ، ولكنه لا ينصرف إلى حيث يعتبر إجابة على سؤالى » .

ونظر حوله إلى الجمع فى ابتسامة من رضى عن نفسه .

فأجاب إيسوب قائلاً « وكذلك لم أنته أنا من ردى . إنى وإن كنت لا أشك فى أن هذا الكنز موجود حقا كما تقول ، فإنه سيحمل معى إلى سيدى الملك ليكيروس . ومع ذلك فإن هذا ليس بجواب على السؤال . وهكذا فسأواصل حديثى . وعندى أن الملك إذا رغب فى كيس واحد فلا بد أن تكون لديه جرة تحتوى على كيس واحد » .

فاعترف الحكيم وقد قلّت ثقته إلى حد كبير ، فقال « نعم » .

واستطرد إيسوب قائلا « فيتبقى لدينا تسعة . ولا بد أن نعثر فى الثانية على كيسين وبذلك نكون قد عثرنا على ثلاثة أكياس فى الاثنتين » .

فهز الحكيم رأسه فى صمت .

واستطرد إيسوب قائلا « وبعد الثلاثة نجد أن العدد التالى هو أربعة فلا بد أن يكون قد وضع فى الجرة الثالثة أربعة أكياس ، وبذلك يكون عدد ما يتجمع معنا من أكياس سبعة ، وبعد ذلك نجد جرة رابعة تحتوى على ثمانية أكياس » .

وابتسم الحكيم ابتسامة مُرّة فقد رأى أن إيسوب يوشك أن يحل لغزه .

واستطرد إيسوب قائلا « وهكذا فإن الجرار العشر قد رتبت بحيث تشتمل إحداها على كيس واحد ثم على اثنين ثم أربعة ثم ثمانية ثم ستة عشر ثم اثنين وثلاثين ثم أربعة وستين ثم مائة وثمانية وعشرين ثم مائتين وستة وخمسين . . »

وتساءل الملك نيكتانابيس « وهل يوجد فى الجرة العاشرة خمسمائة واثنتى عشر كيسا ؟ أو هذا صحيح ؟ » ونظر الملك إلى الحكيم وهو ينطق بهذا السؤال .

ووافق الحكيم على ما جاء على لسان الملك .

ولكن إيسوب هز رأسه وقال « ليس الأمر كذلك أن الجرة العاشرة لا تشتمل إلا على أربعمائة وتسعة وثمانين كيساً ، ذلك أن الكنز قوامه ألف كيس لا ألف وثلاثة وعشرين كيسا . ويبدو لى أننى أعرف الكثير عن كنز الملك نيكتانابيس ، بل إنى لأعرف عنه أكثر مما يعرفه الملك نفسه . » ثم أضاف فى خبث « ولعل الملك لم يسمع بهذا اللغز إلا اليوم كما أسمعه أنا لأول مرة » .

وعلى الرغم من أن حل هذا اللغز كان فى غير صالح الملك نيكتانابيس

إلا أنه ضحك ضحكا عالياً عندما سمع ذلك كما ضحك ساخراً من المحنة التى عاناها ذلك الحكيم الذى يحذق الرياضيات . ذلك أنه كان ملكا أصيلا من أسرة عريقة وأنه يفضل قولا حكيما لبقا على الذهب الجامد .

ولقد سر سروراً عظيما حتى أنه قال :

« إن ذلك الكنز الذى افترضه خيال ساحر مدينة هليوبوليس الحكيم فظن أننى قد أعددته لأفى به رهانى مع الملك ليكيروس ليس إلا كنزا وهميا لا يمت إلى الحقيقة بنسب . ومع ذلك فإننى أرانى ملزما بأن أسدد عشرة أمثاله للملك ليكيروس كما تقضى بذلك شروط المراهنة المعمول بها فيما بيننا .

« ولما كان إيسوب قد خفف عنى بثلاثة وعشرين كيسا فمن العدل والإنصاف أن يقسم هذا المبلغ مناصفة بينى و بينه . إذن فليكن من نصيبه أحد عشر كيسا ونصف كيس يظفر بها جائزة عادلة تكون عربونا لتقديرى له » .

وعندئذ تعالى الهتاف اجلالا وتقديراً لهذه اللفتة الملكية الكريمة .

وهكذا تحقق ما أمر به الملك نيكتانابيس فأمر أمين خزانة الملك بإحضار أحد عشر كيسا ونصف كيس لتوضع أمام إيسوب هدية إليه من الملك .

ولكن إيسوب لم يلبث أن قال « تنص شروط المراهنة على المبلغ المحدد الذى يدفعه الملك العظيم نيكتانابيس ملك مصر إلى مولاى الملك ليكيروس عاهل بابل والفرات وهو يبلغ ألف كيس من الذهب لا يزيد ولا ينقص . وأما عنى فإن جائزتى يقدمها إلى مولاى الملك ليكيروس . ومن ثم أرجو أن تؤخذ هذه الأكياس الأحد عشر على أن يأمر الملك بتوزيعها على الحكماء والسحرة الذين رفهوا عنا بألغازهم ومسائلهم ذلك أن لهم الفضل فى ربحى لذلك الرهان » .

وهكذا وافق الملك على هذا الاقتراح .

وكان الهتاف من بين الحكماء والسحرة عالياً بل وأشد من الهتاف الأسبق وعظم تكريمهم وتقديرهم لإيسوب من أجل هذه العاطفة الكريمة .

وجاء ساحر آخر عرض على إيسوب اللغز التالى .

« يوجد معبد عظيم على عامود واحد . ويحيط بهذا المعبد اثنتا عشر معبد أصغر منه حجما . وكل معبد من هذه المعابد الصغرى يستند إلى ثلاثين دعامة طائرة فى الهواء ، وحول كل دعامة من هذه الدعامات تسير امرأتان تتبع إحداهما الأخرى . أما إحداهما بامرأة بيضاء ترتدى زيا أبيض وأما الثانية فزنجية تتدثر بثوب أسود . وهما فى أثناء سيرهما حول الدعامة تتبع إحداهما الأخرى وتسير فى أعقابها فلا يستطيع أحد أن يقول من المتقدمة، أهى لابسة الأبيض أم لابسة الأسود . فما معنى ذلك ؟ »

فهز إيسوب كتفيه و ابتسم ثم قال :

« أن مثل هذه الأسئلة أجدر بأن توجه لأطفال بابل على نهر الفرات ، بل إنها إذا وجهت إليهم لضحكوا منها وسخروا بها . »

ثم تأمل إيسوب برهة وقال « وهنا فى مصر كان ممكنا أن ينادى حتى أكسانثوس بنفسه فيلسوفا . وهذا يدل على أن عرافى العجوز كان محقا عندما قال لى أنه ليس هناك خلاف كبير بين الرجال سواء منهم من يعيشون فى أمور يوم أو فى ساموس أو ممفيس . »

ورأى الساحر أن إيسوب قد استغرق فى أفكاره فحسب أنه انتصر عليه وأن اللغز الذى عرض على إيسوب ليس من المستطاع أن يجيب عليه .

ولكن إيسوب أجاب قائلا :

أما المعبد فهو الدنيا ، وأما العامود الذى يقوم عليه فهو العام . وأما المعابد الصغرى التى يتحيط بالمعبد الرئيسى فهى شهور العام، وأما الدعامات الثلاثين الطائرة فهى أيام الشهور الثلاثين . وقد أحاط بكل منها على التبادل الليل المظلم والنهار الساطع وقد سار أحدهما فى أعقاب الأخر . وإنهما ليسيران على نحو لايستطيع المرء أن يتأكد معه من منهما يسبق الأخر أهو الليل أم هو النهار . »

وقد أعجب الساحر إعجابا بالغا بإيسوب الذى أستطاع أن يحل لغزه بمثل هذه السهولة ذلك أنه أنفق وقتا طويلا متفكراً ومتأملا فى اعداد هذا اللغز . ولم يلبث الساحر أن سأله غاضباً :

« أو هنالك شيء ياترى لا تعرفه أو لم تره ؟ » فهز إيسوب رأسه مؤمناً ثم أجاب قائلا :

« نعم هنالك أشياء كثيرة أجهلها وأشياءأخرى أكثر لم أرها . وهناك ثمت شيء واحد تحدث عنه أحدكم ولم أره أنا أبداً ومع ذلك فإنى أرغب فى رؤيته إذا تلطفتم وسمحتم لى بمشاهدته . »

وقال الحكماء فى لهفة « وما هو هذا الشيء » ؟ ونظر إيسوب حوله إلى الجمع ثم قال « ما أريد أن أراه هو الجرة التى يمكن أن يوضع فيها أكثر من أربعمائة كيس . ذلك أن أربعمائة وتسع وثمانين كيسا تزن مثل مائة وعشرين رجلا . ومثل هذه الجرة يجب أن تكون عجيبة عظيمة ليس فقط فيما يتصل بحجمها ، وانما كذلك فيما يتعلق بمتانتها واحتمالها ، فليس بالأمر اليسير أن تتحمل مثـــل هذا الوزن الثقيل . ومهما يكن من أمر فلنتحدث عن أمور أيسر وأسهل . وسأريكم ، إذا شئتم شيئاً لم يره أحد قط من بنى البشر بما فيهم شخص الماثل أمامكم وستدركونه لتوكم ومع ذلك فإنكم إذا رأيتموه مرة فلن تروه ولن يراه بشر مرة أخرى . »

وتعالت صيحات عظيمة من كل جانب . وقال الحكماء والسحرة كلهم :
« هذا لعمر الله مستحيل . فإذا كنت لم تره ولم يره أى إنسان آخر قط ،
فكيف يكون ممكناً أن تعرفه ، أو أن نعرفه نحن ؟ وفضلاً عن ذلك ، إذا
نحن رأيناه فكيف يمنع الآخرون من رؤيته كذلك ؟ »

واستطرد إيسوب قائلا : « ومع ذلك فهو ممكن كما قلت وسأريكم
هذا . »

وانحنى إيسوب إلى الأمام وتناول لوزة من الطبق الموضوع أمامه
ودقها وأخذ الثمرة التى بداخلها ورفعها بين أصابعه كيما يراها الجميع .
ثم قال :

« ستعترفون معى بأن أحداً لم ير هذه الثمرة من قبل، أليس كذلك ؟ »

واضطر الملك وجميع الحكماء والسحرة بأن يعترفوا بأن هذا حق
وصدق .

واستطرد إيسوب قائلا « أو تعترفون بذلك ؟ »

فقال الملك « نعترف حقاً أن هذه لوزة » .

وقال إيسوب وهو يضعها فى فمه ويأكلها « ولن يستطيع رجل آخر
أن يراها مرة أخرى »

وابتهج الملك أبتهاجاً عظيماً وسر سروراً بالغا بذكاء إيسوب على الرغم
من الضيق الذى أشتمل على جميع حكمائه ، ذلك الضيق الذى خفف منه

ما منحوه من مال مقداره الأحد عشر كيسا ونصف كيس .

* * *

ومهما يكن من شيء فقد جمع الملك نيكتانابيس في اليوم التالي حوله جميع أصدقائه كما استدعى كل الحكماء والسحرة وقال لهم :

« أو هنتم وصغرتم على أنفسكم بحيث أن رجلا ضئيلا أو شبه رجل مثل إيسوب هذا المخلوق المشوه المحدود ب الظهر يجلب علينا العار جميعاً ، وهو يجد الحلول الصادقة لكل ألغازنا و يجيب على أصعب أسئلتنا و يكون السبب في حمل هذه الجائزة المالية الضخمة إلى الملك ليكيروس صاحب بابل في حين أقبع أنا هنا لا أجد إلا الاضطراب والضيق نصيباً لى ورفيقاً ؟ »

وعندئذ قامت ضجة عظيمة وقال البعض كلاما وقال الآخرون كلاما آخر .

ثم تكلم أحد الحكماء قائلا :

« أيها الملك العظيم لقد هزمنا إيسوب هذا لأنه تصدى لكل واحد منا بمفرده . وقد انتصر على حكمة الواحد منا اثر الآخر لأن أحداً منا لم يؤيده صاحبه . وليس في وسع أحد أن ينكر أن إيسوب هذا هو في الواقع أشد حكمة وأوسع إدراكا من أى منا ، وذلك على الرغم من أحد يداب ظهره ومن ضآلة بنيانه . ولكن لا شك فى أنه لا يمكن أن يكون أعقل منا

جميعاً . ذلك أن رجلا واحداً لا يستطيع أن يعرف كل شيء وما لا يعرفه رجل من الرجال لا شك يعرفه سواه ، ونحن كلنا نعرف دون ريب أكثر مما يعرفه هو بمفرده . ولا شك أنه يوجد بيننا جميعاً واحدا على الأقل قد سمع بأمر يبدو لأول وهلة مجهولا للكثيرين » .

فقال الملك نيكتانابيس « هذا يبدو كلاما معقولا » .

واستطرد الحكيم قائلا « فلنجتمع إذن كلنا معاً ولنتحدى إيسوب هذا جميعاً لأن يخبرنا عن شيء لا يعرف أحد من المجتمعين عنه شيئاً . ولا ريب أن بيننا من يكون قد سمع بذلك الأمر أو عرفه وبذلك يحيق الإخفاق والفشل بإيسوب » .

وأرسلوا فى طلب إيسوب ، فلما جاء خاطبه كبير السحرة بقوله :

« بأمر مولانا الملك نسألك أن تتحدث إلينا عن أمر نجهله كلنا ولم يسمع به أحدنا » .

وتأمل إيسوب برهة ثم قال : « حسن جدا . سأعرض فى الغداة على الملك نيكتانابيس خطابا مكتوباً يتناول مثل ذلك الأمر » .

وفى الغداة اجتمع الملك ورجال ديوانه وجميع الحكماء والسحرة وأقبل إيسوب .

وشق إيسوب طريقه بصعوبة بالغـة بين الجمع المحتشد حول عرش الملك حتى صار إيسوب أمام الملك ، فانحنى طويلا أمامه وقدم إليه مكتوباً مختوماً بخاتم محكم وقد وضعه فى يد الملك . ثم قال : « هذه مسألة من النوع الذى طلبتموه إلىّ بالأمس . فقد طلبتم إلى أن أسليـكم بأمر لم يسمع به ولم يره أحد المجتمعين فى هذا المـكان » .

وسرى همس شديد وهمهمة ملحوظة . وقالوا جميعاً :

« لا شك أنه سيوجد بيننا من سمع بهذا الأمر أو عرف شيئاً عنه » .

وابتسم إيسوب ابتسامته الخبيثة وقال « هذا هو اعتقادكم ولـكننى أقول انه أمر بعيد عن معارفـكم . والطريقة الوحيدة لحسم هـذا الأمر هى فض هذا الخطاب لنرى من منا على صواب » .

وهـكذا فض الملك نيكتانابيس الخاتم وفتح الخطاب وقرأ ما فيه . وبينما كان يتلوه امتقع وجهه ، وبدا عظيم الدهشة والغضب . وقرأه من جديد قراءة تنبىء عن الاهتمام كما لو كان لا يصدق ما ترى عيناه .

وانحنت الجموع المحتشدة تنتظر متشوقة ومتلهفة لسماع ما يقوله الملك عن محتويات الرسالة . ثم قال الملك فى حماسة مندهشاً : « هاكم أعظم فرية عرفتها فى حياتى »

فتساءل الجميع متلهفين « وماذا تقول هذه الفرية »

فرفع الملك الخطاب فى يده عساهم يطلعون على ما فيه . لقد كان الخطاب وثيقة ممضاة بتوقيع الملك نيكتانابيس نفسه وموجهة إلى الملك ليكيروس عاهل بابل ، وقد اعترف فى هذه الوثيقة بأنه مدين لملك بابل بألفى كيس من الذهب وأنه يوافق على أن يسدد هذا المبلغ لإيسوب حتى يحمله معه سداداً لذلك الدين ، وكان إيسوب قد زور الوثيقة كلها بما فى ذلك إمضاء الملك نيكتانابيس وخاتمه الملوكى .

وصرح الملك نيكتانابيس قائلا : « لم يحدث قط أن وقعت مثل هذا الاتفاق . ولست مدينا للملك ليكيروس بألفى كيس من الذهب . وإنى لأشهدكم جميعاً على أن هذا العقد تزوير مشين وإفك عظيم »

فقال رجال الملك جميعاً « هذا حق فنحن لم نسمع قط شيئاً كهذا »

فقال إيسوب « حسن جداً ، لقد أقنعتكم وأجبت طلبكم إذ أخبرتكم بشىء لم تسمعوا عنه من قبل شيئاً »

وهكذا فقد الملك نيكتانابيس ورجال حاشيته كل أمل فى أن يخطئوا إيسوب أو يوقعوا به فى مأزق . وأعطاه الملك نيكتانابيس كثيراً من الهدايا الثمينة كما حمله الكثير من الهدايا للملك ليكيروس . وطلب إليه مشدداً أن يطيل بقاءه فى مصر إلى جانبه وأن يعيش بها .

وبقى إيسوب بعض الوقت .

ولكن لم يلبث بعد زمن أن عاد إلى الملك ليكيروس عاهل بابل من نفس الطريق التى كان قد اتخذها فى ذهابه إلى مصر .

وقد استقبله الملك ليكيروس بسرور بالغ وفرح عظيم .

* * *

الفصل السابع عشر

وسر الملك ليكيروس سرورا بالغاً لرؤية إيسوب حتى لقد ظل جالسا معه طوال الليل يصغى إلى قصصه كما يصغى إلى قصص أتباعه وهم يروون له كيف انهزم أمامه حكماء الملك نيكتانابيس وسحرته فى كل جولة . ولقد اغتبط الملك اغتباطا عظيما بالنجاح الكامل الذى أسفرت عنه بعثة إيسوب إلى ملك مصر حتى لقد أمر بإقامة تمثال لإيسوب يقام له فى مدينة بابل .

كذلك غمر الملك إيسوب بكثير من ألوان التكريم والتعظيم وبقى إيسوب إلى جواره سنوات أخرى كثيرة .

وفى غضون ذلك وردت أنباء من الملك كروسوس .

ذلك أن الملك كروسوس وجد نفسه بعد غزوه بلاد آسيا الصغرى كلها بما فى ذلك فريجيا وأيونيا وسليسيا ، بل وبلغ فى فتوحه إلى وادى الفرات الأعلى ، نقول وجد الملك نفسه مواجها المواضع المتقدمة فى فتوح الملك كيروس ملك فارس .

ولقد تردد فيما ينبغى عليه صنعه ، ولذلك لجأ إلى العرّافين والمتنبئين يستطلعهم ما إذا كان عليه أن ينتظر هجوما من الملك كيروس أو إذا كان ينبغى أن يتقدم هو لملاقاته والهجوم عليه .

وأجاب العرافون والمتنبئون أنه إذا هاجم الملك كيروس فسيحطم مملكة عظيمة .

ومن ثم فقد هاجم وانتهى به الأمر فعلا إلى الإجهاز على مملكة عظيمة .

بيد أن المملكة التى أجهز عليها لم تكن سوى مملكته هو .

ذلك أن أهل ليديا قد أوقع بهم الملك كيروس الهزيمة عند تمبريا ، وأخذ الملك كروسوس أسيرا وحمله الملك كيروس معه إلى سارديس عاصمة ملكه وحكم عليه بأن يحرق حيا .

وعندما وضع الملك كرسوس على كومة الحطب المعدة لإحراقه وشد وثاقه إليها ، عادت إلى ذاكرته العبارة التى كان صولون الحكيم قد قالها له ، وهى أنه ما من رجل يمكن أن يعد سعيدا إلا بعد موته . وعندئذ نادى باسم صولون ثلاث مرات .

فلما سمع الملك كيروس تلك الصيحة العجيبة منه ، التفت إلى أحد كبار ضباطه وسأله قائلا : « ماذا كان يقول الملك كروسوس ؟ »

فأجاب الضابط لست أدرى . لقد خيل إلى أنه يكرر ذكر اسم ثلاث مرات . ولكن أحدا لا يستطيع أن يعرف حقيقة ذلك الاسم » .

وفكر الملك كيروس هنيهة وما كاد منفذ الحكم بالحرق يتقدم حاملا شعلته حتى أشار له الملك كيروس آمرا إياه بالامتناع . ثم قال : « علىّ بالملك كروسوس فورا » .

فحل وثاق الملك كروسوس واقتيد إلى حيث مثل فى حضرة الملك المنتصر .

ووقف الملكان يواجه أحدهما الآخر وسأل كيروس « ماذا كانت صيحتك التى ندت منك الآن ؟ »

فقال له الملك كروسوس « لقد ذكرت اسم صولون . صولون الأثينى »

فسأله الملك كيروس : « ومن عساه يكون ؟ »

فأجاب كروسوس قائلا « لقد كان حكيما من أعظم حكماء أثينا ، وهو الذى وضع قوانين تلك المدينة وتشريعاتها ، التى حفرت على عامود حتى يستطيع جميع الناس رؤيتها . وما إن صنع ذلك حتى نفى نفسه باختياره من وطنه لمدة عشر سنوات حتى لا يدعى أحد أنه وضع تلك القوانين جريا وراء مصلحة مادية ، وقد حدث فى أثناء ذلك أن وفد إلىّ فى مدينة ساردیس ، وعندما أطلعته على كنوزى وذخائرى وحدثته بسعادتى العظيمة قال لى « ليس فى وسع أحد أن يكون سعيدا إلا متى مات » .

« ولقد استرجعت ذاكرتى هذه العبارة حتى أنى نطقت باسمه ثلاث مرات ذلك أننى أرى اليوم أنه أحكم منى وأنه كان حقا مصيبا فى آرائه » .

وامتلأ الملك كيروس شفقة على الملك كروسوس وعفا عنه وأمر بإطلاق سراحه وسمح له بمواصلة حكمه فى ليديا كممثل له .

والآن وقد سمع الملك ليكيروس ملك بابل بتلك الفتوحات التى انتصر فيها الملك كيروس ، فقد أنهى إلى إيسوب أنه قد اعتزم أن يرسل فى طلب المتنبئين راجيا أن ينبئوه إذا كان هنالك ثمة ما يخشاه من ذلك الملك كيروس ملك فارس ، وأية خطوات ينبغى له اتخاذها توقيا من مثل ذلك التهديد المرتقب . —

وروى له إيسوب قصة الملك كيروس وكيف أن المتنبئين قد أجابوا كروسوس إجابة قادته إلى التهلكة وهى فى الوقت نفسه إجابة يستطيعون إذا روجعوا فيها أن يقولوا انها كانت إجابة حقة . ذلك أن تلك هى العادة التى جرى عليها أولئك المتنبئون . وهكذا حذر إيسوب الملك ليكيروس من تصديق أولئك المتنبئين كما كان قد حذر الملك كروسوس من ذلك الأمر نفسه .

غير أن الملك كان عميق الإيمان والاعتقاد فى أولئك المتنبئين فلم يصغ إلى تحذيرات إيسوب بل ألقى بها وراءه ظهريا .

وقال إيسوب للملك : « لقد كان أجدر بك أن تستعد وتتأهب تأهبا عاقلا حكيما لمواجهة أية كارثة محتملة لا أن يسمح المرء لنفسه بأن تسيطر عليه مثل آراء أولئك المتنبئين والمشعوذين . وخليق بالمرء أن يهتم ويدرس أعمال الرجال وتصرفاتهم لا أن يتتبع طيران الطيور فى الجو ويتسقط أغانيها أو ينظر كيف تأكل فيتخذ من ذلك كله بشيرا أو نذيرا وتتراوح عاطفته بين التفاؤل والتشاؤم . ذلك أن الملك كيروس هذا الذى انتصر على الملك كروسوس ودعم ملكه فى وادى الفرات الأعلى ، وهو النهر الذى يجرى فى مدينة بابل التى تحكمها ، ربما نظر إلى بابل يبغى السيطرة عليها كذلك وضمها إلى ملكه . وانه لأفضل وأحكم أن ترسل السفراء بل وتبعث الجواسيس فيطلعوك على نواياه ، بدلا من أن توفد البعوث إلى دلفى أو دودونيس أو ديلوس يستطلعوس رأى المنجمين والمشعوذين » .

وغضب الملك ليكيروس كثيرا وقال فى دهشة « أن ما تقوله تجديف لا شك فيه يا إيسوب أو تشكك فى هؤلاء المتنبئين ، لا شك أن الآلهة ستعيننا وتنصرنا إذا نحن اتجهنا إليهم نستنصحهم ونطلب الوقوف على آرائهم » .

وجريا على مألوف عادته روى له إيسوب قصة فقال :

« كان أحد سائقى العربات يقود عربته العظيمة الحمل ذات يوم عبر الطريق حينما استقرت فى الطين اللزج المتراكم اثر هطول الأمطار الغزيرة» . ولم يكن هنالك أى عون إنسانى يمكن أن ينتظره فصبّ وابل لعناته على الطريق وعلى عربته بل وعلى جياده وصاح سائلا هرقل أن يمد إليه يد المعونة . وخاطبه هرقل من السماء قائلا : «تلفت حواليك وانظر لم واجهت ذلك الموقف الحرج وما هى العقبة التى تعوقك عن المسير ، ولتزل الطين الذى يغطى كل عجلة من عجلات عربتك ويعوقها عن الدوران فى المسير . وتناول بلطتك الكبيرة ولتحطم بها ذلك الحجر القائم عبر الطريق ثم فلتملأ به تلك الحفرة . والآن هل نفذت كل هذه الأمور وحققتها جميعاً؟» . فأجاب الرجل بقوله « نعم ! فقال هرقل « حسن ، سأساعدك أنا الآن . تناول سوطك وأعنة جيادك ، وشجعها أنت على المسير . » وكان تعجب الرجل ودهشته عظيمين عندما رأى كيف أن عربته تسير الآن سيراً هيناً سهلا . وقال له هرقل « أرأيت كيف تسير جيادك الآن سيراً سهلا وكيف تجر عربتك فى يسر ؟ فلتساعد نفسك تساعدك السماء ! »

فسأله الملك ليكيروس فى لهفة « ولكن أفلا تؤمن إذن بالرموز والعلامات والأشارات ؟ »

فأجاب إيسوب فى إيجاز « لا أو من بشىء منها »

وألحّ الملك ليكيروس قائلا : « ومع ذلك فإنى أذكر أنى استعمت

اليك أنت شخصياً تفسر علامات النسر وحركاته عندما خطف الخاتم الذهبي بمدينة ساموس وكيف أن شروحك قد تحققت وكانت صادقة . »

فأبتسم إيسوب ثم قال : « لقد حذرت أهل ساموس مما كان يوشك أن ينزل بهم . ولقد أكتشفت ذلك باستشارة الناس و بملاحظة تصرفاتهم وأعمالهم لا بتتبع حركات الطيور والوحوش . ولما كان الملك كروسوس قد غزا بالفعل جزر ليمونوس ولسبوس وشيوس فقد كان مرجحاً جداً أن تـكون خطوته التالية التفـكير فى غزو جزيرة ساموس . »

فقال الملك ليـكيروس فى لهجة المنتصر : « ولـكن النسر كان قد اختطف الخاتم وفرَّ به . لا شك أن ذلك كان رمزاً بعث به الألهة تحذيراً لشعب ساموس ونذيراً لهم . فما رأيك فى ذلك أنت الذى تنادى بعدم الأيمان بمثل هذه الشارات والرموز ؟ »

فهز إيسوب كتيفه ثم قال: «لقد اختطف النسر الخاتم لأنه كان ذهبياً يتألق فى أشعة الشمس ، على النحو الذى تصنعه الطيور فى معظم الأحوال. والسبب فى أن النسر قد اختطف الخاتم هو أن أحداً لم يكن واقفاً على مقربة من الخاتم عند ذلك، فيخيف النسر ويرهبه. ولقد كانت هذه الحادثة بالنسبة إلىَّ مجرد فرصة أنتهزتها لتحذير أهل ساموس مما كان يوشك أن يحدث لهم . ذلك أن الملك كروسوس كان قد صمم فعلا على أن يستعبد

أهل ساموس ويجعل منهم رعايا لشخصه ، ولا شك فى أنه كان مقدما على صنع ذلك سواء أخطف النسر الخاتم أم لم يخطفه . ولما كنت قد أقتنعت بينى وبين نفسى بما يوشك أن يحدث ، فقد جعلت تفسيرى لتلك الظاهرة منسجما مع ما أقنعنى به منطق الأحداث . فإذا كان المتنبئون يعرفون قراءة الأحداث واستنطاقها فإنهم سيتمكنون من أخبارك بذلك . فإذا عجزوا ساقوا اليك رداً غامضاً كما فعلوا مع الملك كروسوس . ولكنه من الأيسر عليك أن تبحث أنت بنفسك فترى ما يعتزمه الملك كيروس وستصل إلى ذلك بأيسر مما يبلغه المتنبئون لأنك أشد اهتماما بالأمر منهم . »

فاحتج الملك قائلا : «ولكن المرء يسترشد بآراء المتنبئين على الدوام» .

فقال إيسوب : «إذا رغبت فابعث فى طلب المتنبئين ، ولكن أتوسل إليك أن ترسل السفراء وتبعث بالجواسيس إلى الملك كيروس لكى تهتدى لصورة أقرب إلى التأكيد من نواياه الحقيقية . فمن ذا الذى يستطيع أن يعرف نوايا الملك كيروس أكثر منه شخصياً ؟ وبهذه الوسيلة ربما أصبحت قادراً أن تفهم على وجه الدقة العبارات التى سيلقى إليك بها المتنبئون وعندئذ تستطيع أن تميز الحقيقة كلها . تلك هى الطريقة الحكيمة . وأفضل من ذلك أيضاً أن تبدأ بإرسال السفراء و إيفاد الجواسيس إلى الملك كيروس كما أقترح أنا ، ثم لترسل بعد ذلك فى طلب المتنبئين ولتطلب

إليهم أن يخبروك بما قد انتهيت أنت إليه وسترى بنفسك أنهم لن يقولوا لك أكثر أو أقلّ مما اهتديت إليه أنت شخصياً » .

ولكن الملك ليكيروس لم يقتنع البتة برأى إيسوب . وهو وإنْ كان قد أصغى إلى إيسوب فى كثير من الأمور ، إلا أنه فى هذه المرة كان أشد انجذابا إلى الوقوف على آراء المتنبئين .

وسرعان ما تملكت إيسوب رغبة شديدة فى السفر والرحلة لكى يرى العالم ولكى يزور بلاد الإغريق مرة أخرى .

وهكذا فقد أعد العدة لمغادرة بابل والرحيل عن وادى الفرات حيث تمتع بكل ألوان التكريم والحفاوة مما لا يخطر على بال أحد . ومن ثم فقد التمس من الملك أن يأذن له بالرحيل عن بلاطه . وما كان الملك ليكيروس يستطيع أن يدعه يرحل إلا بعد أن أقسم له بأغلظ الإيمان أنه عائد إلى بابل حيث يختتم حياته إلى جانبه . وقبَّل الملك إيسوب وبكى عند رحيله .

وغادر إيسوب بابل مصطحباً بايدان . فلما بلغ الساحل السورى أبحر إلى بلاد الإغريق . وفى طريقهما إليها نزلا إلى جزيرة ساموس ، حيث قوبل إيسوب بمظاهرات ضخمة اشترك فيها أهل الجزيرة قاطبة .

وتوجه إيسوب لزيارة الكثير من الأماكن التى اشتهر فيها ورُحِّب به فيها ترحيباً بالغاً .

وأخيراً وصل إلى مدينة أثينا حيث استقبل بأعظم مظاهر التكريم الجديرة بحكيم عظيم مثله .

وعرض عليه أثناء مقامه بمدينة أثينا وصية لكى يتولى تفسيرها وشرحها. ذلك أنها قد استعصت على جميع حكماء المدينة وقضاتها .

فقد حدث أن مات رجل عن ثلاث بنات ، وخلَّف لهن كل ممتلكاته كما كان يقضى بذلك قانون أثينا . وكانت كل فتاة من الفتيات الثلاث مختلفة تمام الاختلاف فى خلقها وفى مشربها عن شقيقتيها الأخريين .

كانت الأولى جشعة ومولعة بأطيب المطاعم وألوان الشراب ، بل لعلها كانت أشد ولعاً بالشراب منها بالطعام ، حتى لقد تهامس الكثيرون مؤكدين أنها من المدمنات المغرقات فى الشراب .

وكانت الثانية مولعة بالثياب والحلى وغير ذلك من ملذات الحياة الدنيا ومغرياتها ، وقال الناس انها تجرى وراء المباهج والحياة المرحة الباذخة.

أما الثالثة فقد كانت سيدة بيت بمعنى الكلمة فلم تكن تهتم إلا بإدارة بيتها وفلاحة حقلها وما شابه ذلك من الأمور . ولقد كان الناس يصفونها بأنها درة ثمينة ولكنها كئيبة . وقصارى القول فإنه من الصعب حقاً إرضاء جميع الناس .

وكان الوالد قد ذكر فى وصيته أنه ينبغى تقسيم ممتلكاته إلى ثلاثة أقسام متعادلة لكل فتاة من الفتيات الثلاث قسم . فإذا ماورثت كل منهن نصيبها من التركة ، كان من واجبها أن تدفع لوالدتها مبلغاً معيناً بمجرد أن تحرم كل منهن من النصيب الذى حدده لها القائمون على تنفيذ تلك الوصية .

وكان هذا البند الأخير من الوصية هو الذى استعصى حله على رجال القانون والقضاة فى أثينا . ذلك أنهم لم يستطيعوا أن يدركوا كيف يتيسر للفتيات أن يدفعن لوالدتهن شيئاً طالما هن لا يملكن شيئاً مما تركه لهن والدهن فى الوصية .

وهكذا قسمت تركة الموصى دون نظر إلى البند الخاص بالأم على أن يكون حسم ذلك الأمر فيما بعد .

ولقد روعى فى تقسيم التركة أن تكون منسجمة مع ميول الفتيات الثلاث وهواياتهن . فكان القسم الأول من التركة يتألف من أقبية النبيذ ومخازن الطعام والصحاف الفضية والذهبية ، وقصارى القول فقد كان هذا الجانب من التركة يضم كافة أدوات المائدة وطهو الطعام .

وكان الجانب الثانى من التركة يتألف من الأقمشة الحريرية الرقيقة ومن الحلى النادرة والأحجار الكريمة ومن الأثاث الثمين والمنازل

والدور القائمة فى أرقى أحياء المدينة ، كما كان يتألف من القيان والعبيد المتخصصين فى فنون الزينة وتجميل الشعر وتنظيمه وفى صناعة الملابس وتطريزها .

وأما القسم الثالث فقد اشتمل على كافة الحقول والمراعى والماشية والضأن والأغنام والمنازل الريفية .

ولما تم تقسيم التركة على هذا النحو وقدرها قضاة عدول وثمنوها تثميناً مناسباً ودقيقاً ، أصبح من الميسور القول بأن كل قسم من هذه الأقسام الثلاث يؤلف ثلث مجموع الثروة التى خلفها الأب الراحل .

ثم اقترح القضاة أن تعطى كل فتاة القسم الذى يلائم ميولها و يناسب اتجاهاتها .

فقال إيسوب « لو ان الأب كان لا يزال حياً ، لكان قد توجه إليكم جميعاً باللوم . ذلك أنكم تصيبونه بخيبة أمل شديدة وتعجزون عن فهم مقصده ومرماه . ماذا أرى ؟ إنكم يا أهل أثينا تفتخرون بذكائكم وبحسن إدراككم فكيف بالله تسيئون تفسير الوصية التى خلفها ذلك الأب ! »

وما كاد إيسوب يقول ذلك حتى عمد إلى تقسيم التركة معطياً كل فتاة الجزء الذى يتعارض تعارضاً كلياً مع ميولها وأهوائها .

فأما الفتاة اللعوب فقد أعطاها الطعام والنبيذ وأدوات المائدة ، وأما الأخت الجشعة فقد أخذت الماشية والحقول ، وأما ربة المنزل المدبرة الحكيمة فقد أعطاها الحلى والملابس الثمينة والقيان الحاذقات فى تصفيف الشعر .

وقال إيسوب ، بهذه الوسيلة ستضطر كل واحدة منهن أن تتخلص من نصيبها فتبيعه وتحوله إلى مال . أما إذا أعطيت كل واحدة ما يناسب أهواءها فإنها ستعمد إلى الإبقاء على ذلك النصيب لاستعمالها الشخصى وسترفض حينذاك أن تتخلى عن جانب منه ، أما والأمر كما رتبته ، فإن كل فتاة من الفتيات الثلاث ستعمد إلى تحويل حصتها من التركة إلى مال ، وبذلك تستطيع ثلاثتهن أن يدفعن لوالدتهن ما يجب عليهن دفعه ، كما سيجدن لديهن المال الذى يتقدمن به مهراً للخاطبين وبذلك يتزوجن »

وقد رحب الآثينيون بهذا التفسير ترحيباً عظيما ودهشوا دهشة كبيرة كيف أن رجلا واحدا يبذّهم جميعا فى حسن الإدراك وفى الفهم السليم .

* * *

الفصل الثامن عشر

وجاب إيسوب فى طول البلاد وعرضها ، وكان يستقبل حيثما قصد بأكبر مظاهر التكريم والتشريف ونادى به الناس الحكيم الأول للأغريق . ذلك أن شهرة أعماله وأقواله كانت قد انتشرت فى العالم المتمدين بأسره ، كما أن قصصه ورواياته كانت تردد وتكرر فى كل مكان .

وأخيرا زار مدينة دلفى .

وكانت دلفى مشهورة فى العالم بمتنبئها و بالمعبد الذى شيد فيها للإله أپولو . وكان الناس يبعثون من مختلف أجزاء العالم الرسل يستشيرون متنبئها ، وكانت هنالك كاهنة تعرف باسم سيبيل تتولى الرد على أسئلة السائلين . وكان يقوم على خدمة ذلك المعبد عدد عظيم من الكهنة كانوا يتولون تفسير أقوال سيبيل التى كانت تصدر فى عبارات غامضة مغمغمة وفى صيحات وتأوهات غير واضحة ، لم يكن يستطيع الادعاء بفهمها إلا أولئك الكهنة . وكانت تلك الأصوات الصادرة عن سيبيل فى أثناء هذيانها يتولى الكهنة نقلها إلى اللغة العادية حتى يستطيع أن يفهمها الناس الذى لم يوهبوا تلك الموهبة العظيمة التى أنعمت الآلهة بها على الكهنة .

وسواء عرف أهل دلفى بموقف إيسوب من المتنبئين والعرافين بوجه

عام ، أو لم يعرفوا ، فإنهم لم يظهروا أى لون من ألوان الاحترام لإيسوب . لقد كانوا يبدون الرغبة فى الإصغاء إليه إذا تكلم وإن كانوا لم يظهروا ضيقهم أو قلقهم إذا لم يتكلم ، كما أنهم لم يقيموا استقبالا كبيرا له كما صنعت مدن الأغريق الأخرى بما فى ذلك أثينا . ولقد أحس إيسوب بأنه قد أسىء إليه بهذه الظاهرة من مظاهر عدم الاحترام .

ذلك أنه قد رحل فى رحلة الحياة شوطا بعيدا منذ ذلك العهد الذى قال له فيه العرّاف وهو شاب : «أنك كريه المنظر يابنى ، أنك مشوه الوجه والجسد معا،فلا تخطئ أبدا فى فهم موقفك هذا . وانذكره دائما أبدا حتى لا يداخلك الغرور . ذلك أن الحكمة والشرف لا يظهران إلا بالتواضع ، فى حين أن التكبر والعجرفة لا يورثان إلا الجنون والموت » .

ولقد كان الأجدر بإيسوب أن يتذكر هذه الكلمات .

ولكن بدلا من أن يتذكرها ساءه كثيرا موقف أهالى دلفى ، فرغب فى أن ينتقم لهذه الهفوة ، فألقى خطابا على الملأ قارن فيه بينهم و بين عصىّ تتقاذفها أمواج البحر ، فالواقفون على الشاطئ يرونها من بعيد فيحسبونها أسطولا قويا قادما فوق العباب . فلما مضى الوقت أصبح ذلك الأسطول فى رأى المراقبين على الشاطئ سفينة ، ثم مركبا لصيد السمك ثم حزمة ، فلما صارت على مقربة وحملتها الرياح إلى الشاطئ رآها الواقفون فى صورتها الحقيقية .

وهكذا حال أهل دلفى .

يتخيلهم المرء من بعيد قوما عظيمى الأهمية ولـكنه إذا نظر إليهم عن مقربة راعه أنهم عديمى الأهمية .

غير أن هذه المقارنة قد كلَّفته ثمنا غاليا .

فقد أضمر أهل دلفى له بغضا شديدا حتى أنهم تآمروا فيما بينهم على الانتقام منه .

وفى ذات يوم أقبل بايدان ، الذى زامل إيسوب فى كل مكان رحل إليه ، وقد انقطع نَفَسه من كثرة الجرى . وقال له وهـو عظيم القلق والاضطراب : « لقـد رأيت يوزات » ولم يثر اسم يوزات أى معنى فى ذهن إيسوب عند ما سمعه لأول مرة ، ذلك أنه كان قد نسى وجود ذلك الرجل نسيانا تاما . ولم يلبث أن قال مستفهما :

« يورات ! من عساه يكون ! يخيل لى أنى أتذكر ... »

فهز بايدان كتفيه فى قلق وقال : « لا شك أنك تذكر يوزات . ذلك الراعى الذى ... »

فقال إيسوب : « نعم ، نعم أذكره الآن ، لقد كان اسمه يوزات بطبيعة الحال . لقد مضى زمن طويل حتى لقد كدت أنساه . وما عساه يصنع هنا فى دلفى ! »

وكان بايدان ظاهر القلق فأجاب « إنه أحد كهنة معبد أبوللو »

فتعاظمت دهشة إيسوب وأعاد عبارته فى ذهول : « أحد الكهنة ! أواثق أنت من أنك لم تخطىء ! »

فهز بايدان رأسه فى توكيد وحزم ، ثم قال « لم أخطىء . أنى واثق من أنه يوزات . وفى وسعى أن أميزه فى أى مكان وعلى أية صورة . »

فسأله إيسوب قائلا : « أو هل تحدثت إليه ! »

فهز بايدان رأسه ، ثم قال « كلا ، لقد اختفى . ولكنه رآنى ، وإنى واثق من أنه عرفنى . والأدهى من ذلك أنه كان يراقبنى على ما أعتقد . »

فقال إيسوب « حسن ، وماذا فى ذلك ! »

فقال بايدان « لا شك عندى فى أنه يعد لنا خطة غادرة ، لقد كان أفضل لنا يا إيسوب لو أنك تركت يوزات ولم تبتعه من النخاس فى سارديس عند ما وقع بصرك عليه .

فاحتج إيسوب قائلا : « ولكننى وهبته حريته فورا . »

فأعاد بايدان عليه قوله « نعم لقد وهبته حريته . وهو يمقتك من أجل ذلك ، أنى أعرفه جيدا ، وإن طبيعته الحقيرة الدنيئة تجعله يثور على من قدّم له إحسانا أكثر من ثورته على من يسىء إليه ، وهو لن يغفر لك ذلك الاحسان ، ولقد كانت كراهيته تشتد فى نفسه وتتزايد على مر

السنين ، فهو أشبه بالأفعى بل أشد سوءاً من الأفعى ، واذا استطاع فسيلحق بنا أذى شديدا ذلك أنه يمقتنى كذلك نتيجة لمقته أياك . »

فهز ايسوب كتفيه ، وقال : «حسن ، سنبرح دلفى غدا على أية حال وهكذا فلست أظن أنه مستطيع أن يلحق بنا أى أذى ولو أن فى نيته شيئا من ذلك لحاول ذلك من قبل . ونحن راحلان غدا وأرجو ألا نعود إلى هنا أبدا . فما أحببت هذا المكان قط . أو تظن أنه يعرفنى أو يعرف أنى هنا ؟ »

فابتسم بايدان ، ثم قال فى مودة ظاهرة : « ومن ذا الذى يجهلك أيها الصغير الدميم الكريه المنظر . فليس فى الدنيا كلها أثنان من طرازك لا فى العقل ، ولا فى التكوين البدنى . نعم سأحمد الله كثيرا متى غادرنا هذا المكان . فهو مكان معلون . وسأظل قلقا حتى نصبح بمنجاة منه . وأنى أعرف أنك لا تؤمن بأقوال المتنبئين والراجمين بالغيب ، ولكن إذا كان هناك ثمة طائر يجلب الشؤم فذلك الطائر هو يوزات . »

وفى صباح اليوم التالى غادر إيسوب وبايدان وأتباعهما مدينة دلفى مبكرين وصاروا فى الطريق المؤدى إلى فوسيديا ، فى طريق عودتهم إلى أثينا . وكانت فوسيديا مكانا مقدسا، إذ شيد بها معبد أبوللو فى دلفى وضريح متنبئه كما يقوم بها جبل بارناسوس وهو جبل مقدس عند أبوللو والآلهة

السبع، كما كان باعث الوحى والالهام للشعراء . واعتزم إيسوب أن يعود إلى أثينا عبر ذلك الطريق، ومنها إلى بابل، كما كان قد واعد الملك ليكيروس بأن ينهى أيامه إلى جانبه .

ولم يكونا قد قطعا جانبا كبيرا من الطريق عند ما نظر بايدان حوله فرأى على مسافة جمعاً من الناس يهرعون نحوهما . وكانوا يثيرون سحابة من الغبار انعقدت فى الجو فوقهم .

واستطاعوا أن يستمعوا إلى صيحاتهم عندما اقتربوا منهم. فلما أصبحوا على مقربه نادى كبيرهم على إيسوب وأتباعه وطلب إليهم أن يكفوا عن المسير .

وقال بايدان متلهفا قلقا: « أنظر هاك يوزات فى المقدمة يقود الجمع. »

فلما أصبح الحشد على مقربة من إيسوب وصحبه تقدم يوزات يخطو مباهيا خطوات السيد الفخور ،وقبض على كتفى إيسوب دون تمهيد ثم أعلنه فى عبارة مختصرة : « لقد سرق أحـد آنيتنا المقدسة ، من معبد أبوللو . »

وأدرك إيسوب لفوره أنهم ينشدون مساعدته وعونه على النحو الذى كان يفعله الملك كروسوس عند ما طلب إليه أن يسترد كنزه الضائع

أو عند ما ناشده هرميبوس عند ما سرقت جواهر الملك لـيكيروس فقال : « أو تريد أن أعاونك فى الحصول عليها واستردادها ؟ »

فابتسم يوزات متهكما ، ثم أجاب قائلا : « نعم هـذا هو ما نرغب فيه تماما »

فقال إيسوب « متى سرقت ؟ »

فندّت من يوزات ضحكة كريهة ، ثم قال فى صوت وقح : « لا شك أنك تعرف »

فانطلق بايدان مجلجلا كالرعد « ماذا تعنى بقولك هذا ؟ » هل تشير إلى أننا لصان وأننا قد سرقنا أنائكم

فأسرع يوزات قائلا « نعم ، هذا هو ما نظنه . »

فقال إيسوب « ولـكن هـذا هراء ومحض افتراء . فنحن بطبيعة الحال لم نسرق أناءك المقدس . ولم نفعل ذلك ، وعلى أية حال فإذا كان هذا هو ظنـكم فهلموا فتشوا متاعنا حتى ترضى نفوسكم وتصفح . »

فقال يوزات : « وهذا ما جئنا من أجله »

و بدون أية مقدمات ، شرع يوزات ،هو وستة من الـكهنة الآخرين الذين صحبوه ، فى انزال المتاع عن ظهور الحيوانات وراحوا يلقون بذلك المتاع عبر الطريق وعلى ملأ من القوم الذين كانوا ينظرون فى اكتئاب ـ

وفجأة ندّت صيحة عالية من أحد الكهنة ، وقفز قفزة فى الهواء وقد أخرج من أحدى الحقائب أناء ذهبيا أدعى أنه وجده فيه وحمله فى يده عاليا فى الهواء حتى يراه الجمع المحتشد ، ثم قال صائحاً . « هذا هو ، هذا هو أناؤنا المقدس ، لقد وجدته .

وتقدم الحشد إلى الأمام يتدافعون بالمناكب وصاحوا قائلين « نريد أن نراه . »

وصاح يوزات « لقد سرقتموه » .

فسرت بين الجمع همهمة ثم تعالت فإذا بها صيحة غضب وقالوا « سرقة ، تجديف ، كفر ، اقتلوا المجدّف الذى اعتدا على معبدنا . »

وبدا على البعض من المحتشدين كما لو كانوا يهمون بالقاء القبض عليه . »

واحتج ايسوب متراجعاً وهو يقول « ولكن هذا كذب وافتراء وباطل . أنا لا أسرق أناءكم المقدس ... »

فصاح الجمع « نعم ، لقد فعلت أيها اللص — أقتلوه ، أقتلوه ، أقتلوه ... »

فرفع يوزات يده مناشداً أياهم الصمت ، وبوصفه كاهنا فقد بدا عليه أن له سلطانا على المحتشدين حتى لقد أذعنوا لأمره فتراجعوا ولزموا الصمت .

ولم يلبث يوزات أن أعلنهم بقوله « سنسير فى هذا الأمر طبقاً لما يقضى به القانون . لسنا نحن الذين ننفذ فى إيسوب الحكم وإنما رئيس الكهنة وقضاة المدينة هم الذين يتولون ذلك . وسنعود به إليهم وسيتولون محاكمته على ما شهدتم من جرمه . »

فصاح الجمع كلهم « نعم سيحاكم من أجل ما رأيناه جميعاً . فلقد رأينا بأعيننا كيف عثر على الأناء الذهبى مخبئاً فى متاعه . »

فأنطلق بأيدان قائلا « أصغ لى الآن يايوزات . »

فأجاب يوزات غاضباً وهو يهز يد بايدان ليبعدها عن كتفه وقد أدار له ظهره : « أنا لا أعرفك »

فصاح بايدان فى سورة الغضب « هذا كذب لقد خبّأ هذا الأناء فى متاع إيسوب عدوله . وما كان لإيسوب أن يسرقه فهو رجل برىء . »

فأبتسم يوزات ساخراً وقال « نعم انه رجل برىء . قصة جديرة بالتصديق . انه رجل عرف عنه مقته الشديد للمتنبئين المقدسين . وانه لأمر متوقع من مثله أن يغشى المعبد ليسرق أناء من آنيته المقدسة . عودوا به إلى القضاة ليحاكموه » .

وعلى الرغم من احتجاجات بايدان وغضبه الشديد فقد وضعت

الأغلال فى يدى إيسوب وسيق إلى دلفى حيث ألقى فى زنزانة يسام فيها أشد ألوان العذاب ، كما لو كان من أخطر المجرمين .

وقال إيسوب وقد يئس وفقد كل أمل : « أنت ترى ، لقد أحضروا معهم حتى القيود والسلاسل علماً منهم بما أعتزموا القيام به . »

ولقد أصيب بايدان بصدمة شديدة ، ولسكنه سار يتبعهم إلى المدينة . وطاف على جميع قضاتها مظهراً لهم براءة إيسوب ولـكنه تحقق لفوره أنه إنما يواجه مؤامرة اشترك فيها كافة المواطنين بما فيهم القضاة أنفسهم . ذلك أن إيسوب قد أثار سخطهم العميق بتشبيهه أياهم بأعواد لا قيمة لها طافية على اليم تتقاذفها الأمواج » ، ولقد رأى بايدان من فوره أنه لا أمل على الأطلاق فى أنتظار أية عدالة أو حتى فى إصغائهم إلى حديثه ودفاعه .

ذلك أنه لا شك فى أن ذلك الأناء قد أخفى حيث عثر عليه أو لعل الـكاهن قد أحضره معه وخبأه فى ثيابه هو وادعى أنه وجده فى المتاع .

وأدرك بايدان مبلغ دناءة يوزات وسوء تدبيره فاشتد سخطه وغضبه عليه واحتقره . فتلك طبيعة الرجل . تأبى إلا أن تسىء وتدس وتمتلىء حقدا وضغينة .

ومهما يكن من أمر فقد سمح لبايدان أن يزور صديقه فى سجنه حيث حاول أن يخفف عنه و إن كان هو نفسه لم يجد إلى الراحة الذهنية سبيلا .

ولـكن إيسوب استطاع أن يرى بنفسه أنه هالك لا محالة إذا لم يعنه أحد من خارج المدينة فقال « أرى أنه لا فائدة ولا أمل . أنك تعرف كما أعرف،أنا تماما أنى برىء من هذه الفرية . ولـكنهم لن يصغوا إلى دفاعى . ذلك لثقتى من أن يوزات نفسه أو أحد أتباعه قد خبأ الأناء بين متاعى . »

فهز بايدان رأسه أسفا ثم تمتم فى عبارة متقطعة قائلا « وأنت قدوهبته حريته وأعطيته كيسا من الذهب . آه يا أيها الصغير الدميم ، كان أفضل لو أنك تركته يرسف فى عبوديته . »

فأشار إيسوب أشارة من فقد كل أمل ثم أجاب بقوله :

ما حدث حدث ولا يستطاع تبديله . وأنه لا فائدة على الاطلاق فى التحسر على ما فعلت فى هذه السنوات الطويلة ، كلا يا بايدان ، إن الشىء الوحيد الذى يجب صنعه هو أن تقصد من فورك إلى أثينا وتطلع القوم هناك على ما حدث،حتى يبعثوا بعون فيطلق سراحى . وإلا فالدمار والموت لى . توجه من فورك يا بايدان ولا تتردد . »

فقال بايدان : « ماذا تقول ! وأدعك وحدك هنا ؟ »

فقال إيسوب « وماذا تستطيع أن تفعل هنا ؟ أنت لا تستطيع أن تصنع شيئا ، أنت بمفردك أمام هذا العدد الهائل ، ولـكن توجه من فورك

إلى أثينا واعلن فى الناس تلك المؤامرة الخبيثة ضدى ، واجلب عونا معك
قل لى كم من الزمن يقتضيك للوصول الى اثينا ؟ »

فأجاب بايدان « استطيع فيما ارى بلوغها بعد اربعة ايام ، بل ربما وصلتها فى ثلاثة ايام ونصف يوم ، بل وفى اقل من ذلك ، نعم ، إنك على صواب ، سأتوجه الى اثينا ، آه يا ايها الصغير القبيح الهيئة ، كم اتمنى لو اننا لم نأت ابدا الى هذا المكان الملعون ، »

فقال ايسوب فى لهفة « قل لهم إن الأمر حرج والموقف عصيب ، انى لا اثق بأى رجل من هؤلاء الرجال ، وسيعجلون بمحاكمتى بأسرع ما يمكن ، بل والارجح عندى ان يوزات يتآمر معهم جميعا ضدى ، عجِّل يا بايدان ، عجِّل ! »

ثم قبَّل بايدان إيسوب و بكى ، واستأذنه فى الرحيل ، ثم انصرف مغادرا السجن .

وانطلق من فوره قاصدا أثينا .

الفصل التاسع عشر

وظل إيسوب حبيس زنزانته ، محروما من الضياء ، اللهم إلا ما كان يتخلل ثغرة ضئيلة فى أعلى الحائط ، ولم يكن يتناول من الطعام سوى الخبز والماء القراح ، وكان فراشه حزمة من القش القذر .

و بين لحظة وأخرى كان يأتى إليه فى محبسه من يستجو به أو يتهكم عليه وكانت أفكاره طوال هذا الوقت ترافق بايدان فى رحلته إلى أثينا وكان يعذبه و يفترسه إحساس باليأس القاتل ، ولم يكن يستطيع أن يظل ساكنا ، فإذا اضطجع على القش ينشد الراحة ، وجد الراحة أمرا مستحيلا وألفى الهدوء متعذرا ومستعصيا ، فلا يلبث أن يقف ، و يأخذ فى السير بخطوات قلقة ، فى زنزانته الضيقة ، وقد ازدادت لهفته إلى أن ينعم بالهدوء والسكون ، فى حين تزاحمت الأسئلة فى ذهنه

أين بلغ بايدان اليوم فى سفره ؟ هل يعوق الجو السيء والمطر المتساقط تقدمه فى الطريق ، أو هل كان ذلك المطر محليا ؟ وهل سيتذكر فيحيط أهل أثينا علما بسوء طوية يوزات و بغضه المنطوى على الحقد والغيرة ، وكيف أن الموقف عسير وضنك ، بحيث يجدر بهم أن يخفوا سريعا لانقاذه

وفى اليوم الثالث بدأ يفكر فى أن بايدان لا بد مقترب من أثينا .

إنه ليكاد يراه ، وقد ازدادت أفكاره لهفة وشراهة . واستطاع أن يتخيل ذلك الجسم الضخم وهو يسير ويسير قدما ، ضاربا أرض الطريق بقدميه القويتين اللتين لا تكلان ، وقد أنكر التعب وهزأ بالمطر ، وسار شاقا طريقه على الرغم من مختلف العقبات والعوائق . نعم ، لا بد أن يكون بايدان قد أصبح الآن على مسافة قريبة جدا من أثينا . بل لا شك أنه وصلها الآن فعلا . لقد قال إنه بالغها فى أربعة أيام ، ولكنه ربما بلغها فى وقت أقصر من ذلك ، ولقد أمضيا خمسة أيام فى القدوم منها ، وهما قد سافرا على مراحل مريحة ، فى حين أن بايدان متقدم صوبها مسرعا ، لا يعرقل من سرعته رفيقه الأشد بطئا ، بل إن لهفة بايدان وقلقه سيدفعان به إلى المضاعفة من سرعة سيره . نعم ، لا بد أنه بلغ المدينة فى أقل وقت ميسور . ولاشك أنه قد بلغ الآن أثينا ، ولا ريب أن أهلها أصبحوا الآن على بيّنة من الخطر الذى يتهدده ، وإنهم الآن ليعدون عدتهم لكى يفعلوا . . . لكى يفعلوا ماذا ؟ هل سيبدءون العمل سريعا وفورا أم هل يبددون الوقت الثمين فى لجاج لا نهاية له أو مناقشات طويلة تنتهى إلى آراء مختلفة وأحزاب متضادة الاتجاه والهدف ، فيسفر ذلك كله عن إضاعة الفرصة الثمينة لإنقاذه ؟ هل سيعمد أقطابهم إلى العمل فورا أم هل سيلقون الخطب ؟ هل سيرسلون جيشا أم سيبعثون حملة ، أو هل قد انقضت حقا

ثلاثة أيام منــذ رحل بايدان أم هل انصرم يومان فقط ، أو لعله قد فَقَدَ مقدرته على حساب الزمن ، ذلك أن الدقائق والساعات تسير ببطء كَمَنْ يجرُّ ساقَيْهِ جرا ، حتى ليبدو اليوم لا نهاية له فى حساب الزمن ، فلقد أَصبح اليوم من الطول فى حسبانه ، حتى صــار عاجزا عن تقديره فى وضعه الطبيعى . فهل فقد مقدرته على حساب الزمن ؟ وكلما ازدادت محاولته للتذكر ، ازدادت أفـكاره اضطرابا و إظلاما ! وإنه ليتمنى الآن لو انه كان قد أرسل بايدان إلى أثينا من أَول الأمر ، عندما استُوْقِفا على الطريق ، اذن لأمـكنهما أن يكسبا يوما كاملا على الأقل .

وراح إيسوب يذرع أرض زنزانته فى قلق جيئة وذهاباً ، محاولاً أن يبعث بأفـكاره خلف بايدان لِتَحُثَّه على بذل جهود أعظم فى رحلته لقد ألفى إيسوب نفسه يسير فى خطوات محمومة قلقة ، وقد ضم قبضتى يديه ، كما لو كان يستطيع بهذه الوسيلة أن يدفع صديقه القديم إلى التعجيل بالقدوم .

فهل يدرك بايدان مبلغ حروجة موقفه ؟

وشعر بالإنهاك الشامل والضعف الشديد فهوى مضطجعاً على حزمة الحطب ، ونام نوماً قلقاً ، وقد عذَّبت ذهنه أحلام مزعجة رهيبة ، ثم استيقظ منهكا مهموماً ، وقد عجز عن تقدير الفترة التى قضاها نائماً ،

بل لقد أعياه أن يدرك إذا كان قد نام على الإطلاق !وهل هذا يوم آخر ؟ أو لعل الضوء الباهت الذى يصل إليه من كوة الحائط ليس سوى ضوء اليوم نفسه ، وأنه لم ينم سوى دقائق معدودات ؟ إذا كان هذا يوم جديد، فلابد أن يكون بايدان فى أثينا الآن . لا بد أن يكون موجداً فيها ! فكم من الزمن ينبغى أن ينفقه فى إغراء الأثينيين وحملهم على القدوم لفك وثاقه ؟ وهل هم سَيَهمّون بذلك حقاً ؟ كان ذلك هو السؤال الذى خالج ضميره . وعلى أية صورة يعملون لإنقاذه ؟

ولعل بايدان كان قد بلغ أثينا قبل الموعد الذى حدده هو لبلوغه إياها، بل لعل العون فى طريقه إليه الآن ، ولعل الأثنيون يتقدمون الآن بخطى ثابتة لتخليصه من محسبه . لعلهم الآن فى الطريق يدنون منه ويقتربون . وربما كان وصولهم إلى دلفى مساء الغد أو صباح بعد غد على أبعد احتمال !

يجب أن يصلوا إلى دلفى صباح بعد غد !

أو . . هل يمكن أن تقع حادثة ما لبايدان ؟

لقد تقدمت السن ببايدان ، وربما وقع له حادث مؤسف . من اليسير أن يلتوى مفصل من مفاصله نتيجةً لإسراعه فى السير وتلهفه على قطع الطرقات الصخرية مُعْجلاً ، أو لعله ضلّ الطريقَ فى الظلام ، وهو يحاول مواصلة السير أثناء الليل .

وهنـــا تنهد إيسوب فى أمل و رجاء عظيمين ، ذا كراً أن الطبيعة قد أنعمت على بايدان بجسد قوى متين ! كَمْ كان بايدان رائعاً نبيلا . لقد كان صديقاً أميناً مخلصاً بقدر ما كان هائل الجسم قوى العضلات . . أجل إنه جدٌّ قوى ، وجدّ شجاع ، وجدّ سعيد ! وانطلق إيسوب مرة أخرى يصوره فى ذهنه ملاكاً ، يسمو و يحلّق عالياً فوق الخلافات التى تضطرم بها نفوس صغار الناس !

و يالبايدان من رجل حُرٍّ . . إنه حرٌّ شأن الهواء الممتزج بأشعة الشمس . كلا ، إنّ حادثاً ما لا يمـكن أن يقع له على التحقيق ، و إذا أمـكن أن يكتب النجاح لإنسان ، فلا بد أن يكون بايدان هو ذلك الإنسان ! ومن الواجب المحتوم أن يُوَفَّق فى مهمته .

ولقد أصغى لصوتٍ فى الخارج .

أَمـكن أَن يكون بايدان قد عاد فعلا ؟ ومعه عَوْنٌ من أَثينا ؟ ذلك محتمل . !

ولـكنْ لا ! جملةُ الأمرِ أن بعض الحرّاس قد أقبل يحمل إليه إناءً به ماءٌ وكسرةٌ من الخبز .

وسأله إيسوب متلهفاً « أى يوم هذا ؟ »

فلم يجبه الرجل بشىء ، وإنما وضع الإناء على الأرض ، ووضع الخبز فوق الإناء ، واستدار منصرفا ، وأغلق من دونه الباب بالمزلاج .

ومع ذلك فقد فكّر إيسوب مليًا ، ثم انتهى إلى أنه ليس ميسوراً أن يعود بايدان الآن ، مهما يكن اليوم ، بيد أنه لا بد أن يكون فى طريق عودته إلى دلفى ، ولا بدّ أنه يقترب بالعون المنتظر ؛ بل انّه يقترب اقترابًا عظيما .

ولم ينم ايسوب ليلته تلك ، وإنما راح يرهف سمعه لأضال الأصوات وأشدها خفوتاً ، بينما تراءت أمام خاطره كل ألوان الذكريات ، وقد تراقصت مضطربة مختلطة كما لو كانت كابوساً محموماً ! أَمُقَدَّرٌ له أن يرى بابل مرة أخرى ؟ لقد رأى بعين الخيال شوارعها وقصورها وشعبها وعاهلها الملك ليكيروس لقد كانت رؤيته لهؤلاء الأشخاص وهذه الأماكن جليّةً حيّةً ، بحيث صعب عليه أن يصدق أنه ليس هناك فى بابل ، وأن كل ما يرى ليس إلاّ كابوساً مزعجاً .

لقد كان سعيداً فى بابل سعادة لم يدرك كنهها حتى الآن ! أجل ، بابل ! حيث ينتظر الملك ليكيروس أوبته إليها . أوَ هل يراها مرة أخرى ؟ وكان إيسوب لا يعرف حتى الآن أن بابل ، مدينة بابل المنيعة التى لا تقهر ، قد أصبحت اليوم فى قبضة الملك كيروس ، عاهل بلاد فارس

وأن الملك ليكيروس أصبح أسيراً عنده ، كما صار الملك كروسوس أسيره من قبل .

لقد كانت ليلة فريدة فى هدوئها .

كانت من الهدوء بحيث استطاع أن يستمع إلى الحراس وهم يتهامسون فى الخارج ، وأن يصغى إلى الأصوات التى تحدثها أقدامهم وهم يسيرون جيئةً وذهوباً ، و بلغت أذنيه كذلك قعقعة أسلحة الجنود ، وصلصلة عتادهم وخشخشة سروج جيادهم . بل لقد استطاع أن يسمع أنفاس الحارس الذى قدم متلصصاً بين الفينة والأخرى ، لينظر من فرجة الباب ، للتأكد من وجوده هناك .

وفى صباح اليوم التالى سمع فى الخارج جلبة غير عادية !

لابد أن بايدان قادم دون ريب ! لقد انصرمت ستة أيام منذ رحيله فبدت كأنها دهر طويل . لا شكَّ أن بايدان استطاع أن يصنع شيئاً من أجله فى هذه المدة الطويلة حقاً . . أو لعله اليوم الخامس فقط ؟ وهبط قلب إيسوب فى أحشائه ! وحاول أن يتذكر و بذل جهداً محموماً فى هذا السبيل ، غير أنه لم يخرج من تلك المحاولة إلاَّ بأنه أصبح عاجزاً عن حساب الزمن ، وأنه كلما بذل مجهوداً أكبر فى سبيل التذكر ، ازدادت أفكاره تشابكاً واختلاطاً .

إذا كان هذا هو اليوم السادس فالمنتظر أن يكون بايدان قد عاد فعلا. أما إذا كان هذا هو اليوم الخامس ، فليس معقولا أن يكون قد عاد !

وفُتح باب زنزانته .

ولم يكن الداخل بايدان .

وإنما وقف عند الباب عدد من الحراس ، ثم بدا وجه يوزات الشرّير ، وقد أخذ ينظر حوله فى الظلام بعينين نصف مفتوحتين ، إلى أن وقع بصره على إيسوب ، فأصدر إليه أمره فى خشونة صائحاً : « أخرج ! »

وأحسّ إيسوب بشعور غريب ، وخُيِّل إليه لحظةً أنه موشك على الغرق ، وشعر بوخزة مؤلمة فى قلبه ، فى حين جَفَّ حلقه ثم لم يلبث أن تمتم قائلا : « كم قضيتُ من الزمن فى هذا المكان ؟ »

ولقد خيل إليه فى محنته هذه أنه قد فقد مرة أخرى مقدرته على الكلام . ولو أن ذلك وقع حقاً لكان خطباً فظيعاً . ولم يلبث أن أعاد سؤاله قائلا :

« كم قضيت من الزمن فى هذا المكان ؟ »

فأجاب يوزات دون احتفال : « خمسة أو ستة أيام »

فألح عليه إيسوب سائلا : « نعم ، ولكن هل هى خمسة أو ستة ، وما هو يومنا هذا ؟ »

فقال يوزات فى خشونة « دعك من معرفة اسم هذا اليوم ، وأخرج »

وهكذا تبعهم إيسوب . ولقد بهر ضوء الشمس الساطع عينيه ، حتى لقد أغمضهما نصف إغماضة ، ولكن بصره لم يلبث أن ألف ذلك الضياء الغامر . وقد أنعشه الهواء ، فأحس أنه يغدو نظيفاً بعد إقامته الطويلة فى زنزانته القذرة .

وسأل إيسوب : « إلى أين تقودوننى ؟ »

فأجابه يوزات فى فظاظة : « سترى ذلك عما قريب »

وسرعان ما بلغوا المعبد ، بعد أن اجتازوا طريقاً احتشدت على جانبيه جموع غاضبة ، أقبلت لمشاهدة إيسوب وقد حدّقت فيه ثائرةً حانقةً ، وراحت تتمتم بعبارات معادية .

وأدرك إيسوب أنه إنما اَستُقْدِمَ إلى المعبد لِيُحاَكَم على ما زُعِمَ من سرقته الإناء المقدس !

وقادوه إلى داخل المعبد ، وهناك رأى كبيرَ الكَهَنَةِ والقضاة ، وقد اَجتمعوا وجلسوا إلى مائدةٍ طويلة . ولاحظ أن يوزات قد اتخذ له بينهم مكاناً ، وعند ذلك هبط قلبه الى أحشائه توجساً ووجلا .

وران الصمت الرهيب على جوِّ الاجتماع .

ثم وقف يوزات وقال: « هذا هو الرجل إيسوب الذى اقترف ذلك الوزر ، فاعتدى على معبد أبوللو المقدس فى دلفى . لقد سرق من المعبد

إناء مقدساً ، وحمله معه وخبّأه فى متاعه » .

ومشّط كبير القضاة لحيته البيضاء المسترسلة ، ثم قال « وكيف اكتشفت تلك الجريمة ؟ »

فتنحنح يوزات مُصْلِحاً صوْتَه ، ثم قال : « لقد عرفنا فى ساعة متأخرة من الليل أن الإناء المقدس قد سرق ، ومن ثم بدأَتْ حملةُ تفتيش استمرت حتى صباح اليوم التالى ، ولكن دون الاهتداء إلى الإناء المفقود . ثم تذكر شخص ما أنه رأى ذلك الرجل إيسوب يجوس داخل حرم المعبد قبيل هبوط الظلام ، فتوجهنا من فورنا إلى مسكنه ، فراعنا أنه برحه فى الفجر متخفياً ، وقد حمل معه كل متاعه ؛ فطاردناه فى الطريق المؤدى إلى فوسيديا ، واستوقفناه ، ولما فتشنا متاعه بحثاً عن الإناء الذهبى المفقود ، ألفيناه مخبوءاً فيه وملفوفاً فى قطعة من القماش » .

وهنا سأل أحد القضاة « ومن الذى عثر عليه ؟ »

فصاح الكاهن الذى وجد الإناء ، وقد تقدم مندفعاً إلى الأمام :

« أنا الذى وجدته . أجل ، لقد وجدته بين متاع إيسوب ، تماماً كما قيل لكم الآن ، وملفوفاً فى قطعة من القماش . ولاشك فى أنه قد سرقه . لقد كنت أُفَتِّشُ متاعه ، وهناك وجدت الإناء ملفوفاً فى قطعة من القماش ومدسوساً بين أمتعته الأخرى . لقد سَرَقَه ! »

فعاد القاضى يسأل « هل رآك أحد عندما وجدته ؟ »

فجاءت الأصوات متعالية من كل جانب تقول: « نعم، نعم، لقد رأيته. لقد رأيناه كلُّنا وهو يعثر على الأناء ، وقد كان — كما قال — ملفوفاً فى قطعة من القماش . لا جدال على الإطلاق فى أنه قد سرقه » .

ثم سادت فترة صمت . —

وسئل إيسوب : « ما ذا عساك أن تقول ؟ »

فأجاب إيسوب فى كبرياء وشمَم : « لم أسرقه قط ! »

فهزّ كبير القضاة كتفيه ، ثم قال : « زعْم جدير بالتصديق ، إذن ، فقل لى كيف وُجِدَ بين متاعك ، ما دمت لم تأخذه ؟ نبئنا إذن بتأويل هذا الأمر ؟ »

فأجاب إيسوب وهو يعانى موقفاً ضنكاً : « لست أعرف ، ولكنه إذا كان موجوداً بين متاعى ، فلست أنا الذى دَسَسْتُه فيه . هذا ما أقسم على صدقه . لقد دَسَّتْهُ هنا لك يد أخرى . والذى دسَّه هنالك عرف كيف يهتدى إليه فى يُسْرٍ » .

فسأله كبير القضاة وهو غاضب : « ماذا تعنى بهذا القول ؟ »

فنظر إيسوب إلى الكاهن الذى شهد بأنه عثر على الإناء المقدس ، وألقى عليه السؤال التالى : « أَوَجَدْتَه فى أول حقيبة فتشتها من متاعى ؟ »

وتدخل كبير القضاة قائلا : « وأية أهمية لذلك ؟ إذا لم يجدها فى الأولى ، فلا شك أنه فتّش الحقائب الأخرى بحثاً عنها . أليس كذلك ؟ »

فأجاب الكاهن المدعى : « بكل تأكيد .

فقال إيسوب : « نعم ، ولكنه كان يعرف أين يفتش ، لأنه كان يعرف أين يوجد الإناء ! وأمّا فيما يتصل بى ، فإنى أقسم أننى لم أسرق قط ذلك الإناء ، وأنه إنما دُسَّ على متاعى بفعل واحد من أولئك الذين اقتفوا أثرنا . »

فصاح الجميع : « كلا ، كلا ! بل يجب إعدامه ! »

وقال يوزات « لقد سمعتَ أيْنَ وُجِدَ الإناء ، وذلك عدوانٌ زنيمٌ على محتويات المعابد المقدسة ، ولا شىء غير الموت يمكن أن يثأر للآلهة الغضبى . »

وأمَّنَ الكهنةُ جميعاً على هذا الرأى بهزِّ رءوسهم ، ومن ثم أصدروا حكمهم بإعدام إيسوب . والواقع أن حكمهم عليه كان قد صَدَرَ فعلاً ، حتى قبل أن يمثلَ أمامهم لمحاكمته . وعبثاً حاول إيسوب أن يعارض أو يحتج بإعلان براءته ، أو حتى يحاول الدفاع عن نفسه مستعيناً بالقصص ، وهى سلاحُه الحبيب المألوف .

وقال لهم إيسوب : « دعا الضفدع الفأر لزيارته . ولكى يُعينَه على عبور الجدول ، ربط الضفدع قدمه إلى قدم الفأر حتى يتسنى له ، فى زعمه ،

أن يحمله معه عبر الماء . و بمجرد هبوط الفأر إلى الماء ، حاول الضفدع أن يُغرِقَه ، حتى يأكله على مَهَل . وقاوَم الفأرُ التَعِسُ بعض الوقت ، و بينما كان يُقاوم فوق سطح الماء ، إذْ بطائر من الطيور الجارحة يُبصر به ، فأنقض على الفأر والتقطه بين مخالبه ثم حلَّق به منطلقاً إلى عُشِّه . وحمل معه كذلك الضفدع ، الذى عَجَزَ عن فكِّ الوثاق الذى ربط بينهما ، وهكذا وقع الضفدع فى الشَرَك . و بهذه الوسيلة ، حملَهُما الطائرُ الجارِحُ جميعاً وافترسهما معاً . وهكذا وقع الضفدع فى حبائل شَرَكِه ، وعوقب من أجل جريمته التى اقترفها فى حق حسن الضيافة . ومن ثَمَّ فإنى أبشركم يا أهل دلفى الأوغاد ، بانتقام شديد يأتيكم ممن هو أشد منكم بأساً . وسأفنى أنا كما حكمتم ، ولكنكم أنتم كذلك إلى فناء ! »

ولكن أهل دلفى لم يكونوا ليهتزوا لما عسى أن يصدر عنه من كلام بليغ ، واصدروا حكمهم بإعدامه ، بأن يلقى من أعلى قمة جبل بارناسوس ، ليهوى على جانبه الصخرى الرهيب من ذلك الارتفاع الشاهق .

و بينما كان الحراس يقودونه إلى حيث ينفذ فيه الحكم ، إذا به يفلت من رقابة حراسه ، ويفرُّ لائذاً بمعبد صغير عبر الطريق ، من معابد الإله أبوللو .

وهنا ظفر آخر المطاف بالأمن والنجاة ، ذلك أن المعبد مقدّس ، ولا يجرؤ أحد على مسِّ تلك القداسة . و إذا حدث مثل ذلك ، فإنه

إذن لَجُرْمُهُ أمعن فى المعصية من سرقة الإناء المقدس ، وهى الجريمة التى ألصقوها به . وظنّ أنه مستطيع أن يظل فى هذا المعبد منتظراً عودة بايدان من أثينا . والمرتقبُ أن يعود بايدان منها فى أية لحظة .

غير أن الكهنة تشاوروا فيما بينهم ، ثم تقدّموا ، وعلى رأسهم يوزات ، إلى حيث استخرجوه من ملاذه .

وقال إيسوب يخاطبهم : « أنكم تعتدون على هذا المكان المقدس ، غير حافلين بقدسيته لأنّه معبد صغير . ولكن سيأتى يوم لاتستطيعون فيه أن تجِدوا مَلاَذاً لشروركم وآثامكم ، حتى ولا فى المعابد . وسيحدُثُ لكم مثل ما حدث للنسر الذى كان يطارد الأرنب . ذلك أن الأرنب لاَذَ بِجُحْرِ الخنفساء بيد أن الجُحْرَ لم يكن كافياً لإخفاء الأرنب تماماً . وتوسلت الخنفساء للنسر ألاّ يعتدى على حرمة مأواها ، غير أن النسر لم يكترث بتوسلات الخنفساء ، وأزاحها من طريقه ، وانقض على الأرنب وافترسه . وتعرفون جميعاً أن العقاب الرهيب قد نزل بذلك الجيل من النسور ، حتى ولو أتخذ من جُحْرِ جو بيتر نفسه مأواه وملاذه . »

غير أن أهل دلفى لم يعبأوا بقصصه ، وسخروا منه ، وصعدوا بإيسوب إلى قمة الجبل ، حيث أمسك به الكهنة أنفسكم ، من يديّه ورجليه وراحوا يحركونه بشدة فى الهواء ، تارةً إلى الخلف وطوراً إلى الأمام ، ثم ألقوا به

فى فظاظة على جانب الهاوية الصخرية ، حيث مزّقت الصخور جسده إرْباً إرْباً . ولقد كانت تلك هى طريقة الإعدام المتبعة بدلفى فى ذلك العهد لمن يسرقون شيئاً من المعابد المقدسة .

وبينما القوم وُقوفٌ يصغون إلى صدى آخر صيحة من صيحات إيسوب ، كان بايدان يصعد الطريق الجبلىّ ، منهَكاً ، مقرَّح القدمين ، وقد نَشَرَ بين يده رسالة عاد بها معه من أثينا ، وصاح بايدان :

« إيسوب ، أين إيسوب ، إنّ معى رسالة ، تفيد أنه ينبغى عدم محاكمة إيسوب ، بل أنّ جيشاً أثينيّاً قادمٌ على إثرى . أين إيسوب ؟ وماذا صنعتم به ؟ »

وأشار يوزات إلى الهاوية الرهيبة الماثلة عند أقدامهم وقال ضاحكا « إيسوب هناك ! لقد جئت متأخراً ، وقد جرت العدالة مجراها . »

فزأر بايدان وقد أخبله الغضب : « لم تجر العدالة مجراها بعد ، وإنما سيحدث ذلك الآن » .

وأمسك بيوزات من وسطه ، ثم قفز به عبر الهاوية ، حيث ألقى إيسوب ، فتمزقا شر ممزّق وكانا من الهالكين .

* * *

الفصل العشرون

وسرعان ما انتشر فى مدينة دلفى وباء ، جاءفى أعقاب مصرع إيسوب ، ففتك بالمدينة وحصد أهلها . واستشار أهل دلفى المتنبئين ، وطلبوا إليهم أن يعملوا على تخفيف سورة غضب الآلهة . وأجاب المتنبئون بأنه ليس ثمت سبيل آخر سوى التكفير عن جريرتهم تكفيرا شاملا ، بحيث ترضى روح إيسوب . وسارع الأهلون إلى تشييد هرم له ، غير أن الآلهة لم تُزِل الوباء عن المدينة إلا بعد إفناء أناس كثيرين ، وعندها كان تكفير المدينة عن جريرتها كاملا ووافيا .

ولم تكن الآلهة وحدها التى أبدت سخطها واشمئزازها من هول هذه الجريمة الشنعاء .

فقد انتقم البشر كذلك لمصرع حكيمهم .

ذلك أن الإغريق أوفدوا مندوبين لتحقيق الجريمة ، ونزل بأهل دلفى العقاب الشديد .

وماذا عن إيسوب ؟

لقدمات ، سيق إلى الاعدام غدرا وافتئاتا بأيدى أهل دلفى . ولكنه

كان سيموت إن عاجلا أو آجلا ، ذلك أنه بشر ، ومهما كانت الميتة التى ماتها ، فإن النتيجة واحدة على كل حال .

ولـكن المهم حقا هو أسلوبه فى الحياة ، وجهاده فى سبيل نشر الحـكمة وإشاعة التفـــاهم بين البشر . فهو ، لازال فى الواقع حيا بأعماله ، بل هو خالد باسمه . وصدق العرّاف القديم حينما قال له إن اسمه سوف يبقى على مدى قرون لا حصر لها ، وسيظل حيا طالما كان للاسماء معنى على شفاه الناس .

(ختـــام)

تصويب الأخطاء

وقعت بعض الأخطاء المطبعية التى لا شك أن القارىء سيدرك بالبديهة صواب معظمها ، وفيما يلى نثبت بأهم تلك الأخطاء :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
ح	١٧	بعيد	بعد
٧	١	بين	(تحذف)
٤٠	١٥	أو ما يتغاضى	أو يتغاضى
٥٦	٦	يخاطب	يخاطب
٥٨	١٤	تقرراً	تقريراً
٦٨	١٧	فق	فوق
٩٣	٨	ترقص	ترفض
١١١	١٠	بعل	بعمل
١١٥	٩	لا ولا	ولا
١١٦	٤	منطق	منطلق
١٢٩	٨	وجأ	وفجأةً
١٣٦	٦	الغربية	الغريبة
١٣٩	٥	عن	عن
١٦٣	٢	مستشارويكم	مستشاريكم
٢٠٨	٦	أما إيسنوس	أمام إينوس
٢٢٤	١٧	الى هذا	إلى أنّ هذا
٢٣٩	٧	الأخر	الأخرى
٢٤٨	١٥	أحدها بامرأة	إحداها فامرأة

صدر من كتب الأدب فى الدفعة الأولى

من مجموعة الألف كتاب

(أدب عام ، تاريخ الأدب ، نقد ، شعر ، قصص)

---

١ ـ كفاح تأليف جالسورذى
٢ ـ كفاح الأحرار تأليف ليام أوهارتى
٣ ـ الأحمر والأسود تأليف ستاندال
٤ ـ منزل الأموات تأليف دستوفسكى
٥ ـ الحاج مراد تأليف تولستوى
٦ ـ عذراء اللورين تأليف مكسويل اندرسون
٧ ـ أساطير من الأمم المتحدة تأليف فرانسيس فروست
٨ ـ الأدب المقارن تأليف م . ف . جويار
٩ ـ القوة والمجد تأليف جراهام جرين
١٠ ـ توم صوير تأليف مارك توين
١١ ـ طريق إلى الهند تأليف ا . م . فورستر
١٢ ـ أعلام الفن القصصى تأليف ه . توماس

١٣ — بين العمل والأمل   تأليف چينى لى

١٤ — مكتب البريد   تأليف تاغور

١٥ — الأشباح   تأليف هنريك ابسن

١٦ — مختارات من المسرحيات القصيرة

١٧ — مختارات من القصص الانجليزية القصيرة

١٨ — تاريخ الأدب اليونانى   للدكتور محمد صقر خفاجه

١٩ — تاراس بولبا   تأليف جوجول

٢٠ — العالم سنة ١٩٨٤   تأليف جورج وأرول

٢١ — إيسوب   تأليف ا . د . وينتل

٢٢ — الزوجة الأولى   تأليف بيرل بك

ألوان وأرقام مجموعة الألف كتاب

لكل كتاب رقمان . الأول ، الرقم العام ويدل على رقم الكتاب في السلسلة وهو مكتوب على الصحائف الأولى وعلى كعب الكتاب ، بين اسم الكتاب واسم المؤلف . والثانى الرقم الخاص ويدل على رقم الكتاب من حيث الموضوع وهو مكتوب على الغلاف عند أسفل الكعب .

والمجموعة كلها مقسمة إلى أربعة موضوعات رئيسية لكل منها لون خاص .

١ — الأدب (أخضر) ويشمل . الأدب العام ، تاريخ الأدب ، النقد ، الشعر ، القصص

٢ — العلوم (أزرق) وتشمل . الزراعة ، الصناعة ، الطب ، الكيمياء ، الفلك ، الحيوان ، الرياضيات .

٣ — العلوم الإنسانية (أحمر) وتشمل . الاجتماع ، الاقتصاد التربية ، علم النفس التاريخ والتراجم ، الجغرافيا ، الرحلات ، الدين ، السياسة ، الفلسفة ، القانون ، المعارف العامة .

٤ — الفنون (بنى) وتشمل . الإذاعة ، التصوير ، الرسم ، المرح ، الموسيقى ، الرياضة البدنية .

PDF Scanner

Download Now